التعصب والتسامح

بين المسيحية والإسلام

دحض شبهات ورد مفتريات

محمد الغزالي



دار القلم
دمشق

التعصب والتسامح

بين المسيحية والإسلام

دحض شبهات ورد مفتريات

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ
١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

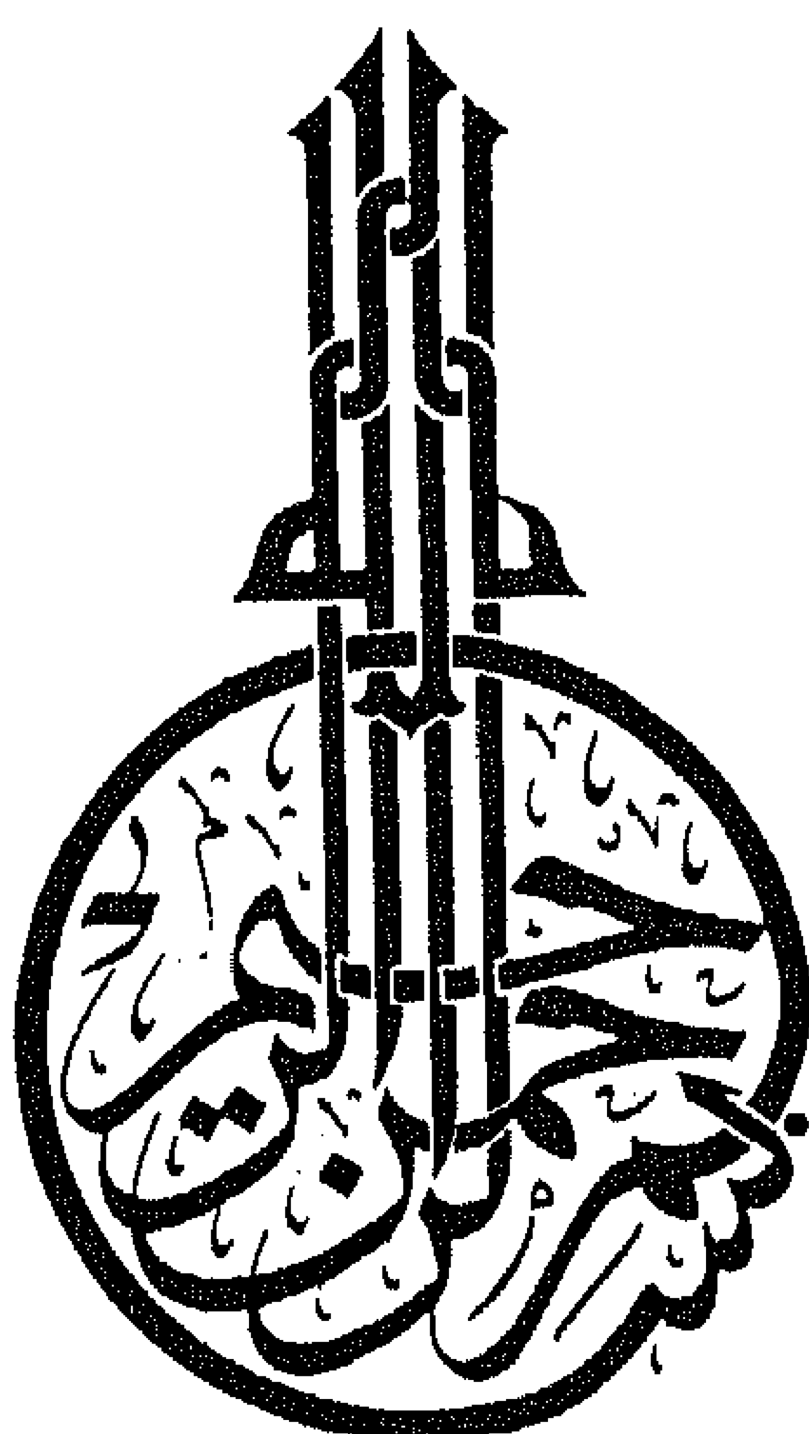
التعصب والتسامح

بين المسيحية والإسلام

دحض شبهات ورد مفتريات

محمد الغزالي

دار القلم
دمشق



مقدمة

هذا بحثٌ استكرهني أعداءُ الإسلام على خوضه، وهم لم يحسنوا إلى أنفسهم إذ فتحوا هذا الباب ـ كما ظنوا ـ ولا أساؤوا إلى الإسلام ـ كما أحبوا ـ.

فالمسألة لا تعدو أنَّ أحمقَ غرَّته الأمانيُّ، فجاء يناوش القِلاعَ الشُّم، فأصابته قذيفةٌ، أودَت به ودمَّرت عليه مكمنه.

وبقيت القمم كما هي، ترد الطرف، وعاد المغرورون إلى أوكارهم الهشَّة، فإذا هي مُسَوَّاةٌ بالرغام[1] . . .

لقد كنا سكوتنا عن طمأنينة، مسالمين عن قوة، نخدم ديننا وأمتنا في بعدٍ عن الجدل وإيثارٍ للمودة، حتى جاء من يحاول ـ بغباوته ـ استفزازنا!

وبِمَ؟ بالهجوم على الإسلام، ونبيِّه، وصحابته، وتاريخه منذ ظهر إلى اليوم. . !!

ولم؟ لأنه يلمح في الأفق بوادرَ تجمُّعٍ حول الإسلام، وإيقاظ لدولته، وإحياءٍ لأمته، فهو يحاول أن يحولَ دون هذا كله. . بغية إنقاذ العالم من مغبة عودة الإسلام إلى ميدان الحكم والتشريع والسياسة. . .

وما العالم الذي يريد إنقاذه من الإسلام؟

ألعلَّه يريد إنقاذ الأمريكان وأحلافهم، والروس وأشياعهم؟

إنَّ الإسلام ليس خطراً على أمةٍ بعينها أو جنسٍ بذاته. . إنما هو خطرٌ داهم على الإذلال والتعصب والختْل[2]، وما يخاف شعبٌ شريف الغاية من عودته،

---

(١) الرغام: التراب.
(٢) الختل: الخداع.

ولا جنسٌ نقيّ النية من دولته.

وإننا لنجزمُ بأنَّ كلَّ عائقٍ يوضع في طريق هذا الدين الكريم؛ إنما هو لحساب القوى الغاشمة، والسلطات العفنة، مدنية كانت، أو كهنوتية.

* * *

ليس لي في هذا الكتاب أكثر من سَوْق الحقائق مجرَّدةً عن أهواء المغرضين، وأكاذيب المدلسين.

وهو جهدٌ ـ وإن كان يسيراً ـ إلا أنَّ الناس فقراء إليه. فإنَّ لَبْسَ الحق بالباطل عملٌ برعَ فيه كثيرون، وضلَّ به الأكثرون، ولذلك يقول الله لأحبار اليهود:

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

ولا يحسبنَّ القارئ أني ـ في هذا الكتاب ـ ضخَّمتُ شُبَهاً ثم هدمتها، أو عُنيتُ بحملاتٍ تافهة ثم رددتها.

لا.. لقد أبصرتُ طلائعَ هجومٍ منظَّمٍ على الإسلام، وكيد متين لأمته، فأحببتُ أنْ أسحقَ الطليعة الجريئة حتى أُشَرِّدَ بها مَنْ خلفها، وأعلمها ألا تهيِّج مرةً أخرى أسبابَ المنايا عليها.

وإلا.. فهي التي سعت إلى حتفها بظلفها...!!

* * *

وأذكرُ أنَّ الرجل الذي كلَّفني بكتابة هذا البحث قد طلبَ إليَّ أن ألتزمَ حُسْنَ العرض، وأن أكتفي بتنحية القذى عن طريق الإسلام، دون غضبٍ أو تحدٍّ.

وقد بذلت الجهد في إجابة نصحه، وإنْ كنت شعرت أحياناً بسورات الغيظ تملكني وتجرفني، إذ أجد هوًى يغطّي وجهَ الحق المبين، وعسفاً يراد فرضه على الصرط المستقيم.

وما كان الإسلام ينتظر ممن أحسنَ إليهم في أرضه، أن يتربصوا به، ويعينوا

عليه، أو يتلمسوا لأهله الأبرياء شتى العيوب.

وعلى أية حال، فقد رأينا في تحامل المغرضين على الإسلام فرصةً مواتية لتجلية دعوته، وشرح تاريخه، وتفنيد المفتريات الموجَّهة إليه.

ومثل هذه الدراسة تلذّ للنقّاد المجرَّدين، فقد سُئل عالم: ما سعادتك؟

قال: «في حجةٍ تتبختر اتِّضاحاً، وشبهةٍ تتضاءل افتضاحاً».

* * *

لقد كتبتُ هذا البحث وأنا مسلمٌ أحترم ديني وأتمسَّكُ به، ولم يكن اعتناقي للإسلام حجاباً عن تلمُّس الحقيقة في مظانّها، والتقاطها حيث وجدتها.

ولست أعرف ما يكون وقعُه عند أصحاب الأديان الأخرى، ولكني أعلن أني أتلقى بقَبولٍ حسن كلَّ نقدٍ علميٍّ يعتمد على الحق وحده، كما أعلن أني ـ وكثيراً من إخواني المسلمين ـ ما اعتدينا، بل رَدَدْنا العدوان، وما تحدَّثنا حتى حملَنا غيرُنا على الكلام.

وربما كانت الحقائقُ مُرَّةً في بعض الحلوق، ولكن ما حيلتنا؟ وقد أراد نفرٌ من الناس تشويهَ وجوه الأطهار، فكشفت الأقدار عمّا يصبغ وجوههم هم من غبار!؟.

* * *

إنَّ الأحقادَ الطائفية والحروبَ الدينية غريبةٌ على أرض الإسلام، فقد أَلِفَ هذا الدين منذ بدأ أن يعاشرَ غيره على المياسرة واللطف، وأن يرعى حسنَ الجوار فيما يشرع من قوانين ويضع من تقاليد.. وهو ـ في مَيْدان الحياة العامة ـ حريصٌ على احترام شخصية المخالف له. ومن ثَمَّ لم يفرض عليه حكمه في الحلال والحرام، أو يقهره على الخضوع لشرائعه، بل ترك أهل الأديان وما يدينون.

خذ مثلاً الخمر والخنزير، إنهما ـ بالنسبة للمسلم ـ لا يُعدَّان مالاً له قيمة، بل الحكم بحرمتهما ورجسهما معروف.

ومع ذلك فالمذاهبُ الإسلامية ترى أنهما بالنسبة إلى النصارى مالٌ متقوِّمٌ

يصحُّ تملُّكه وتمليكه، ومن ثَمَّ تعترف بتعاملهم فيهما.

وانظر إلى ما يقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابَي (البدائع) و(المغني):

إنَّ أنكحةَ غير المسلمين لها أحكام الصحة. لِمَ؟

لأنّا قد أُمرنا بتركهم وما يدينون..

ويبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج المجوسي من ابنته ما دامت شريعته تبيحُ له ذلك!.

وفي (المغني): مجوسيٌّ تزوَّج ابنتَه، فأولدها بنتاً، ثم مات عنهما فلهما الثلثان..!!

إنَّ الإسلامَ لم يقم على اضطهاد مخالفيه، أو مصادرة حقوقهم، أو تحويلهم بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر بأموالهم وأعراضهم ودمائهم.

وتاريخُ الإسلام في هذا المجال أنصعُ تاريخٍ على وجه الأرض.

وليتَ التواريخ الأخرى تقترب من ليونته وسماحته.

أقول: تقترب منه، ولا أقول: تشابهه، لأنَّ الواقع الفائت فيما حفظته الدنيا من حروب التعصب وغارات الإبادة والتجنّي يجعلنا لا نشطحُ مع التمني، ولا نَسرح مع الخيال.

وفي الحروب الدينية التي عرفها التاريخ الأوروبي دلالاتٌ يخزى لها أولو الضمائر.

* * *

والغريب أنَّ نفراً من المستشرقين والمبشرين تعامى عمداً عن هذه الحقائق، وأراد أن يتعامى عن تاريخه القائم، لا، بل أراد أن يُلصقَ بالإسلام مفترياتٍ لا عهد له بها في تاريخه القديم والحديث.

فقام يتّهم الإسلامَ بأنه أساء إلى مخالفيه، وأنه صَنَعَ بهم كذا وكذا[1].

---

(١) نحن في هذا الكتاب نردُّ على حشدٍ كبير من الادعاءات التي صنعها الدسُّ الاستعماري=

وكأنه يريد بذلك ـ إلى جانب إهانة الإسلام ـ خلخلةَ ثقة أهل الكتاب في الكثرة المسلمة التي تعيش معها في سلام منذ أجيال.

ونحن على يقينٍ من أمرين:

أولهما: أنَّ حبلَ الباطل قصير، وأنَّ تعاليم الإسلام لن تتأثر أبداً بمحاولات الكذب والاختلاق، وسيبقى مَسْلكُ هذا الدين مثلاً أعلى لأروع ضروب الاعتدال والتسامح، مهما اجتهدَ المُرْجِفون ونَفَثوا في أفقه الدخان.

وآخرهما: أنَّ عملاء الاستعمار لن يتحقَّقَ لهم أملٌ في استغلال الأقلّيات الدينية، وربط عواطفها بالغرب الصليبي، وإنْ بدا لهم أنَّ ذلك ميسور الإدراك.

وقد تيقَّظَ العقلاء لهذه الخيانات، وتجمَّعوا ـ مسلمين ونصارى ـ ضدَّ العدوّ المغير، ورأوا أن لا بدَّ مِنْ رَدِّه على أعقابه وتطهير البلاد ممن يلوذون به ويعتمدون عليه.

ولعلنا في كتابنا هذا نكون قد أنصفنا الحق، وكَشَفْنا الغطاءَ عن أمورٍ ذات بال، ما ينبغي أن تغيبَ عن الأذهان.

محمد الغزالي

= الفرنسي، وحاول فيها إثارةَ اللغط حول سياسة الإسلام ضد مخالقيه، وقد استرسلنا في الحديث كي نهتك الستر عن وجوه الكَذَبة، وندعهم عبرةً للمعتبرين.

هذه العصبيات:

مع غلبة الأوهام، وانتشار التفاهات، يستكثر الصغار من الأمجاد الكاذبة، ولم لا يستكثرون منها، وهي لا تغرّمهم ثمناً، ولا تكلّفهم جهداً؟

إنَّ اختلاف البشرة في ألوانها يعطي البيضَ فضلاً ليس للسود. . !!!

وميلاد المرء فوق قطعةٍ من الأرض دون أخرى يجعل وطناً أرقى من وطن.

وتكوين جنين في بطنٍ معيَّن من نطفةٍ معيَّنة يخلق نسبةً أشرف من نسبة.

فإذا اصطنع أقوامٌ من هذه الأحوال وأشباهها فروقاً يتشبَّثون بها، ويدورون حولها، فماذا عليهم؟

لقد صفرت أيديهم من الجد، فملؤوها بالهزل، ثم شقُّوا طريقَهم في الحياة وعلى خدودهم صَعَرٌ[1]، وفي قاماتهم تطاول.

وشأنُ عالمنا هذا غريب (ليته يتوقف عن المسير كما تتوقف السيارة حين ينفد وقودها، فتطلب مزيداً تستأنف به رحلتها، إنها لن تسيرَ إلا بوقودها الصحيح) فهو مستعدٌّ لأن يسير، ولو وضعوا له بدل الوقود تراباً أو قمامة، إنه يسير مهما اضطربت وِجهته، واختلَّت حركته.

وهل اندفاعُ العالم بالعصبيات المحضة ـ بعد تنكره للمثل العليا ـ إلا ضربٌ من هذا السير المجنون؟

---

(١) صعر: تكبّر.

عصبياتٌ للأسر، عصبياتٌ للأوطان، عصبياتٌ للأجناس.

أما الحقائقُ الكبرى التي تعلو هذه النزعات الطائشة، وتحكمها بحزم، فإنَّ العالم في جاهليته القديمة أو الحديثة لا يُلقي بالَه إليها.. لأنها تعكِّر عليه نعيمَ الأمجاد الزائفة، التي ينتجها في ظلال هذه العصبيات.

إنَّ ناساً يريدون أن يسودوا، لأنَّ فروجَ الأمهات يوم قذفت بهم إلى هذه الحياة أضفت عليهم هالةً خاصة.

أصغِ جيداً إنهم أشراف!!.

فلو غربلتَ التراب السافي عن رفات آبائهم الذاهبين، لبرقَ بالمواهب الدفينة، التي ستنتقل حتماً من الأجداد إلى الأحفاد، فيجب أن نحني الهامَ إجلالاً لهم.

وهؤلاء.. إنهم الجنس الأبيض الممتاز، لقد نَضَحَ صفاءُ قلوبهم على لون جسومهم، فكساهم شمائلَ لا تبلى من الفضائل والإيثار!!.

فلنفسح الطريق أمام الجنس المختار، ولندفَع الأجناس الأخرى إلى الخلف بمقامعَ من حديد.

ثم هؤلاء الذين ولدوا معنا على صعيدٍ واحد!! إنَّ لهم حقاً أكبر، وأولئك هم مواطنونا الأعزاء، يجب أن ترجح رابطتنا بهم كل رابطة أخرى.

إنكلترة فوق الجميع، ألمانية فوق الجميع، مصر فوق الجميع..

لكن من هم الجميع الذين يجب أن يهبطوا إلى تحت؟ لتنتصب فوقهم الأوطان الخاصة ببعض البشر؟

إنَّ العصبيات لا يعنيها أن تجيب، لأنَّ العصبيات لا تعرف منطق العقل المعتاد.

إنَّ العصبيةَ حماسٌ يشتعل، وليست حقاً يضيء.

الدين والعصبيات:

هذه العصبيات ـ برغم ما يساندها من قوانين وتقاليد ـ هي في نظر الدين حماقةٌ كبرى، والاعتراف بها هدمٌ للأركان الأولى من الرسالات التي أنزلها الله هدايةً للعالمين.

إذْ قوامُ هذه الرسالات أنَّ الإنسانَ مسؤولٌ بنفسه عن نفسه، يقدِّمُه ما اكتسبَ من خيرٍ فحسب، ويؤخِّرُه ما اكتسبَ من شرٍّ فحسب.

ولامكانَ في هذا الميزان القسط لتدخُّل بشر، كبيرٍ أو حقير.

ولا حسابَ في تقويم شخصٍ ما لوطنه أو نسبه.

ولا اعتبارَ البتة لما تواضعَ الناسُ عليه من شارات الرفعة أو الخسة.

ابن النبي أو ابن البغي سيان.

إن تأخَّرَ الأول في سباق الصالحات لم ينفعه حسبُه.

إنْ تقدَّم الأخير لم يضرُّه نسبه.

وقد أوضح الله هذه المبادئ لا في القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ فحسب، بل في كتب الأنبياء الأولين كذلك..

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٤١].

وتلك قاعدةٌ تمليها العدالة المجردة.

ومن ثَمَّ فهي قاعدةٌ قديمة مع الأزل، مسترسلةٌ مع الأبد، لا يلحقها نسخٌ، ولا يخدشها استثناء.

﴿ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

ولما كان الظن قد يسبق إلى أنَّ اصطفاءَ الله لبشرٍ ما، كيما يحمل أعباء الدعوة إليه، ربما أشعرَ باختصاصٍ يخرجه عن هذه القاعدة، فإنَّ الله كذَّبَ هذه الظنون، وبيَّن أنَّ المرسلين كغيرهم أمام هذا القانون العام.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧-٨].

وحدَّدَ الله سبحانه صلةَ الأتباع المستجيبين، بالنبي الذي علَّمهم، فكان هذا التحديد القاطع ردّاً للأقارب والأباعد إلى القانون الذي لا يهتم بقربى ولا قرابة، قانون العمل والجزاء الذي لا يستطيع نبيٌّ أن يغيِّر من نتائجه لتطيش براجحٍ أو ترجح بطائش.

وإيماءً لهذه الحقائق أمرَ الله رسوله ﷺ أن ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

هذه الأوامر الصريحة تهدف إلى إفهام كل بشر، أين كان، ومتى كان، إلى أنَّ تحليقه أو إسفافه طوع إرادته الحرة، وأنه وغيره سواسية في جوٍّ طليق رحب، وأنَّ كافة ما اختلقه الدجالون من تفاضلٍ بأوطانٍ أو أنساب أو ألوان هراءٌ في هراء.

هذا هو الحق في حساب المثوبة أو العقوبة يوم الدين.

وهو الحق في مقياس الرذيلة أو الفضيلة في الدنيا.

ولا تحسبنَّ ذلك مقياساً خاصاً لضبط أعمال الأفراد، وتسجيل ما تبلغه الأنفس من نقصٍ أو كمال..

أما سياسة المجتمعات والدول فلها قانونٌ آخر!

ذلك هو الضلال البعيد.

إنَّ الله شرعَ دينه نظاماً للنفس وللمجتمع وللدولة جميعاً.

وما اعتبره شراً في أحوال النفس هو شرٌّ مضاعف يوم يقوم عليه مجتمع، وتُبنى عليه حكومة.

وما دام قد أهدرَ الأنساب والألوان والأوطان في تقدير النفس فبالأحرى أن يهدرَها في تقدير الدول والشعوب.

ومن ثَمَّ فأساس الدولة المحترمة عنده أن تنهضَ على دعائم من الخير والصلاحية، لا على مزاعم من الانتفاخ الأجوف والعصبية العمياء.

فالمبدأ، والتعارف عليه، والاقتراب منه، هو أساس الحكم، لا قطعةَ الأرض، والمعيشة عليها، والجوار فيها.

والحق الذي تكمل باعتناقه ـ وأنتَ فرد ـ هو الذي تكمل باعتناقه وأنتَ دولة.

إنَّ الحقَّ ليس الشمعة التي تضيئك من الداخل فقط، بل هو الشعاع الذي تبصر عليه طريقَك في الحياة كذلك.

وقد جَعَلَ الله من دينه رابطةَ تقريب البعيد، ورحماً تعطف الأفئدة، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وترابطُ الجماعة المؤمنة ليس عصبيةً من النوع الذي نعيناه، وحاشا أن يكونَ كذلك!! فإنَّ أول خصائص المجتمعين على الحق أن يسوسوا به أنفسهم وغيرهم، وإذا قلنا: إنَّ الإسلامَ عروةٌ وثقى بين أتباعه جميعاً، فإنَّ ذلك التناصر في حدود دستور الإسلام القائل: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢]، وأيُّ مسلكٍ ينافي ذلك من منتسبين إلى الإسلام فهو خروجٌ على الإسلام.

إنما احتقرنا العصبيات كلها لأنَّ قانونها الهوى .

واحتفينا بالدين لأنَّ الذي شرعَه أخذ به أتباعه أولاً ، فهم محكومون به قبل غيرهم من الناس .

وعندما قام نبيُّ الإسلام ﷺ يدعو إلى الله تنكَّرَ له من مواطنيه وآله أقوام .

فقرر أن يقطعهم ، وآزره على دينه قبيلٌ غرباء ، فوصلهم ولحق بهم .

ومن المؤمنين بالإسلام ـ على اختلاف منازعهم الأولى ـ قامت دولته الكبرى ، قامت على أساس الانخلاع التام من دعوات الجاهلية .

إنَّ رجالها كانوا يُبْصرون الناسَ على ضياء الإيمان ، كما نُبْصر نحن الأشخاص والأشياء على ضوء الشمس .

ولم لا . وقد علمهم الله أنَّ وزنَ الأمور بغير ذلك ضربٌ من الردة؟

روى المفسرون أنَّ شأسَ بن قيس اليهودي ـ وكان شيخاً عظيمَ الكفر ، شديدَ الطعن على المسلمين ـ مرَّ بنفرٍ من الأوس والخزرج ، وهم في مجلسٍ يتحدثون ، فغاظه ما رأى من أُلفتهم ، وصلاح ذات بينهم في ظل الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : اجتمعَ ملأ بني قيلة بهذه البلاد! والله ما لنا معهم ـ إذا اجتمعوا ـ من قرار! فأمر شاباً من اليهود كان معه ، فقال له : اعمد إليهم واجلس معهم ، ثم ذكِّرهم يومَ (بُعاث) وما كان قبله ، وأَنْشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من أشعار! .

وكان (بُعاث) يومُ قتالٍ مرير بين الأوس والخزرج ، انتصرَ فيه الأولون على الآخرين ، ففعل الشاب اليهودي ما كُلِّفَ به ، فتكلَّم القوم عند ذلك وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثبَ رجلان من الحيين على الركب .

وقال أحدهما : إنْ شئتم ـ والله ـ رددناها الآن جذعة!!

وغضبَ الفريقان جميعاً وقالا : قد فعلنا : السلاحَ السلاحَ ، موعدكم الظاهرة ـ يعنون حَرَّةَ المدينة ـ فخرجوا ، وانضمَّت الأوس والخزرج بعضهم إلى

بعض على دعواهم في الجاهلية، فبلغَ رسولَ الله ﷺ ما حَدَث، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، وقال: «يا معشر المسلمين، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ أبعدَ إذْ أكرمكم الله بالإسلام، وقَطَعَ عنكم أمرَ الجاهلية، وألَّف بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفاراً؟؟. اللهَ اللهَ..».

فعرف القومُ أنها نزغةٌ من الشيطان، وكيدٌ من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا، واعتنق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، ونزل قول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠٠ ـ ١٠١].

إنَّ اليهوديَّ الحاقد على الإسلام أراد أن يمكر بأهله، فلم يجد أسرعَ في نقض غزلهم من إثارة العصبيات القديمة بينهم.

والحقُ إنَّ تعصُّبَ اليهود ضد الدين الناجح لم يكن شراً عليه من استجابة أتباعه لوساوس العصبيات البائدة.

والنظر فيما أصاب المسلمين ـ بعد ـ من متاعب يدل على أنَّ العصبيات التي قسّمت وحدتهم من الداخل كانت أنكى بهم من تعصُّب أعدائهم ضدهم.

عودة الجاهلية:

في العالم الحديث عصبياتٌ عنصرية، وجنسياتٌ لا ضمير لها، تثور بين الحين والحين، لتوقعَ المظالم بالمستضعفين من أجيال الزنوج والهنود وأشباههم.

وفيه تعصُّبٌ لما أُلِفَ من أفكار ومبادئ، وتعصُّبٌ ضدَّ ما جُهل من أديان وتواريخ، وحديثنا الآن لا يتناول هذه الأنحاء المتشعبة.

إنما حديثنا عن العصبيات التي تسود أرضنا، فإذا انتهينا منها تحدثنا عن التعصب الكامن في بعض الأنفس ضدَّ إسلامنا.

ذلك أنَّ الإسلام اختنق ـ أو كاد ـ بين عصبيات المستحمقين من أتباعه، ثم تعصبات الناقمين على امتداده القديم من أتباع الديانات الأخرى.

ما العصبيات التي تنتشر في بلادنا؟.

إنها نزعاتٌ بدائية سمجة قَسَمَت الجماهير في القرى والمدائن إلى قطعانٍ متناحرة، وقبائل متنافرة، وركام من الأشياع يزيده الوهم، وينقصه الوهم، وتصرّفه قياداتٌ همجية عفنة لا دينَ لها ولا دنيا.

إنها عصبياتٌ قامت ودامت مع قيام الجهل ودوامه، وتطاوُل لياليه، وتراخي أيامه.

فإذا أرضُ الإسلام معرضٌ مشحون بالسخريات.

وحدته الصغرى، القريةُ التي تتنازعُ سيادتَها أسرٌ معينة، ووحدته الكبرى الدولةُ التي تتنازع حكومتَها أسرٌ معينة.

فإذا نظرتَ إلى الخَرِبِ والمعمور من أرض الله، واستعرضتَ القارات الخمس الحافلة بالأحياء، لم تلبث أن ترى هذه البلاد الإسلامية مدموغةً بهذا الطابع المخزي، مدموغةً به وحده.

فهي في ميدان السياسة العالمية حقلٌ للعصبيات، التي تتضخم فتأكل دولاً، أو تتضاءل فتأكل جملةَ قرى.

وقد اختفت قيمة الفرد ـ من حيث هو إنسان ـ وهانت قيمة الأمم ـ من حيث هي رأيٌ عام ـ وسط هذه الأغوال الكالحة من العصبيات الكبرى والصغرى.

لقد استطاعت الهند ـ وهي أمةٌ وثنية ـ أن تتخلَّص من أوزارٍ لم تزل بعض بلاد الإسلام تعاني من قيودها.

وأنواع العصبيات والتعصب التي تشيع في العالمَيْن ـ الشيوعي والرأسمالي ـ أرقى من الطور البدائي الذي يغلب على أرضنا.

فرئيسُ الولايات المتحدة ـ مثلاً ـ وصل إلى منصبه بعد أن تقلّبَ في ماضيه بين مهنٍ تافهة ـ على ما نفهم ـ أو وضيعة ـ بتعبير البيوتات الأصيلة! .

ويستحيل على مثله لو كان بين ظهرانينا أن يحوزَ معشارَ هذا النجاح، لأنَّ الانتماء إلى أسرةٍ رفيعة العماد شرط الترشيح لرئاسة إقليمٍ صغير في بلادنا العزيزة، وإنْ لم يكن شرط التقدم لرئاسة الدولة الأولى في العالم أَجمع .

وهذا مدى فهمنا وفهم غيرنا لحديث محمد بن عبد الله ﷺ: «من أبطأ به عمله لم يُسرع به نسبه» .

وقوله لابنته: «يا فاطمة بنت محمد اعملي لا أغني عنك من الله شيئاً» وتحذيره لأسرته بقوله: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم» .

* * *

وقد تكونت في بلاد الإسلام عقدتان شنيعتان كأثرٍ حتميٍّ لتغلغل العصبيات في كيانه، وهيمنتها على مقدراته .

أولاهما: هوان الكفايات الخاصة وكساد سوقها، وإحساس الكثيرين أنها لن تصلَ جدواها ما يصل إليه الحظ المواتي، يمده نسبٌ عريق، أو جاهٌ وثيق .

وقد تخلخلَ ضغط هذه العصبيات قليلاً مع تقدُّم العلم وشيوعه .

ومع ذلك فإنَّ رجلاً يقضي في تحصيل العلم عشرين سنة قد يسبقه رجلٌ يجيء بشهادةٍ ترفع نسبه إلى فلان .

ولن تكون مناعته الاجتماعية على كل حال مناعةَ رجلٍ ذي أسرةٍ ضخمة .

والعرب يقولون: إذا كان الرجل أبا عشرة، وأخا عشرة، وخالَ عشرة، فقد عَزّ!! .

وفي قبائل العرب، وقرى الصعيد، بل عندما كنت في قطاع غزة ـ بقية مما أبقى الأقوياء من فلسطين المأكولة ـ كنت أنظر محسوراً إلى هذه العصبيات المتنابزة بالألقاب المعتزة بالأحساب .

ثم ألقيت النظر إلى أحوال اليهود داخل إسرائيل حيث لا عزوة، ولا أسرة، ولا سناد، إلا الكفاية الخاصة، يجيء بها الإنسان مطارَداً من الدنيا، فيأوي في هذه البقاع إلى جهده وكدِّه فحسب.

مع هذا كانت أفواهٌ تنفتح ـ وددتُ لو حشيت بالنعال ـ تقول: نحن أبناء العرب الأشاوس!!... وأولئك شذّاذ الآفاق!!...

ما هذا العمى؟

لقد اغتاظ نبيُّ الإسلام ﷺ أشدَّ الاغتياظ من هذه النزعة السخيفة عندما قال: «لينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننَّ أهونَ على الله من الجُعَل الذي يدهده الخُرء بأنفه... إنَّ الله أذهبَ عنكم عِبّيّة الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خُلق من التراب».

ما قيمةُ شريفٍ من بني هاشم، ثقافته فك الخط، إلى يهوديٍّ اخترعَ الغازات الخانقة؟.

وبأيِّ أصلٍ في دين الله أو في دنيا الناس يستحقُّ هذا أن يشرف؟ وهذا أن يتضع؟ إذا كان حظ هذا من الإسلام أن يحفظ اسم أبيه، وحظ هذا من اليهودية أن يتعلَّم؟..

وما زلت أذكر مساخرَ الحرب الأخيرة بين العرب واليهود، كانت الصحف تنشر أسماءَ قادتنا الكبار، ومن بين يديها ومن خلفها مجموعة ألقاب!!.

والغريب أنَّ الذين هزموهم رجالٌ يعدُّون في المجاهيل، لم يطنطن بهم أحد، لأنه في المجتمعات السليمة تتقدَّم الأعمال أولاً، ثم يُذكر ـ بعدئذٍ ـ أصحابُها.

أما في المجتمعات المنحطة، فإنَّ الأسماءَ تُذكر أولاً، ثم تُتصيَّد لها الأمجاد.

هذا هو منطق العصبيات المسيطرة!.

* * *

وثانية العقدتين اللتين خلقتهما العصبيات: التواطؤ على كتمان الحقائق، وتضخيم التوافه، وتعميم الفساد.

ففي كنف هذه العصبيات المجرمة تفهم الأمة الأمور فهماً مقلوباً، فتشبه راكب القطار الذي يعتقد أنَّ الأشجار والأنهار على كلا الجانبين تجري، وأنه واقفٌ في مكانه.

وهذه الجهالة المركَّبة أفقدت أمةَ الإسلام خصائصها الجلى.

فإنَّ الله لمّا أثنى على المسلمين بخير ما فيهم قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

أيْ أنَّ إحقاقَ الحق وإزهاقَ الباطل وإقرار الإيمان هي صفاتنا التي نتميز بها.

لكن الذي يحدث الآن، أنَّ هناك جرائم خُلقية واجتماعية وسياسية لا يجرؤ العتاة على ارتكابها في أيِّ بلدٍ من بلاد العالم تُرتكب في بلادنا دون نكيرٍ ولا محاذرة.

والشياطينُ الخُرس مكممو الأفواه!!.

وإنَّ هناك أنظمةً ومناهجَ هي الإصلاح المصفَّى، لا يوجد في أقطار العالم قطرٌ أحوج إلى تطبيقها منّا.

ومع فقرنا الملحّ إليها فإنَّ مَردةَ العصبيات يعوِّقون انتفاعنا بها.

وليت الشياطين الخرس بقيت مكممة الأفواه، فلم تأمر بمعروفٍ، ولم تنه عن منكر.

لقد اشتغلوا بحرق البخور، وإدارة مجامرها لتعطير مجالس الظلمة...

والحق أنَّ التعلُّقَ بهذه العصبيات ضربٌ من الوثنية الطاغية، وأنَّ إضراره بعقيدة التوحيد لا يقلُّ عن تعلُّق الجاهلية بـ(ود) و(سواع) و(يغوث).

* * *

أوَليس من المضحك أن تسمع بعدئذٍ عن دعايةٍ للإسلام في الخارج؟ وتبشيرٍ بمبادئه؟ وإنَّ أمتنا تأخَّرت في داخل حدودها برغم أنف دينها.

كم من منكرٍ اجتماعي وسياسي توطَّدت بيننا أركانه. . . !

وكم من معروفٍ اجتماعي وسياسي مُسِخَتْ عندنا معالمه. . . !

إنَّ المراحل شاسعة جداً. بين ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وبين الأوضاع المزرية التي تضطرب فيها أمةٌ تقسمتها العصبيات، وأنامتها تحت وطأة رجعيةٍ مخرِّفة ملتاثة. . هي والجاهلية الأولى سواء.

وقبل أن ينجح حكماء الإسلام في إنقاذ دينهم من براثن هذه النزعات، ويخلِّصوا أمتهم من طغيانها المجتاح، هَبَّت على أرض الإسلام عاصفةٌ أخرى عقيب سقوطها في أيدي المحتلين الأجانب، وسعيها الجاهد للتحرر من هذا الاحتلال.

فقد تيقَّظت نزعاتٌ وطنية حادة لمقاومة الأعداء الدخلاء.

ورأى الوطنيون الجدد أن يجعلوا من مشاعر القومية الخالصة أساساً لبناء الدولة الحديثة في العربي الإسلامي المجاهد.

الإسلام والوطنية:

ونحن نفهم أن يحتشد المواطنون صفاً واحداً لمقاومة خَصْمٍ لدود، لكننا لا نفهم أبداً أن يتمَّ ذلك على حساب الإسلام!.

فبأيِّ وجه؟ ولأيِّ حكمة؟ تُجرحُ عقائدهم، ويُلوَّث تاريخهم، وتُصوَّر رسالتهم على أنها نهضةٌ ظهرت في العصور الوسطى ثم اختفت. . . وأنَّ تطور الزمن وارتقاءَ الحياة يجعلُ الحديثَ عن العمل بها لغواً. . ؟

إننا نتَّهم النيّات الدفينة وراءَ هذه الحملات السفيهة، وهي نيّاتٌ لا صلة لها بوطن.

وإذا كان لا بد من بيان صلتها فستتكلم كثيراً عن سلسلة التآمر الصليبي ضد الإسلام وأهله وحكمه في شتى العصور.

إنَّ المسلمين يعرفون دينَهم على أنه عقيدةٌ نفسية، وشريعةٌ اجتماعية، وكتابهم ينصُّ على هذه الحقيقة الكاملة.

والنصارى يعرفون دينَهم على أنه عقيدةٌ نفسية فحسب!.

وهم لا يبالون ـ بعد بذل الضمانات لحفظ عقائدهم ـ أن يُحكموا بشرعٍ روماني أو أسباني أو أمريكاني.

فأية غضاضة في أن يتركوا المسلمين يطبقون شرائعهم ليعيش الجميع في ظلها؟.

يعيش المسلمون في ظلها، وقد أحسُّوا أنهم أدّوا واجبهم نحو ربهم.

ويعيش النصارى في ظلها لأنَّ الشرائعَ لديهم سواء.

فلماذا يعترضون على أمرٍ ينفع غيرهم، وليس فيه البتة ما يضيرهم؟.

إنَّ الحكم الإسلامي لا يصادرُ عقيدةً أخرى، ولا يعطِّل عبادةً أخرى؛ لأنه يقبل في يسرٍ أن تجاوره أديانٌ أخرى، وأن يعيش مع أتباعها في سلام.

لذلك نحن نستنكر أن يثارَ غبارٌ مفتَعَل حول عودة التشريع الإسلامي، وأن يملأَ الجو بالأراجيف، كلما طالب المسلمون بتنفيذ أحكام القرآن.

ولنفرض جدلاً أنَّ التشريع الإسلامي قاسٍ في عقاب بعض الجرائم.

فما دخل الآخرين في ذلك، وهو سينفَّذ في أرضٍ تسعةُ أعشارها مسلمون؟

أعني أنه في كل مئة مجرم يقع تحت طائلة القانون سيكون منهم نحو التسعين!.

فالقسوةُ المزعومة في هذا التشريع ستنصبُّ على رؤوس أتباعه قبل غيرهم.

فما معنى الاعتراض بعد ذلك على عودة الشريعة الإسلامية، من أبناء

الملل الأخرى، أجانب كانوا أم مواطنين؟.

إننا مكرهون بإزاء الموقف النابي ضد التشريع الإسلامي إلى تقرير عدة حقائق.

لقد حدث في الثورة الاستقلالية سنة ١٩١٩م أن اتحد المصريون جميعاً ضد الإنكليز.

ويظهر أنَّ الاتفاق بين زعماء المسلمين والنصارى يومئذٍ كان على أن ينسى الجميعُ أديانَهم في سبيل طرد العدوّ المشترك، وهو اتفاقٌ غريب! وتنفيذه أغرب!

أما أنَّ الاتفاق غريب، فلأنَّ المسلم لا ينبغي أن ينسى دينه، ولا أن يكلِّف غيره بنسيان دينه.

ومجاهدة الغاصبين من المستعمرين لا تتطلَّب شيئاً من هذا.

وأما أنَّ التنفيذَ أغرب، فلأنَّ الذي حدث هو أنَّ الزعماء القوميين من المسلمين نسوا الإسلامَ والنصرانية جميعاً.

وأما الزعماء القوميون من النصارى فقد نسوا الإسلامَ فقط، وذكروا النصرانية جيداً.

فلم تمض سنواتٌ قلائل على إبرام الاتفاق الروحي بين الفريقين، حتى كانت الإدارات المصرية تعجُّ بكثرةٍ ظاهرة من الموظفين النصارى!.

أهذا اتفاقٌ شريف بين مواطنين مخلصين، أم خديعةٌ لإقصاء الإسلام وتغليب غيره عليه؟.

إننا نعترف بأنَّ للحكم الديني سمعةً سيئة. ولكن أيُّ حكم؟ وفي أيِّ دين؟

كتب دولة السيد محمد ناصر رئيس وزراء أندونيسية السابق كلمةً يجيب بها على هذا التساؤل قال فيها:

«كلَّما نادينا بحكومةٍ إسلامية في أي مكانٍ من العالم الإسلامي انزعجَ لذلك غير المسلمين، وفهموا أننا نريد حكماً غامضاً رهيباً كالحكم الإلـهي الذي

عرفته أوروبة المسيحية في القرون الوسطى.

إنَّ ذلك فهمٌ خاطئ للإسلام، ولمعنى الحكومة الإسلامية كما يدركه العاملون لها.

فليس في الإسلام قديسون، ولكن هناك علماء وفقهاء في مختلف شؤون الدين.

وهم ليسوا قديسين، يؤدون الشعائر باسم الكهنة، إنما هم أئمةٌ بين يدي شريعةٍ واضحة، يستطيع كل مسلم ـ إذا تعلم واجتهد ـ أن يعرف أحكامها.

ثم إنَّ الأئمةَ الرسميين ليست إمامتهم فرضاً في هذا الدين، ولكنها تنظيمٌ إداريٌ اقتضته الحاجة العملية للمسلمين.

ليس هناك في هذا الإسلام الذي نؤمن به قديسٌ باسم السلطة الكهنوتية، ولا سلطة قديسية لها دورٌ خاص في الحكم أو التشريع أو الإدارة أو القضاء.

وأوضح من ذلك أنه لا يوجد في الإسلام كنيسةٌ ذات كيان مستقل داخل الدولة. بل يجب أن يقوم الإسلام ـ من حيث هو عقيدة ـ في كلِّ ناحيةٍ من حياة المسلمين الفردية والجماعية، الشعبية والرسمية.

وهكذا يحتضنُ الإسلامُ حياةَ الأمة كلها، ولا يعترف بالفصل بين الدين والمجتمع والدولة.

ويظلُّ مع ذلك بعيداً كل البعد عن الحكم المقدَّس البغيض.

لست أعتذر عن الإسلام، فالإسلامُ أعزُّ من ذلك، وهو لا يحتاج إلى من يعتذر عنه.

وإنما أردتُ فقط أن أردَّ شبهةً عميقة الجذور في أذهان الغربيين، ومن ذهبَ مذهبهم.

أما إذا كان المقصود أنهم يعيبون علينا تديُّنَنا، فليسمحوا لي أن أكون صريحاً.

إنَّ أكثرَ الأمريكان يفكِّرون في بلادهم وأنفسهم كمسيحيين، ورئيسهم الراحل (روزفلت) كان مسيحياً سافراً. وكان لا يغفل المسيحية في أيِّ خطابٍ وجَّهه إلى العالم في أثناء الحرب العالمية الأخيرة.

والإنكليز كذلك مسيحيون، دولتهم مسيحية، ومَلكهم هو رأس الكنيسة، وحامي الإيمان المسيحي.

ولذلك فإنَّ طقوسَ الكنيسة الدينية تحتلُّ مكاناً كبيراً من اهتمام الدولة.

والهولنديون مسيحيون، اشترطوا في دستورهم أن يكون الملك بروتستانتي العقيدة.

بل إنَّ هولندة حُكمتْ حكماً كنسياً من ١٦٠٣ ـ ١٩٤٠م.

هذه الدول كلها، ومعها غيرها من دول أوروبة المسيحية ـ حتى فرنسة البعيدة عن الدين في جهازها الرسمي ـ قد ظاهرت النشاطَ التبشيري المسيحي في آسية وأفريقية وأسترالية، وخاصةً في البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة.

حتى إنه ظلَّ يقال إلى القرن التاسع عشر: إنَّ وسائل (أوروبة) في حكمها الاستعماري ثلاث: **التجارة، والتبشير، والحرب**».

غارة على الإسلام:

بَيْدَ أنَّ الإسلام ـ ولمَّا يستشفِ من جراحات العصبيات القديمة ـ هُوجِمَ في رقعته الرحبة بهذا اللون الجديد من الوطنيات المحدثة.

والقصد البيّن من وراء هذه العصبيات الإقليمية الإتيان على ما بقي من تراث الإسلام وكيان أمته الكبرى حتى تذهب بدداً مع الأمس الدابر.

وهذه العصبيات الوطنية المبتدعة تخالفُ الشعوبية التي ظهرت قبلاً في تاريخ الإسلام، واعتبرت حرباً عليه.

فإنَّ الذين حرَّكوا النزعات الجنسية في بلاد الإسلام يمزجون قوميتهم المنتحلة بالإسلام نفسه.

فإذا افتخر أحدهم بعربيته أو فارسيته أو تركيته ضمَّ إلى هذه النعرة الفارغة أنه مسلمٌ متمسِّك بتعاليم الإسلام.

أي أنه كان يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً على نحو ما قال مهيار[1]:

وأبي (كسرى) على إيوانه   أينَ في النَّاس أبٌ مثلُ أبي؟
قد ضمنتُ المجدَ من أطرافِه   سُؤْدُدَ الفُرْسِ وَدِيْنَ العَرَبِ

وهذا منطقٌ لا يعرفه الإسلام.

فكسرى أو رمسيس أو النعمان لا يشرِّفون أعقابهم، ولا معنى للفخر بهم.

والرجل يعتدُّ بعمله وإنتاجه وكفايته فحسب.

والإسلام ليس دين العرب، إنما هو دين البشر قاطبة.

فليس عنصرٌ أولى به من عنصر.

وأياً ما كان الأمر، فإنَّ هذه النزعة الشعوبية الباطلة ما كانت تجرؤ على هجر الإسلام، ومعاداة أحكامه، كما تريد النزعة الوطنية الحديثة في أرض الإسلام في هذه الأيام.

وقد رأيت أنَّ هذه النزعة الوطنية تخالف كذلك قرينتها في أوروبة، **فليس مفروضاً على الوطنيين هناك، وعلى الساسة المحترفين أن يشمئزوا ـ كفريقٍ من وطنيينا الأحرار وساستنا الكبار ـ من الاتجاه الإسلامي، وتهيج ثائرتهم كلما طالبَ المخلصون لدينهم بتطبيق الشريعة الإسلامية في الداخل، واحترام الجامعة الإسلامية في الخارج.**

---

(١) مهيار الديلمي، شاعر كبير، في معانيه ابتكار، وفي أسلوبه قوة، ولد في الديلم، وكان مجوسياً فأسلم على يد الشريف الرضي، وعليه تخرّج في الشعر والأدب، وتشيّع، وغلا في تشيّعه، حتى قال له ابن برهان: «يا مهيار! انتقلت من زاوية في النار إلى أخرى فيها، كنتَ مجوسياً فأسلمتَ، فصرتَ تسبّ الصحابة». توفي ببغداد سنة ٤٢٨هـ، وقد طبع ديوانه في أربعة أجزاء في دار الكتب المصرية. (الناشر)

ونحن نؤكد أنَّ هذه الوطنيات المبغضة للإسلام هي صناعةٌ غربية بحتة، وأنها مظهرٌ لنجاح الغارة الكبرى التي شنَّتها الصليبية الحديثة على ديننا.

وقد اضطرت هذه الصليبية الحديثة أن تكشفَ النقاب عن وجهها الكالح لمَّا رأت بوادرَ تقاربٍ شديد بين المسلمين هنا وهناك.

إنها أعلنت حرباً سافرةً على الجامعة الإسلامية، وبعثرت في طريقها العوائق، واستأجرت أبواقَ الدعاية لتلقي على الوحدة الإسلامية المنشودة ظلالاً من الريب، وتتهمها ـ قبل ميلادها ـ بأنها أداةٌ لكذا وكذا!.

* * *

وقد راقبنا طلائعَ هذه الحملات المدبَّرة، فوجدناها تعتمد على صنفين من الكُتَّاب:

صنفٌ لا يزال يحمل اسم المسلم ـ وإنْ كان لا يدري عن الإسلام شيئاً ـ وهو يستمدُّ أصول تفكيره من منابع أوروبية خالصة، ويغلب على مسلكه وإدراكه التنكُّر للأديان جملةً.

وهو منطقيٌّ مع نفسه في هذا التنكر، ولكنه ليس منطقياً مع نفسه حين يُسخَّر لمحاربة الجامعة الإسلامية لحساب جهاتٍ يهمها القضاء على الإسلام وحده، حتى يبقى الميدان خالياً للدول المسيحية وإسرائيل(١).

وقد سُخِّرَ هذا الصنف بنجاح.

غير أنَّ النتائج التي وصل إليها، أو الظروف التي واجهها آخر الأمر، جعلت صنفاً جديداً من **الكُتَّاب الكاثوليك** ينزل إلى الميدان ليكتب ضد الجامعة الإسلامية المنشودة.

والكتَّاب الكاثوليك، والذين ظاهروهم في هذه الحملة يقولون:

---

(١) ليت هذا الصنف يملك الشجاعة والصدق مع النفس، فلا يدلس ولا يخدع الناس فيزعم أنه مسلم!! (الناشر)

إنهم فعلوا ذلك خدمةً للعلم المجرَّد! وليس كرهاً للإسلام وانتصاراً للمسيحية! .

والدليل على هذا أنْ يؤلِّفَ أحدهم رسالةً ـ في أثناء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ـ يتَّهم فيها النبي ﷺ وصحابته بأنهم قومٌ أضراهم الجوع، وأغراهم بفتح البلاد! .

وأنَّ تاريخ الإسلام ـ على مدى أربعة عشر قرناً ـ كان تاريخَ هضمٍ وظلمٍ لأبناء الأديان الأخرى! . .

وكأنه يقول: هذه صفحتكم السوداء، فكيف تطالبون بإعادة الإسلام إلى الحكم؟ .

من حقنا أن نواجه الصليبيةَ الحديثة بعد هذا التحدي، وأن نكشف الغطاء عن ماضينا وماضيها، وأن نفضحَ السرائرَ المغبرة التي تستخدم أحطَّ الوسائل للحيلولة دون عودة الإسلام إلى ميدان القانون والحكم، إلى ميادين السياسة الدولية.

ولا بأس أن نستعير العبارة التي قدَّم بها الكاتب الكاثوليكي اعتراضه على إقامة جامعة إسلامية قال:

«في هذا الوقت الذي تفكر فيه الجامعة العربية في توسيع رقعة نشاطها، وضمِّ جميع الشعوب الإسلامية تحت رايتها. في هذا الوقت الذي يحبِّذ فيه نخبةٌ من المسلمين بعثَ الإمبراطورية العربية القديمة من مرقدها، لا نشك في ترحيب عددٍ كبير من أقطاب السياسة بكلِّ ما يساعدهم على فهم الأوضاع الصحيحة، وتوجيه أفكارهم في سبيل المحافظة على الوئام بين الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية.

وإذ تعذَّر علينا اقتراح حلول لهذه المسألة، فلنحاول دراسةَ بعض وجوهها».

والحقُّ أنَّ الكاتب لم يتعذَّر عليه اقتراح الحل، كيف وهو مستقرٌّ في بؤرة

شعوره؟ إنَّ الحلَّ المطلوب هو إماتة كل محاولة لإقامة دولة إسلامية في مصر. وإماتة كل محاولة كذلك لإنشاء جامعة إسلامية في العالم.

وليس هذا رأيُ شخصٍ فذٍّ حتى نطرحه جانباً، بل هو رأيُ هيئاتٍ منظَّمة مدعَّمة تواصل الليل بالنهار لبلوغ أهدافها.

فهي ـ في قلب بلاد الإسلام ـ توهم أنَّ الأقليات ترفض كلَّ الرفض عودة المسلمين إلى شريعتهم.

وهي خارج بلاد الإسلام، توهم أنَّ الوحدة الإسلامية خطرٌ داهم على أمن العالم!..

أليس الاستعمار هو سياج الأمن للعالم المنكوب؟

يجب إذن أن نكون ذيلاً خسيساً لإحدى الجهات المتخاصمة، وأن تنتشر الفتوق الخطيرة في كياننا الكبير، وأن نستورد فقهنا وفكرنا من (أوروبة).

وإلا فنحن دعاةٌ إلى دينٍ خطر على الأقليات وعلى العالم أجمع..

* * *

إنَّ للصليبية الحديثة مآرب واضحة، إنها تحاول أن تجعلَ من انكسار المسلمين عسكرياً ارتداداً عامّاً عن الإسلام.

ولما كان تنصير هذا الجيل من المسلمين مستحيلاً، فهي تعمل ابتداءً على خلخلة يقينه، وتشكيكه في فكرة التدين على العموم.

والمرحلة الثانية تقوم على حركة تقارب وموادَّة بين جيلٍ منسلخ عن عقائده الحقة، وبين أبناء الدول المسيحية الغالبة.

أما المرحلة الأخيرة فالمفروض فيها أن تمحو معالم الإسلام من أقطاره العتيدة، وأن يُنصَّر ما يمكن تنصيره، ويُستأصل ما يُستعصى على الردة.

وبهذا الأسلوب تنجح الصليبية الحديثة حيث عَجَزت جرثومتها في القرون الوسطى.

غير أنَّ هذه الخطة سوف يلحقها الفشل الذريع لو قامت في الشرق العربي الإسلامي دولةٌ مسلمة حقاً، أو تماسكَ المسلمون في جامعةٍ تلمُّ شعثهم وتجمع شملهم.

ومن ثَمَّ يبذل أعداء الإسلام جهودَ الجبابرة لتعويق أية نهضة تعمل على إحياء الجامعة الإسلامية، أو تسعى لتحكيم الفقه الإسلامي في بلاد الإسلام.

وليس من الصدف العارضة أن تتولى (**جماعة الشبَّان المسيحيين**) في مصر ـ ورئيسها الفخري **سعادة سفير بريطانية العظمى** ـ أن تتولى علناً المعارضة لفكرة **التكتُّل الإسلامي**، وأن تتولى فروعها في صعيد مصر إثارة الشغب الطائفي كلما اعتدلت نسبة الموظفين الأقباط مع إخوانهم الموظفين المسلمين في الوظائف الحكومية، والحجة الظاهرة أنَّ هذا الاتجاه رجعي رديء.

والعلة الدفينة هي الكره العنيف للإسلام وأهله، وتبييت الشر والغدر لحاضره ومستقبله.

فهل يُعقل أن يكون التمسك بالإسلام رجعيةً سخيفة، والتمسك بالنصرانية أو اليهودية تقدميةً لطيفة؟.

ولنواجه الحقيقة الصارخة:

إنَّ إنكلترة وأمريكة وفرنسة ومن لفَّ لفَّهم، هم قادة الحملة على الإسلام، وواضعو سياسة استئصاله جهرةً واغتيالاً.

وليست الجبهة الشرقية بأقلَّ منهم أضغاناً على هذا الدين، ورغبةً في القضاء على حكمه.

وما أكثر حكامنا الذين حُبِسُوا في هذه المصيدة، وداروا بأفكارهم داخل جدرانها.

قرأت هذا النبأ في مجلةٍ محترمة:

«تتصادم اليوم نظريتان سياسيتان خارجيتان، إحداهما ـ وهي القديمة ـ

ترى أنه من المصلحة أن تظلَّ مصر معنيةً بالشؤون الإسلامية والعربية والشرقية، وبشؤون القضايا التحريرية المختلفة، ولو أدىٰ ذلك إلى دوام الارتطام مع بعض الدول الكبرى.

وأصحاب هذه النظرية لا يتوقعون أي أملٍ في عدالة هذه الدول، ولا في إنصافها للقضية المصرية على أية حال.

أما النظرية الثانية ـ الجديدة ـ فهي ترى أنها في حاجةٍ إلى التفرغ للقضية المصرية، وإلى عدم التشويش عليها بقضايا الآخرين[1] ـ وإن كانت عزيزةً إلا في حدود القدر المعقول من الاهتمام.

ونظريتهم ترتكز على أنَّ مثل هذه المهادنة قد تربح لمصر بعض الأنصار في هيئة الأمم المتحدة».

* * *

هذا الكلام لا يجوز أن يمرَّ في هدوء، بل إنه يتيح لنا فرصة إبداء رأينا الصريح في قضيتنا الخاصة، وقضايا المسلمين عامة، وقضايا المضطهدين والمستذلين في بقاع الأرض كلها، مهما اختلفت أديانهم وألوانهم.

ونحب أن نصفَ موقف حكوماتنا السابقة والحاضرة وصفاً دقيقاً.

فهي لم تعنَ بشؤون العرب والمسلمين إلا في حدودٍ ضيقة، وتحت عناوين مبهمة، وبالقدر الذي تسمح به السياسات القومية المنكمشة في تخومها المنسلخة عن دينها.

السياسات التي تتجاهل أحكام الإسلام، وتستحي من الظهور به في مجامع العالم الضخمة.

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا أننا لمّا اعترفنا بأندونيسية دولةً مستقلة تحررت من طغيان هولندة، واستردَّت حقوقها المغتصبة بالحديد والنار. قيل لنا: إننا

---

(١) أي قضية فلسطين. (الناشر)

سارعنا إلى تأييد أندونيسية في كفاحها الظافر بدافعٍ من التعصب للإسلام، ونَعَتْ علينا دول أوروبة الفاجرة هذه العاطفة المعقولة.

والغريب أنَّ ساستنا سارعوا إلى الدفاع عن أنفسهم أمام الاتهام الخطير الموجَّه إليهم؛ فقرروا أنهم لم يقفوا بجانب أندونيسية دفاعاً عن الإسلام وانتصاراً لأهله، بل احتراماً للحقِّ المجرَّد، واستنكاراً للعدوان المجرَّد، دون النظر إلى وحدة الدين بين مسلمي مصر وجاوة.

كأنَّ التمسك بالإسلام معرَّة، والانتساب إليه سُبَّة.

أما اجتماع أساطيل أوروبة في مياه اليونان، وتحطيمها للأسطول المصري، وتخليصها اليونان من سلطان الدولة العثمانية بدافعٍ من الحميَّة الدينية المحضة، فذلك أمرٌ لا غبارَ عليه.

وفي مأساة فلسطين حَرَصَت دول الجامعة العربية على إقصاء الإسلام عن ميدان السياسة، وأعلنت أنها تدافع عن عرب فلسطين كبشرٍ بائسين أكلتهم عصابات اليهود، ونفَّذت ولا تزال تنفِّذ خطتها في إبادتهم، وإرثِ أرضهم وديارهم وأموالهم.

وقد ناشدت الجامعة المسكينة ضميرَ العالم المتحضِّر ليوقفَ هذه الكارثة الهائلة، ولم تجرؤ في مناشدتها الطويلة أن تشيرَ إلى الإسلام بكلمة، ولا أن تومئ من بعيد إلى أنَّ هذا العدوان الصارخ يستفزُّ النيام من المسلمين..

كلا، فالجامعة تشكيلةٌ من الدول السائرة في فلكٍ سياسي مرسوم بمهارة.

وآصرة العروبة بينها كآصرة اللاتينية بين دول أمريكة الجنوبية مثلاً.

ولعلَّ إنامة الروح الإسلامي كلما استيقظ من أهم الأعمال التي تقوم بها الجامعة الموفَّقة[1].

---

(١) تقول الدكتورة هدى درويش في كتابها (العلاقات اليهودية التركية وأثرها على البلاد العربية) ١/ ٢٦٥: «يقول (كادمي كوهين) الكاتب اليهودي في كتابه (دولة إسرائيل): =

ونحن لا نظلم ساستنا فنكلفهم فوق ما يطيقون.

إنهم لا يعرفون الإسلام كدولةٍ ذات منهاج وهدف، تضمُّ الأجناسَ والألوان كما تضمُّ الشجرةُ الواحدة أنواعَ الورود، ترى فيها الأحمر القاني والأصفر الفاقع والأبيض الناصع.

إنهم لا يعرفون الإسلام كذلك، فكيف يفقهون سياسته، ويبصرون غايته؟ ومنذ سنين سُئل رئيس وزارة (مات هذا الرئيس من مدة) ماذا صنعتَ لقضية فلسطين؟.

فقال[1]: أنا رئيس وزارة مصر، لا رئيس وزارة فلسطين!!.

وكان الرئيس المذكور عائداً من لندن بعد مفاوضةٍ فاشلة لحل القضية المصرية.

ولولا بقيةٌ من المحافظة على التقاليد القديمة، ولولا التوجُّس من السفور بنبذ الإسلام، والعلانية بهجر أحكامه واتجاهاته، ولولا غليان الرأي العام بين الحين والحين غضباً لدينه، وسخطاً على خصومه، ولولا نفرٌ من الحكام لهم ضمائر وشرف تَسعد بهم مناصبهم على فترات متباعدة.

= إن نظرية الوحدة العربية هي خير وأفضل ترياق ضد الوحدة الإسلامية، فهي (أي الوحدة العربية) لا تشكّل خطراً أكثر مما تشكّله القومية التركية الحالية.

إن تفتيت الهوية التي تجمع بين الإسلام والعروبة هو القادر على جعل الضفة الشرقية للبحر المتوسط ما يجب أن تكونه في الحقيقة واجهة القارة الآسيوية التي تطل على العالم الغربي، ورأس جسر لأوروبة نحو آسية الكبرى.

وينبغي أن لا يغرب عن بالنا أن تألق نجاحات الإسلام هو الذي ولد الإيمان الجديد عند العرب بتشكيل الأمة الإسلامية».

ثم يضيف كوهين قائلاً: «وقد انبثقت فكرة القومية العربية في المدارس التبشيرية التابعة للدول الاستعمارية، التي كانت تنتشر في بلاد الشام، وخاصة لبنان، وكانت هذه المدارس هي المنبع الأول للقومية العربية بمفهومها العلماني. كما ارتبطت حركة القومية في الشام بحركة التنصير العالمية وبالتعليم الأجنبي». (الناشر)

(١) هو سعد زغلول. (الناشر)

لولا ذلك لانقطعت صلة مصر بالإسلام في الميدان الدولي، ولصارت صلتنا بشقيقاتنا في الدين كصلتنا بسويسرة أو اليونان.

وقد أثَّر هذا الموقف النابي في أحوالنا كلها، فزادها تعقيداً وارتباكاً، وجرَّ علينا الفشل الذريع في سلمنا وحربنا على سواء.

والعلاج؟ . . . ما هو؟ . . . وأين السبيل إليه؟ . .

العلاج في أن نبني سياستنا الخارجية على دعائم إسلامية بيِّنة، وأن نعود إلى الإسلام في باطن أمرنا وظاهره، وأن ننبذ سياسة التأرجح والميوعة أمام الكتل الدولية، التي مزَّقت الحجاب عن نياتها، وبارزتنا بالعدوان والتحدي، ووضعت خططاً ماكرة لإهلاكنا.

ولن يستطيع جبارٌ مهما أوتي من سلطانٍ أن يفصم عرى الأخوة بين مسلمي الصين ومسلمي المغرب ومسلمي هذا الوادي. . .

إنَّ الاقتراح القائل بفصل السياسة المصرية عن السياسة الإسلامية هو تمشٍّ مع رغبات أوروبة في تفتيتنا إلى دويلاتٍ متقاطعة، تُشغَل إحداها بشؤونها عن الأخرى.

بل لعل أوروبة تطمع في أن تضرب بعضنا ببعضٍ، ما دامت آصرة الدين قد شُلَّت تماماً عن العمل.

وليس ذلك بمستبعد، فإنَّ أوروبة صنعت ذلك بنفسها قديماً وحديثاً.

وهذا الكلام ينطوي على أملٍ باطل في عدالةٍ موهومة.

لا . . . بل هو ينطوي على مساومةٍ خسيسة في سوقٍ ملعونة.

إذ كيف نتزلف لفرنسة بالإغضاء عن المذابح الشنيعة التي توقعها اليوم بالمغاربة؟ وهل نتوقع من القَدَر ـ إذا اقترفنا هذا الجرم ـ إلا أن نلقىٰ المصير نفسه على يد الجزّارين أنفسهم؟؟ . .

إذا كنا نتبع في سياستنا منطق الإسلام فهذا كتاب الله يفرض علينا أن نحقق

العدالة حيث كنا، وأن ندعو إلى الإنصاف في كلِّ مَحفَلٍ، لا نبالي بقلةٍ أو كثرة، بصداقةٍ أو عداوة، بغنى أو بفقر.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

وإذا كنا نتبع في سياستنا منطق الرجولة والخلق، فهل من الرجولة والخلق أن نشتغل أذيالاً لسماسرة المروءات والأعراض ممن يبيعونها بشهوةٍ عارضة؟.

وإذا كنا لا نتبع في سياستنا حقاً ولا عدلاً، فلماذا نعيبُ على آكلي حقنا ونُهَّاب خيراتنا؟.

إنَّ الخير كل الخير لأمتنا أن تستمسك بالإسلام جملةً واحدة، وأن تعيش به وله، وألا تفتنها المظاهر التافهة عن هذه الحقيقة الجليلة.

روى الحاكم عن طارق قال: خرج عمر إلى الشام ومعنا أبو عبيدة، فأتوا على مخاضة ـ وعمر على ناقةٍ له ـ فنزل وخلع خفيه، فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته، فخاض ـ في الماء ـ فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أأنت تفعل هذا؟ ما يسرُّني أنّ أهل البلد استشرفوك!.

فقال عمر: أوه! لو قال هذا غيرك يا أبا عبيدة لجعلته نكالاً لأمة محمد! إنا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّ بغير ما أعزَّنا الله أذلَّنا الله..

إننا نسوق هذه الحكمة لرؤسائنا...

ولعل الرجال الغارقين في أردية الحرير وألوان الدعة عندنا يستمعون إلى قصة عمر الحافي وهو يحمل نعليه، فيتضاحكون من بداوة الحكام الأولين، ويتندَّرون فيما بينهم بطرائف العصور الأولى.

ويسرنا أنا نضع تحت أعين سادتنا الناعمين هذه القصة:

روى (إلكسندر ويرث) وهو كاتبٌ إنكليزي قضى سنيَّ الحرب الأخيرة في (روسية) قال:

«ربما لا يكون (ستالين) منزَّهاً عن الأخطاء، ولكني لن أنسى أبداً هذه القصة التي تكشف عن الجانب الإنساني في نفسه.

فقد فاجأَ مرةً مركز قيادة (جيكوف) بزيارةٍ غير مرتقبة، في أحلك أيام الحرب الألمانية الروسية.

وكان (جيكوف) قد عاد من الميدان مرهقاً، فاستلقى على فراشه بثيابه، واستغرق في النوم.

ودلف (ستالين) على أطراف أصابع قدميه، فألفى حذائَي القائد مبتلَّين، وخشي أن يصاب من جراء ذلك بضرر، فخلعهما برفقٍ عن قدميه، وحملهما إلى ياور القائد قائلاً:

ـ من العار أن تترك عظيماً مثله ينام بحذائين مبتلَّين، جفِّفهما في الحال وأخبره عندما يستيقظ أنني أنتظره.

وارتبك الياور، فما إن انصرف (ستالين) حتى أيقظ (جيكوف) وأنبـأه بالزيارة والرسالة.

وأسرع القائد فلبس حذائيه ولمَّا يجفَّا، وبادر إلى موسكو.

وإذ دخل على (ستالين) ألقى هذا نظرةً على الحذائين ثم قال:

ـ ما زالا مبْتلَّين؟ إنَّ ياوركَ مهملٌ يا صديقي، وجديرٌ بك أن تتخلَّص منه.

ثم أرسل يستحضر له حذائين جديدين».

إنَّ الصغار صغار الأنفس ولو عاشت في أبراج.

وإنَّ العظمة لا يخدشها أن تخوضَ في الأوحال، ولا أن تحمل الأحذية.

وددنا أنَّ رجالنا اعتزُّوا بالإسلام، وأُشربوا روحَه الكريمة، ثم واجهوا ساسة الدنيا أجمعين.

* * *

المسلمون وأهل الذمة

لا أريد أن أذكر اسم الكتاب ولا اسم مؤلِّفه، وسأعرض في فصولٍ متتابعة لحقائق الموضوع الذي عالجه، وسأكشف الغطاءَ عن نواحيه كلها.

إنَّ المؤلف يمثِّل كثيرين ممن يختبؤون خلفه، ويؤازرونه على متابعة نشاطه ضد الإسلام.

وكتابه حلقةٌ من سلسلةٍ لا تخفى أطرافُها ولا أهدافها.

وقد اصطنع المؤلف موقفَ الباحث المحايد، ولبسَ مسوح العالم المتجرِّد. . وانتهى من تجواله في ثلاثة عشر قرناً على دخول الإسلام مصر إلى النقط الآتية:

١ ـ أنَّ الفتح الإسلامي غارةٌ عربية قامت بها قبائل كانت تشتغل قديماً بالسَّلب والنهب، وأنَّ العامل الديني يُعتبر ثانوياً إلى جانب العامل الاقتصادي.

٢ ـ وأنَّ هؤلاء الغزاة هم بالنسبة إلى الرومان سادةٌ جدد، ومن ثَمَّ فهو يصفهم بأنهم محتلون ومستعمرون، وأنَّ مسلكهم في مصر قام على استنزاف خيرها، واستذلال أهلها ـ يعني الأقباط ـ:

٣ ـ وأنَّ الشريعة الإسلامية تقوم على تأريث العداوة ضد أهل الذمة، وتضع سياسةً دائمة لإهانتهم وعزلهم عن المجتمع العام.

٤ ـ وأنَّ تاريخ الخلفاء والولاة من بدء الإسلام إلى العصر الأخير شاهدٌ يصرخ بما أوقعه المسلمون من مآسٍ ومصائب بغيرهم.

٥ ـ وأنَّ على الذين لم يدينوا بالإسلام أن يفقهوا الطبيعةَ الجافة لهذا الدين،

وأن يتوقعوا الصراعَ الدامي حين يرتبطون بعلائق مع أهله.

وتدليلاً على هذه النقط التي ملأَ بها كتابه نقلَ نصوصاً من القرآن بعد أن حرَّفها عن مواضعها.

ونقلَ كذلك وقائعَ من التاريخ بعد ما أبعدها عن ملابساتها.

وتجاهلَ من نصوص الإسلام، ومراحل تاريخه الطويل ما يدحض مزاعمه الجريئة.

واعتمدَ على مصادرَ صليبية، وحوادثَ وهمية، في ملء أكثر من ثلاثمئة صفحة باستقراءاتٍ واستنتاجات تزوِّد القارئ بفكرةٍ واحدة، وهي: أنَّ الإسلام منذ ظهر وهو يعيث ـ في مصر وغيرها ـ فساداً، ويُوسِع الأقليات النازلة بأرضه نكالاً واضطهاداً!..

ولولا أنَّ المؤلف يحتل وظيفةً كبيرة في هذه البلاد، ولولا أنَّ المصطادين في الماء العكر سيطيرون بكتابه إلى كلِّ أفق، ولولا أنَّ الكتاب يخدم فكرةً تُهيَّأ لها وسائل شتى، ويُسخَّر لها رجالٌ كثيرون لتركنا هذه الخرافات تموت وحدها، ويموت صاحبها معها.

بَيْدَ أننا مضطرون إلى تتبُّع أخطاء المؤلف وخطيئاته لفضحها واحدةً بعد أخرى إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، وقطعاً لدابر المرجفين والمفترين.

* * *

بنىٰ المؤلف فكرتَه كلها على أساسٍ عجيب، اقتنع به، وافترض في الناس جميعاً أنهم سيقتنعون به، هو: أنَّ القرآن يوصي بالتنكُّر لليهود والنصارى ومجافاتهم، ويرفض استخدامهم وموالاتهم والمضيّ في نهبهم وسلبهم.

ويتساءل المؤلف في ص٣١٢: «إذا لم يكن العرب في حاجةٍ إلى مساعدة الأقباط، هل كانوا يتَّبعون معهم سياسةَ التسامح؟».

ثم يجيب حضرته على هذا السؤال قائلاً: «من الواضح أنَّ النصرانيَّ لم

يكن موضعَ اهتمام الحكام . . » لماذا؟ لأنَّ الإسلام يأمر بنبذه والبطش به» .

«ومع ذلك خرقَ الحكامُ الشريعةَ، وخرقوا نصائح الفقهاء، وأبقوه في وظيفته، لأنهم كانوا في حاجةٍ إليه . . ولم يتذكروا الشريعة والفقه إلا إذا أرادوا البطش بالأقباط» .

هذا المؤلف المسكين يرى أنَّ الإسلام قد أصدر حكماً مبرماً باستئصال النصارى واليهود، وأنَّ حكّام الإسلام عَصَوْا أوامر دينهم لحاجتهم إلى كفاية أعدائهم! .

أرأيت إلى هذا السخف؟ .

إنه المحور الذي دار عليه الكلام في مئات الصفحات!! .

ومن أين عَرَفَ هذا الباحث الذكي أنَّ الإسلامَ يقف هذا الموقف من النصارى واليهود؟ .

إنه عقدَ لذلك فصلاً في أول كتابه، أورد فيه ما لديه من أدلةٍ تحت عنوان (الشريعة الإسلامية وأهل الذمة) فذكر ثلاث آيات من القرآن الكريم هي :

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة : ٥١] .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٨] .

والآيات المذكورة لا صلة لها ألبتة بالموضوع الذي تعرَّض الكاتب له .

بل إننا نكاد نجزم بأنه يعرف ذلك، وأنه يحرِّف الكلمَ عن مواضعه عمداً .

فهي جميعاً واردةٌ في المعتدين على الإسلام، والمحاربين لأهله، وتنفير أفراد الأمة من معاونة خصومها واجبٌ يتجدَّد في كل عصر .

وقد حدث في عصرنا هذا ـ بل في هذه الأيام القريبة ـ أن أصدرت الحكومة قانوناً يحرِّم التعاون مع القوات الأجنبية .

فهل يُفهم من ذلك أنَّ مصر تكنُّ البغضاء للعالم أجمع؟ وأنها تشتري خصومته من غير مبرر؟.

لقد قال السيد المسيح: «ما جئتُ لألقي سلاماً بل سيفاً»!.

فهل يفهم أحدٌ من ذلك أنَّ رسالة المسيحية إيقاد الحروب في الأرض، وأنها لا تحيا بين الناس إلا لسفك الدماء؟ إنَّ هذا فهمٌ أخرق.

ونحن المسلمين لا نتَّهم النصرانية به، ولا نفهم من كلمة المسيح هذا المعنى الواسع للخصومة المتحدية أبداً...

ولو كان المؤلف متحرياً الحقَّ في فهمه لنصوص الإسلام لقرأ عشرات النصوص الأخرى، بل لأكملَ الآيات التي استشهد بها، ولخرجَ من ذلك بالحقيقة الناصعة الوحيدة التي يقررها كتاب الله.

وهي أنَّ الإسلامَ يدفع عن نفسه إذا هوجم، ويأمر بمسالمة من يتركونه وشأنه، غير متعرِّضين لسير دعوته في الأرض، ولا صادّين أحداً عن الدخول فيها، فإذا لمحَ جباراً يعوق دعوته ويهين أمته، اشتبك معه في حروبٍ باردة تارةً، وحامية تارةً أخرى، حتى يؤمِّن طريقه فحسب.

* * *

وننقل من كتابنا (الإسلام والاستبداد السياسي) تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [المائدة: ٥١]. حتى يعرف المخدوعون مبادئ الدين في أوضاعها كما نزل بها الوحي.

«يجيء أحدهم إلى هذه الآية، فيبترها عمَّا قبلها وما بعدها، ويفهم منها أنَّ الإسلام ينهى نهياً جازماً عن مصادقة اليهود والنصارى، ويوجب قطع العلائق معهم ويهدِّد المسلمَ الذي يصادقهم بأنه انفصل عن الإسلام، والتحقَ باليهودية والنصرانية، والمعنى بهذا التعميم باطل.

والآيات اللاحقة بهذه الآية المرتبطة بها في موضوعها تحدِّد الموضوع بجلاءٍ لا يحتمل خلطاً.

فالحق أنَّ الآيات نزلت تطهيراً للمجتمع المسلم من ألاعيب المنافقين، ومن مؤامراتهم التي تُدبَّر في الخفاء لمساعدة فريقٍ معيَّن من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حرباً شعواء، واشتبكوا مع الدين الجديد في قتالٍ هو بالنسبة له قتالُ حياةٍ أو موت.

فاليهود والنصارى في هذه الآية قومٌ يحاربون المسلمين فعلاً، وقد بلغوا في حربهم منزلةً من القوة جعلت ضعاف الإيمان يفكِّرون في التحبُّب إليهم، والتجمُّل معهم، فنزلت هذه الآية، ونزل معها ما يفضح نوايا المتخاذلين في الدفاع عن الدين الذي انتسبوا إليه:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥٢].

ثم تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعيم صفوفهم أمام المتربصين والمتهجمين، تطالبهم بمقاطعة المحاربين للإسلام من أهل الكتاب، مسوِّغةً هذه المقاطعة بأنها ردٌّ للعدوان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٥٧ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ [المائدة: ٥٧ ـ ٥٨].

فهل هناك ضَيْرٌ على دينٍ ما إذا مَنَعَ أتباعَه من مصادقة الذين يتهكَّمون بتعاليمه، ويسخرون من شعائره؟.

أما قوله تعالى: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨]. فالآية قبلها مباشرةً تشرحها: ﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٧].

والمعنى الذي لا يضطرب عاقلٌ في إدراكه أنَّ المقصود بالآية هم الوثنيون المهاجمون للإسلام، الناكثون بعهودهم معه».

وقد أشبعنا هذا الموضوع بحثاً في كتابنا (تأمُّلات في الدين والحياة).

فكيف ساغ لهذا المؤلف أن ينقل كلاماً وارداً في المشركين الناقضين للعهود زاعماً أنه نزل في أهل الذمة؟ إنَّ هذا كذبٌ صريح.

والآية الثالثة ذكر المؤلف نصفها الأول فقط، لأنَّ نصفها الثاني يكذِّبُه.

فقول الله: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ [آل عمران: ٢٨] ثم قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾. فيه إشارة بيّنة إلى أنَّ الكلام قيل في حالة حربٍ يطارَد فيها المؤمنون.

وقد تضطرهم الأحوال العصيبة إلى اتخاذ وسائل النجاة، فنُبِّهوا إلى ألا يكون ذلك على حساب إيمانهم.

وقد بلغ هَوَس الكاتب في اتهام القرآن بأنه يغري بالعدوان إلى الاستشهاد بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

مع أنَّ الآية قيلت بعد غزوة (أُحد) تعزيةً للنبيِّ ﷺ في قتل أصحابه، وتثبيتاً للمسلمين في كفاحهم المتعب مع المشركين.. حتى لا تكسر الهزيمةُ همَّتهم فيضعفوا أمام الوثنية العنيدة في جزيرة العرب.

* * *

لم أرَ مؤلِّفاً فقدَ خصائصَ الأمانة في البحث والنقل والاستدلال كالخواجه الذي وضع هذا الكتاب.

فقد زعم أنَّ الشريعة سنَّت (المبدأ الذي يشتدُّ أحياناً على أهل الكتاب ويذلّهم) ص(٥٢)، وأورد من القرآن الكريم الآيات التي رأيتها ـ وليست لها بموضوعه صلة ـ وغضَّ النظر عن الآيات التي توصي ببر أهل الكتاب فلم يشر إليها.

ثم تجاوزَ السنَّة المطهرة فلم يعلق بشيءٍ على قول رسول الله ﷺ: «من قتل

رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريحَ الجنة، وإنَّ ريحها لتوجد من سبعين عاماً».

وكذلك قوله: «من ظلم معاهداً، أو انتقصه حقَّه، أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة».

ومرَّ على النصوص الثابتة والسوابق المقررة في صدر الإسلام، والتي تنطق بما أفاءَ الدين على أهل الذمة من رعايةٍ ووفاء ومرحمة. . . فلم يكترث بشيءٍ منها، لأنَّ غايته من كتابه تتَّضح في كل صفحة.

فهو يريد إهانة الإسلام، وتشويه تاريخه، واتهام أهله بما هم منه براء، اتهامهم بالتعصب الذميم، واستئصال الأقليات التي تعيش بينهم.

فإذا أَعْوزَه الصدق للوصول إلى هذه النتيجة، ففي المعاريض والأكاذيب مندوحة!.

مسلك عمر نحو الذميين:

إنَّ الخليفة الراشد عمر رضي الله عنه من أعرف الحكام بطبيعة الإسلام، وأدراهم بما يكنُّه هذا الدين للبشر جميعاً من عطفٍ وود.

وإنَّ ما يحفظه التاريخ من مسلك عمر رضي الله عنه، نحو البلاد المفتوحة، ونحو أهلها ليس موضع مراءٍ وريبة.

روى أبو يوسف في (كتاب الخراج): أنَّ عمرَ مرَّ على قومٍ قد أُقيموا في الشمس في بعض أرض الشام، فقال: ما شأن هؤلاء؟ فقيل له: إنهم أقيموا في الجزية! فكره ذلك، وقال: «هم وما يعتذرون به»، قالوا: يقولون: لا نجد، قال: «دعوهم، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون». ثم أمر بهم فخلَّى سبيلهم.

وهذا الذي رواه أبو يوسف يوافق ما رواه مسلم في (صحيحه) عن حكيم ابن حزام: أنه مرَّ بالشام على أناسٍ من الأنباط، وقد أقيموا في الشمس، وصُبَّ على رؤوسهم الزيت! فقال: ما هذا؟ قيل: يعذَّبون في الخراج! وفي رواية: حُبسوا في الجزية!.

فقال حكيم: أشهدُ لسمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ يعذِّب الذين يعذِّبون الناسَ في الدنيا».

فدخل على الأمير فحدَّثه، فأمر بهم فخلُّوا.

قال أبو يوسف: وحدث أن مرَّ عمر بباب قومٍ وعليه سائلٌ يسأل، وكان شيخاً ضريرَ البصر، فضرب عمر عضدَه، وقال له:

من أيِّ أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي.

قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزيةَ والحاجةَ والسن.

فأخذ عمر بيده، وذهب به إلى منزله، وأعطاه مما وجده! ثم أرسل به إلى خازن بيت المال. وقال له: أنظر هذا وضرباءَه، فوالله ما أنصفناه، إذْ أكلنا شبيبته، ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين.

والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم وضع عنه الجزية.

والعاطفة التي جاشَت بالرحمة في نفس عمر نحو هذا اليهودي البائس، نَبَعَت من قلبٍ متحمس للإسلام، متمسك بمبادئه، وقد كان عمر شديداً في دين الله، ولكن الشدة التي عُرف بها لا تعني التعصب الأعمى، والضغينة القاسية على المخالفين للدين من أهل الكتاب الأولين.

روى الترمذي عن رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه نشرَ الله عليه كنفه، وأدخله جنته: رفقٌ بالضعيف، وشفقة على الوالدين، وإحسان إلى المملوك».

وروى يحيى بن آدم في (كتاب الخراج): أنَّ عمر لمَّا تدانى أجله أوصى من بعده وهو على فراش الموت بقوله:

«أوصي الخليفةَ من بعدي بأهل الذمة خيراً، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل مَنْ ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم».

وقال الدكتور (أ. س. ترتون) مؤلف كتاب (أهل الذمة في الإسلام):

«وفي الأخبار النصرانية شهادةٌ تؤيد هذا القول، وهي شهادة البطريرك (عيشويابه)، الذي تولّى منصبه ٦٤٧ ـ ٦٥٧ هـ. إذ كتب يقول:

«إنَّ العرب الذين مكّنهم الرب من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرفون.

إنهم ليسوا بأعداء للنصرانية، بل يمتدحون ملّتنا، ويوقّرون قديسينا وقسيسينا، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا».

والظاهر أنَّ الاتفاق الذي تمَّ بين (عيشويابه) وبين العرب كان لصالح النصارى. فقد نصَّ على وجوب حمايتهم من أعدائهم، وألا يُحملوا قسْراً على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعباداتهم وممارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزية المجْبِيّة من الفقير على أربعة دراهم، وأن يؤخذ من التاجر والغني اثنا عشر درهماً، وإذا كانت أَمَةٌ نصرانية في خدمة مسلم، فإنه لا يحقُّ لسيدها أن يجبرها على ترك دينها، أو إهمال صلاتها، والتخلي عن صيامها.

إنَّ نصوص هذه المعاهدة التي تمّت في مطالع القرن الثالث عشر للميلاد تنبئ عن روح التسامح الذي كان يسود بلاد الإسلام يومئذ، على عكس ما كان يزحم بلاد المسيحية من مجازر ومخازٍ في معاملة المذاهب المخالفة والأقليات الضعيفة.

قال الدكتور (توفيق الطويل) في كتابه (قصة الاضطهاد الديني) تحت عنوان (مذبحة الألبيين) في سنة ١٢٠٩:

«أصدر مجلس (أفيون) قراراً دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال الهرطقة، وهدَّد البابا (أنوسنت) باتخاذ قرار الحرمان ضد كل أمير يرفض الاستجابة لهذه الدعوة.

وبعد ستة أعوام قرر مجمع (لاتزان) أن يُقْسِمَ كل حاكمٍ يطمع في أن يكون

في عداد المؤمنين بأن يجاهد ما وسعَه الجهاد، حتى يستأصل من إقليمه كلَّ من تسمِّيهم الكنيسة بالهرطقة.

ولنعد إلى الحديث عن مذبحة (الألبيين):

فشا الإلحاد في (لنجيدوك) على يد (الألبيين) من رعايا أمير (تولوز)، وكان هذا في عهد (أنوسنت الثالث) الذي بلغت البابوية على يديه أوجها، فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته، فأبى الأمير أن يذعن لمطلبه.

وعندئذٍ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة وأعوانها، فأعلنت غفران كل ذنبٍ ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها، وصبَّت عذابها على أعدائها، ولو كانوا نساءً أو أطفالاً، وتعقَّبتهم شنقاً وحَرْقاً وإعداماً.

فانظر إلى الحالة الاجتماعية في عصرٍ واحد بين بلدين يختلفان في الدين.

وانظر إلى حمق البابوات، وضيق عطنهم، وغلظة قلوبهم، في معاملة أعدائهم!.

وقد تدهش إذا علمتَ أنَّ الهرطقة التي تحاربها الكنيسة لم تكن إلا مقدِّمات اليقظة العقلية، والتحرر الفكري، الذي شمل أوروبة كلها في أواخر العصر المدرسي.

* * *

ومعاملة الإسلام لمن لا يدينون به من أهل الذمة قامت منذ العصر الأول على قاعدةٍ أصيلة لم يثر حولها نقاشٌ كمبدأ مشروع، ولم يضطرب تطبيقها على توالي الأزمنة، إلا فلتات شاذة لا يجوز الاكتراث بها أو الالتفات إليها.

هذه القاعدة تقوم على أنَّ **(لهم ما لنا وعليهم ما علينا)**.

وقد استقرت الأقليات في الشرق دهوراً في ظل هذا المبدأ العادل، بينما بادت الأقليات في الغرب، لأنها لم تجد مثل هذه المعاملة النبيلة.

ومن الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها

الذميين ما جاء في الأمر الذي وُجد بين أوراق البردي اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني. وعلى الرغم من فساد قسمٍ منها فقد جاء في الباقي ما يلي:

«خوفاً من الله، وحفظاً للعدالة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم (بياض في الأصل)، رتب ناظراً يعاونه أربعة من البارزين في كورتك لمساعدتهم في جمع الضريبة».

كما جاء فيها: «ولا تجعلنا نعرف أنك قد خدمت أهل كورتك بأي صورةٍ من الصور في مسألة الضريبة التي كلفت بها، وأنك حابيت أو ظلمت أحداً ما في جمعها».

كما جاء فيها: «فإذا وجدت أنهم قد عاملوا أحداً بلينٍ زائد نتيجة محاباتهم إياه، أو أثقلوا عليه لكراهيتهم له، فإننا سنقتصُّ منهم في أشخاصهم وأملاكهم تنفيذاً للشرع».

«ومن ثم أَنْذِرهم وحَذِّرهم، وأخبرهم ألا يرهقوا عاملاً، وألا يحمِّلوه ما لا يطيق، حتى لو كان بعيداً عنهم، وليس من زمرتهم في جمع الضريبة، وتجب معاملة الجميع بالعدل».

وقد بلغ من مرونة النظام الإسلامي أن اعتبر أهل الذمة جزءاً من الرعية الإسلامية (مع احتفاظهم بعقيدتهم).

ومن ثم عقد المعاهدات الخارجية ممثلاً فيها المسلمين والذميين معاً كأمةٍ متحدة:

وقد روى أبو يوسف في كتاب (الخراج):

«لمَّا صالحَ عبد الله بن أبي السَّرْح ملكَ النوبة تقرَّرَ في الصلح أنه أمانٌ وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاوروهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.

وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل ببلدهم أو طرقه من مسلمٍ أو معاهد».

واستمتاع الذميين بحريتهم الدينية، وضمانهم لمصالحهم العامة، كان ملحوظاً في المعاهدات التي أُبرمت بينهم وبين المسلمين في إبان الفتوحات الكبرى.

وإليك نصُّ المعاهدة التي أمضاها عمر بن الخطاب مع رسل (سفرنيوس) أسقف بيت المقدس كنموذجٍ لموقفه مع النصارى، إذ قال ـ كما روى الطبري:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهلَ (إيلياء) من الأمان.

أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، سقيمها وبريئها، وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من غيرها، ولا من صليبهم، ولا من شيءٍ من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحدٌ منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوص.

فمن خرج منهم فإنه آمنٌ، على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن أقام منهم فهو آمنٌ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.

ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم.

ومن كان بها من أهل الأرض مما شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل (إيلياء) من الجزية.

ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله.

وإنه لا يأخذ منهم شيءٌ حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله ﷺ، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية».

وختم عمر الكتاب بتوقيعه، وشهد عليه خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

وهذا العهد الذي أبرمه (عمر) يتفق مع ما سنذكر بعدُ من وصايا النبي ﷺ في معاملة أهل الكتاب، ومع ما استقرت عليه الأوضاع في علاقات المسلمين بغيرهم.

ولكن الخواجة الأفَّاك افترى على عمر بن الخطاب أنه كان عدوَّ أهل الذمة، وأنه شَرَعَ لمن عنده ولمن بعده من الولاة سنَّةَ إهانتهم وإذلالهم وهدم معابدهم وتكسير صلبانهم.

وقد ذكر أنَّ لعمر بن الخطاب شروطاً تضمنها عهدٌ تمَّ بينه وبين أهل سورية نصَّ فيه السوريون على أن «لا يُحدثوا بيت عبادة ولا صومعة راهب، وألا يجدِّد ما تخرَّب من كنيسةٍ أو دير، وألا يمنعوا المسلمين من كنائسهم أن ينزلوا بها ويطعموا فيها ثلاث ليال (كذا)، وألا يعلموا أولادهم القرآن»!.

وتضمَّن هذا العهد المزعوم كذلك «ألا يتشبهوا بالمسلمين في شيءٍ من لباسهم قلنسوةً أو عمامة أو نعلين أو فرق شعر.. إلخ».

وقد بحثنا عن أصلٍ لهذه الشروط في مصادر الفقه الإسلامي أو كتب الشريعة والسيرة والتاريخ فلم نجد لها أثراً ألبتة.

بل ما وجدناه في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ، وفي معاهدات عمر نفسه يناقض هذا العهد المكذوب.

وقد علَّق الدكتور (أ. س.. ترتون) مؤلف (أهل الذمة في الإسلام) على هذا العهد بقوله:

«في هذا العهد نلاحظ نقاطاً بالغة الغرابة، ذلك أنه لم تجرِ العادة أن يشترط المغلوبون الشروطَ التي يرتضونها ليوادعهم الغالب.

أضف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول

القرآن هم وأولادهم بأية صورةٍ من الصور، ومع ذلك يقتبسون منه في خطابهم للخليفة في قولهم: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

والأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهدٌ لم ينصّ فيه على اسم البلد.

فلو كان صادراً عن دمشق ـ قصبة الولاية ـ لوردت الإشارة إليها».

ثم قال: «ومن ناحيةٍ أخرى فإننا لا نجد قط عهداً مع أية مدينة من مدن الشام يشبه عهد عمر هذا بحالٍ من الأحوال، إذ كلها عهودٌ بالغة البساطة».

ثم قال: «إذا تبيَّن لنا هذا ساورَنا الشك في نسبة العهد إلى عمر».

هذا الباحث الغربي يتشكك في نسبة العهد إلى عمر.

ولكن الخواجه الجريء على الافتراء، يضعُ شروط عمر المزعومة في هذا العهد على أنها بيانٌ لموقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة.

ومن أيِّ كتب الشريعة نقل هذا العهد؟.

من كتاب القلقشندي (صُبْح الأعشى في تعليم صناعة الإنشا»![1].

ولا يعجب المرء لشيءٍ عجبه من جرأة هذا الخواجه في اعتبار كتب الإنشاء العربي مصدراً للتاريخ، لا بل من مصادر للدين نفسه.

وكتاب القَلْقَشَنْدي أُلِّف بعد عمر بن الخطاب بسبعة قرون.

وفيه من الخيالات الأدبية والروايات الشعرية ما يعين التلامذة على اصطناع الأساليب الحسنة.

وقد نسبوا إلى عمرو بن العاص كتاباً في وصف مصر «طولها شهر، وعرضها عشر، وترابها ذهب... إلخ».

وقد جزم الأدباء بأنه موضوعٌ لا أصل له، كعهد عمر هذا.

* * *

---

(١) وذكره ابن قيم الجوزية في كتابه (أحكام أهل الذمة) ص٦٥٧. (الناشر)

أخرج أبو داود عن رجلٍ من جهينة أنَّ رسول الله قال:

«لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتَّقوكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم، فيصالحونكم على صلح، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك، فإنه لا يصلح لكم».

وعن العرباض بن سارية السلمي قال: نزلنا مع رسول الله خيبر، ومعه مَن معه من أصحابه، وكان صاحبُ خيبر رجلاً مارداً منكراً، فأقبل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! ألكم أن تذبحوا حمرنا، وتأكلوا ثمرنا، وتضربوا نساءنا؟.

فغضبَ رسولُ الله وقال: يا ابنَ عوف اركب فرسك، ثم ناد:

«إنَّ الجنَّة لا تحلُّ إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة» فاجتمعوا، ثم صلى بهم، ثم قام فقال:

«أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته، قد يظن أنَّ الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن.

ألا وإني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء، إنها لمثل القرآن أو أكثر.

وإنَّ الله لم يحلَّ لكم أن تدخلوا بيوتَ أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضربَ نسائهم، ولا أكل ثمارهم، إذا أعطوكم الذي عليهم».

وحدث أنَّ يهود خيبر أرادوا رشوة عبد الله بن رواحة، ليقلل ما يأخذه من خراج أرضهم ـ على حسب الصلح الذي تمَّ بينهم وبين المسلمين ـ فقال عبد الله: «تطعموني السحت؟ والله قد جئتكم من أحبِّ الناس إليَّ ـ يعني رسولَ الله ﷺ ـ ولأنتم أبغضُ إليَّ من عدَّتكم من القردة والخنازير. . . ولا يحملني بغضي إياكم على ألا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض».

هكذا صنع المسلمون بأهل الكتاب. وعلى هذه العدالة التامة قامت المعاهدات.

إنَّ رعاية الحق وإقامة العدل هما أساس الصلة التي ينشئها الإسلام مع أبناء الديانات الأخرى.

وعبد الله بن رواحة يمقت اليهود أشدَّ المقْت، ولكنّه يأبى أن يجور عليهم في حكم.

وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه قال لقاتل أخيه زيد بن الخطاب:

والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم!.

فقال الأعرابي القاتل: أفتظلمني حقي يا أمير المؤمنين!.

قال عمر: لا! فقال الأعرابي: إنّما يأسى على الحبِّ النساءُ!.

ومسلك عمر وابن رواحة وغيرهما ليس إلا استجابةً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

فالعدالة ـ ولو مع الأعداء المبغضين ـ خُلقٌ فَرِغَ الإسلامُ من توفيره في سياسة الجماعات والأفراد ولو كانوا خصوماً. فكيف إذا كانت هذه السياسة تجاه معاهدين مسالمين؟.

قال الخواجة الكذوب تحت عنوان «عدم منح أهل الذمة الانخراط في خدمة المسلمين»:

«أهملت شروط عمر نقطةً في غاية الأهمية. وهي هل يستطيع المسلمون استخدام المسيحيين في أعمالهم؟.

لا شكَّ أنَّ الخليفة لمَّا رأى القرآن أجاب على هذه المسألة بالنفي، أهمل ذكرها من جديد، وتمسَّك بتعاليم القرآن طول مدة خلافته»، ص٥٥.

ثم ذكر المؤلف قصة نقاشٍ دار بين عمر بن الخطاب وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما.

وقصتين أخريين قال: إنهما حدثتا بين عمر بن الخطاب وأبي موسى الأشعري، وقصتين أخريين قال: إنهما حدثتا بين عمر وبعض قواده.

ورابعة حدثت بين عمر ومعاوية.

وتتضافر القصص التي ذكرها المؤلف على نسبة أمرٍ واحد لعمر:

هو رفض استخدام الذميين لأنَّ القرآن أمر بذلك!.

والمؤلف هنا يخرج من فِرْيةٍ ليدخل في أخرى.

فليست هناك شروطٌ لعمر على النحو الذي ذكره.

ولم يحرِّم القرآن استخدامَ أهل الكتاب في الأعمال التي يصلحون لها.

وجميع الآيات التي ذكرها في منابذة اليهود والنصارى مبتوتة الصلة بهذا الموضوع كما أسلفنا.

وجميع القصص التي ذكرها مكذوبةٌ على عمر وقادته وصحبه!.

وربما منع عمر رضي الله عنه توظيف نفرٍ من أهل الكتاب لتهمٍ خاصة، كثبوت الرشوة عليهم مثلاً، أو إضرارهم بالمناصب التي يتولونها.

وهذا المنع عدالةٌ تُطبّق على المسلمين واليهود والنصارى جميعاً.

ولكن الخواجه يفتري على كتاب الله ما ليس فيه، وعلى الحكم الإسلامي ما ليس من طبيعته.

والواقع أنَّ الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من اليهود والنصارى على أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية أو الجنسية كالمسلمين، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم، وعباداتهم وأحوالهم الخاصة.

ومن ثَمَّ فهو يقيم نظمه الاجتماعية على أساس الاختلاط والمشاركة.

ولا يرى حرجاً من أن يشتغل مسلمٌ عند أهل الكتاب، أو يشتغل أهلُ الكتاب عند مسلم.

وإن كان كثيرٌ من اليهود والنصارى لا يقدِّرون هذا النُّبْل.

وربما استغلُّوا هذه السماحة في الإساءة إلى الدين الذي وسعتهم دائرته المرنة.

وإلى القارئ الشواهد المبينة على صدق ما أسلفنا:

روى الطبراني عن كعب بن عجرة أنه اشتغل عند يهودي، فسقى له إبله كل دلوٍ بتمرة، وأخبر النبيَّ ﷺ بذلك فما أنكر عليه شيئاً.

وروى أبو يعلى مثل ذلك عن علي بن أبي طالب.

وقد استخدم النبيُّ في هجرته دليلاً مشركاً.

ولما فتح المسلمون الأوائل أقطار الدنيا المعروفة يومئذٍ أبقوا الموظفين في أعمالهم الأولى، فلم يُكرهوا أحداً منهم على الإسلام، ولم يفصلوا رجلاً من عمله بكفر.

قال الدكتور ترتون: «كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلَّما خلا منهم ديوانٌ من دواوين الدولة.

ونلاحظ في سنة ٢٥٣ هـ وجود إيصال ضريبة باللغتين العربية واليونانية.

وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة في أعمال الحكومة بأصفهان زمن أبي مسلم.

كما أننا نرى رجلاً مسيحياً يتولى إدارة السجن قريباً من الكوفة سنة ٢٦هـ وقت أن كان الوليد بن عقبة عاملاً عليها.

ولما تمَّ للعرب فتح مصر أبقوا مَنْ فيها من العمال البيزنطيين».

* * *

وقد أسرف الحكام المسلمون في استخدام أبناء الديانات الأخرى، واستغلوا سماحة الإسلام في معاملته لأهل الذمة استغلالاً جعل أحد الشعراء[1]

---

(١) وهو الرضي ابن البواب. كما جاء في كتاب (الفاطميون في مصر) للدكتور حسن إبراهيم حسن.

يقول مندِّداً بعلوِّ المنزلة التي وصل إليها اليهود:

يهودُ هذا الزَّمانِ قَدْ بَلَغُوا غايةَ آمَالِهِمْ وَقَدْ مَلَكُوا
العِزُّ فيهم، والمَالُ عِنْدَهُمُو وَمِنْهُمُو المُسْتَشَارُ والمَلِكُ
يا أهلَ مِصْرَ إنِّي قَدْ نَصَحْتُ لَكُمْ تَهَوَّدُوْا قَدْ تَهَوَّدَ الفَلَكُ

ويبدو أنَّ الموظفين من اليهود والنصارى خانوا الأعمال التي وُكلت إليهم، وانتهزوا فرصة توليهم المناصب الهامة، لخدمة الطوائف التي انحدروا منها، وإهانة جمهور المسلمين!.

وقد استقرأنا أحوال كثيرٍ من الموظفين، فوجدناهم يكيدون للدولة التي ائتمنتهم، والأمة التي احترمتهم(١).

بين المسيحية والإسلام:

والأساس الذي تدور عليه معاملة أتباع الديانات الأخرى يختلف في المسيحية عنه في الإسلام.

فبينما يقبل المسلمون بينهم وجود أديان مغايرة لدينهم، ويرفضون إكراهَ أحدٍ على ترك ملته، ويرضون أن يتألف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين، ويشرعون نظماً عادلة لتطبق عليهم وعلى مَنْ في ذمتهم من مسيحيين أو يهود.

بينما نفعل ذلك نرى المسيحية تتبرم بالديانات الأخرى(٢)، وترسم سياستها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها، أو تحقيرهم، وحرمانهم حتى ترغمهم على ترك دينهم، وتجبرهم على النصرانية جبراً.

وبينما يقول القرآن: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] تنسب الكتب

---

(١) وحدث هذا أيضاً في عهد الدولة العثمانية التي آوتهم بعد أن شرّدتهم نصرانية الغرب، وآمنتهم على دينهم وأموالهم وأعراضهم فجزوها جزاء سنّمار، انظر (العلاقات اليهودية التركية) للدكتورة هدى درويش، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

(٢) بل لا تقبل من يخالفها في المذهب من النصارى. (الناشر)

المقدسة إلى المسيح أنه قال لحوارييه : أجبروهم على اعتناق دينكم! .

وقد نشأ عن هذا التفاوت بين المبدأين أنَّ حركات التنصير، أو التحريق والاستئصال، كانت ظواهر عامة في تاريخ المسيحية.

ولا يتصور ـ بداهةً ـ في قومٍ تلك أحوالهم أن يوظِّفوا في حكمهم يهودياً أو مسلماً.

أما الإسلام فلا تُعرف في تاريخه هذه الفوضى، ولا تُعتبر له سياسة عامة ولا خاصة.

واستعمال اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة أمرٌ شائع في بلاد الإسلام إلى هذا العصر.

أما التعصُّب المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب، وإلى تحريم الوظائف الجليلة والتافهة عليهم، بل إنَّ أتباع المذهب المسيحيِّ يحرِّمون أن يليَ عملاً بينهم صاحبُ مذهبٍ مسيحيٍّ آخر.

وقد حدث في القرن الثامن عشر أن قُتل محامٍ بروتستانتي، لأنَّ القانون الفرنسي يومئذٍ يحظر مهنة المحاماة على البروتستانت!!.

وقد حار هذا الحقوقيُّ البائس بين التعطل والارتداد عن مذهبه إلى الكاثوليكية ليستطيع العمل في مهنته. ماذا يصنع؟ أيترك عقيدته ابتغاء الرزق.

ولكن ارتداده يثير عليه أسرته المتعصبة!!.

ثم انتهت هذه الحيرة بمقتله، واتُّهم أبوه باغتياله فأُعدم!.

وقيل: إنه انتحر يأساً، وإنَّ أباه لم يقتله تعصباً لمذهبه الديني، وتعرف هذه القصة بمأساة (كالا).

ووقعت في العصر نفسه قصةٌ مشابهة تسمة مأساة (سيرفين).

فإنَّ امرأةً كاثوليكية كانت تخدم أسرةً بروتستانتية، فأغرتْ ابنتها بالفرار إلى ديرٍ كاثوليكي، حيث سيمت سوء العذاب لتغيِّر عقيدتها:

غير أنَّ الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار غرقاً في بئر .

فاتهمت السلطات الكاثوليكية أباها بإغراقها، ليحول دون ارتدادها عن دينها ! .

ثم صدر حكمٌ قضائي بقتل الرجل وامرأته ومصادرة أملاكهما ! ! .

هذه المسالك المنكرة شاعت في معاملة المسيحيين بعضهم مع البعض .

وفي هذا الجو الكئيب المكفهر، لا يمكن أن تستروح نعمة الحياة الكريمة والحقوق المصونة أقلياتٌ دينية أخرى، بله أن تشغل بهم المناصب في الدولة ! .

فإن طويتَ هذه الصحيفة، واستقرأتَ أحوال الذميين في ظلال الحكم الإسلامي، انتقلتَ من النقيض إلى النقيض، ورأيتَ المناصب من الوزارة فما دونها مباحةً للأكفاء من اليهود والنصارى .

بل لرأيتَ من تمكُّن هؤلاء في الحكم، واطمئنانهم إلى رسوخ أقدامهم، وشعورهم بخلوِّ الجو لهم ما أغراهم ـ وهم القلة المدللة ـ بمحاولة إيذاء المسلمين وإذلالهم، وبمحاباة طوائفهم في كل شيء، استغلالاً خسيساً لمرونة الدين الذي منحهم حق الحياة الكريمة في جَنَباته ! .

قال الدكتور ترتون : «لما لام الناس ابن الفرات ورموه بالكفر لسَوْقه إمارة الجيش إلى أحد المسيحيين، دافع عن نفسه بأنه اقتدى بالخلفاء السابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة .

وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر الاحترام .

إلا أن المسلمين رفضوا تقبيل أياديهم بعد أن فرض ذلك عليهم ! .

وحدث في بغداد أن دخل أحد الوزراء النصارى، واسمه عبدون بن ساعد، على القاضي إسماعيل بن إسحاق، فوقف له مُرَحِّباً .

ولاحظ القاضي أن الشهود وبقية الحاضرين أنكروا عليه هذا العمل .

فلما خرج الوزير قال لهم القاضي: قد علمتُ إنكاركم، وإن الله تعالى يقول:

﴿ لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ [الممتحنة: ٨].

وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفيرٌ بيننا وبين خليفتنا، وهذا من البر، فأمن السامعون على قوله ورضوا به». . !!.

* * *

لكن إغراء السلطة، ووساوس التعصب الكامن، كانت تكيد كيدها ضد الإسلام من وراء ستار، حتى ضجَّ الناس منها.

وحدث في سنة ٣٨٧هـ = سنة ٩٧٧م آلت الرئاسة في بلدة (دقوقا) إلى اثنين من النصارى، وتمكَّنا بها وتصرفا فيها تصرف الحاكم، واستعبدوا المسلمين.

فقدم بعض هؤلاء المسلمين على جبرائيل بن محمد، وقالوا له: إنك تريد الغزو، ولست تدري أتبلغ غرضاً أم لا؟.

ونحن عندنا من هذين النصرانيين من قد تعبَّدنا وحكم علينا.

فلو أقمت عندنا، وكفيتنا أمرهما ساعدناك على ذلك.

فقبض جبرائيل عليهما، وصادر أملاكهما.

واستوزر المعزّ لدين الله (عيسى بن نسطور) النصراني، واستناب بالشام (منشة) اليهودي، فمال الوزير عيسى إلى النصارى، وشجع منشة اليهود.

فضجَّ الناس بالشكوى! حتى كتب أحدهم إلى الخليفة كتاباً جاء فيه «بالذي أعز النصارى بعيسى بن نسطورس، واليهود بمنشة، وأذل المسلمين بك لما كشفت ظلامتي، فألقى الخليفة القبض عليهما، وأخذ من عيسى ثلاثمئة ألف دينار، وغرم منشة مبلغاً ضخماً.

وفي سنة ٥٢٩هـ استوزر الحافظ لدين الله مسيحياً أرمنياً يدعى (بهرام)، ولقب تـاج الدولة. وقد عمد بهـرام هذا إلى فصْل المسـلمين من وظائفهم، وتعيين المسيحيين بدلهم - انظر جرأة الأقلية، وتوقحها على الأمة التي تعيش في ظلها.

وقد كان مسلك هذا الوزير المتعصب سبباً في إثارة المسلمين ضده.

وخصوصاً أنه أوعز إلى النصارى بالإسراف في بناء الكنائس والأديرة حتى ظنَّ أن الإسلام سينقرض من مصر.

فلمَّا هاج الجمهور ضده عزل عن الوزارة.

وقال ابن الأثير في كتابه (الكامل): بل قتل..

ونحن نتساءل في أيِّ عهدٍ من التاريخ المسيحي استوزر الملوك المسيحيون يهوداً أو مسلمين؟ بل في أي عهد استوزر الكاثوليك بروتستانتياً أو بالعكس؟.

إنَّ المسلمين وحدهم هم الذين فعلوا ذلك.

ومن الحقائق التي لا يجوز نسيانها، أنَّ هذا الصنيع لم يقابَل بحمدٍ ولا تقدير.

بل أصاب الإسلام منه ما أصاب صاحب الأفعى حين نقلها من برد العراء إلى الدفء وطيب المأوى، فكان الجزاء أن تحرَّكت برأسها تريد أن تلدغه..

ثم يجيء أفاكٌ في هذا القرن، يريد أن يقلب الحقائق، وأن يشوِّه التاريخ، وأن يتَّهم المسلمين - ومسلمي مصر بالذات - أنهم أذلُّوا الأقباط!؟.

وهكذا تصل القحة بأصحابها إلى الحضيض.

وصدق المثل: «رمتني بدائها وانسَلَّت».

ولنتابع سَرْد الوقائع:

ذكر المقريـزي في (خططه) قصـةً نحب أن ننقلها، لنشهد بأحداثها على موقف المسلمين في مصر من أقباطها، قال:

«لما انتهى الفيضان زمن ولاية (الحافظ لدين الله) انتدب الموفق بن الخلال جماعةً من العدول والكتّاب النصارى إلى الولايات والأعمال لتحرير ما شمله الري، وما زرع من الأرض، وتقدير خراجها، وكتابة المكلفات.

وحدث أن خرج إلى بعض الجهات مَنْ يمسحها من شادٍ وناظر وعدول.

وتأخَّر الكاتب النصراني، ثم لحقهم.

وأراد الكاتب عبور النهر إلى الناحية الأخرى، فحمله ضامن المعدِّية حتى إذا بلغ به وجهته المقصودة سأله أجره، فغضب الكاتب وسبَّه، وقال له: «أنا ماسحُ هذه البلدة، وتريد حقَّ التعدية؟».

فقال له الضامن: إنْ كان لي زرعٌ فخذه.

ثم تقدَّم فخلع لجام بغلة القبطي، وألقاه في معديته.

فلم يجد الكاتب بداً من دفع الأجرة حين أخذ لجام بغلته.

ولما انتهى من مسح البلد، وفرغ من تبييض المكلفة، وحملها إلى ديوان الخراج في العاصمة، كما جرت العادة، أضاف عشرين فداناً إلى المجموع، وترك فراغاً بإحدى الصفحات، واطلع الشهود على القائمة فوقعوا بصدقها.

ثم كتب هو في البياض الذي تركه (أرض اللجام) باسم صاحب المعدية وقدَّرها بعشرين فداناً، لكلِّ فدان أربعة دنانير، ثم حمل المكلفة إلى ديوان الأصيل.

وكانت العادة قد جرت أنه بعد قضاء أربعة أشهر من السنة الخراجية يرسل جنود أصحاب بطش وقوة وكتاب وشهود، وكاتب نصراني إلى الولايات لاستخراج ثلث خراج الأرض وفقاً للمكلفات.

وكان هذا القدر من المال ينفق على الجند إذ لم تكن لهم وقتئذٍ إقطاعيات.

ولم يكن من المألوف إرسال الرجل الذي قام بمسح الأرض، بل يندب آخر مكانه.

ولما ذهبت هذه الجماعة وأعني بها (الشادي والكاتب والعدول) لجمع ثلث مال الناحية استدعوا أرباب الزرع، ومن بينهم ضامن المعدية، وأرغموه على دفع ستة وعشرين دينار.

فأنكر أن يكون مالكاً لأية أرض في هذه الناحية، وأيّده القرويون في إنكاره.

فرفض الشادي ـ وكان فظاً عسوفاً ـ الاستماع إلى شهادتهم، وضربه بالمقارع، وأرغمه على بيع قاربه وغيره لدفع الثلث الثابت عليه.

فسار صاحب المعدية إلى القاهرة، وأبلغ الخليفةَ قصتَه، فأعيد النظر في قوائم الخراج، فلم يجدوا أية إشارة إلى أرض اللجام.

فأمر الخليفة بإحضار الكاتب، وسمر في مركب، وقام له من يطعمه ويسقيه، وتقرَّر أن يطاف به في سائر الولايات، وينادىٰ عليه، كما أمر بكفِّ يد النصارى كلهم عن الخدمة.

وكان الحافظ مولعاً بالفلك والتنجيم، فعمد النصارى إلى رشوة منجِّمه الخاص، وطلبوا إليه أن يفضي للخليفة بأنَّ مصر ستزدهر إنْ أقام السلطان في تدبير الدولة واحداً معيناً من النصارى ـ هو الأكرم بن زكريا ـ فجازت الحيلة على الخليفة، وجعل الأكرم أمير الدواوين.

وبادر الأكرم من ساعته إلى زيادة عدد المسيحيين أكثر مما كانوا قبلاً، وظهرت عليهم دلائل النعمة، فارتدوا الملابس الجميلة، وركبوا البغال الفارهة، والخيول المسوّمة بالسروج، وبالغوا في الشدة على المسلمين، وضايقوهم في أرزاقهم، واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات، حتى لقد حملوا أحد الكتَّاب المسلمين على بيع أولاده وبناته بغرامةٍ فرضوها عليه» . . .

والتزم الخطة نفسها أبو نجاح النصراني المعروف بالراهب.

فقد اقتضت مشيئة الخليفة المنصور أبو علي الملقب بالآمر ـ وهو عاشر الخلفاء الفاطميين ـ أن يسند إليه منصب الوزارة!.

وباشر الرجل عمله فارتكب مظالم كثيرة، وسار في سياسةٍ أحفظت عليه النفوس، وبغَّضته لدى العامة.

ولم يفلت من بلائه كبار الموظفين، ومنهم القضاة والكُتَّاب..

بل لقد أثر عنه ما يدلُّ على تنقصه لمكانة النبيّ ﷺ!.

ثم أخذ يشتد في مصادرة أموال الناس على اختلاف طبقاتهم، إلى أن لقي مصرعه أخيراً في الحادثة الآتية:

ذلك أنه كان يجلس بالجامع العتيق، ويرسل في استدعاء من أراد مصادرة أمواله، وفي يومٍ من الأيام، طلب رجلاً من العدول الممتازين، يُعرف بابن الغَرْس، كان قد نال قدراً كبيراً من إجلال الناس واحترامهم، فأهانه.

فخرج من عنده، ووقف في المسجد يوم الجمعة، حيث يشتد ازدحام الناس، وعَبَّرَ عمَّا شعر به من آلامٍ وأحزان قائلاً:

يا أهل مصر! انظروا عدل مولانا (الآمر) في تمكينه النصرانيَّ من المسلمين!

وهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في النفوس، وكادت تفضي إلى نشوب الفتن والاضطرابات، لولا تدخُّل خواص الخليفة في الأمر، وأعلموا مولاهم بما حلَّ بالمسلمين من عدوان هذا الوزير، وخوَّفوه سوء العاقبة.

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح.

فلمَّا مثل بين يديه انطلق رجلٌ من الأشراف في حضرة الخليفة، وأنشده هذا البيت:

إنَّ الَّـذِي شَـرُفْـتَ مِـنْ أَجْلِـهِ   يَـزْعُـمُ هٰـذَا أَنَّـهُ كَـاذِبُ

يقصد تذكير الخليفة بما أُشيع عن الراهب من تهجُّمٍ على مكانة رسول الله ﷺ

وعندئذٍ التفت الخليفة إلى أبي نجاح وقال له:

ماذا تقول يا راهب؟ فسكت، فأمر بقتله.

أرأيت هذا الهوان النازل بالمسلمين؟ وهذا السواد اللاصق بوجوههم؟ .

إنَّ هذا ـ ومثله كثير ـ يقع عليهم، والدولة لهم، والملك فيهم.

وهذا ومثله هو ما استدلَّ به الكاتب الصدوق النزيه: على أنَّ المسلمين يتعصَّبون ضد مخالفيهم في الدين، ويقصدون إلى إذلالهم، بل إلى إفنائهم . .

إنَّ الكاتب المسيحي الذي أرسلته الحكومة المسلمة لمسح الأرض وتقدير الضريبة عليها كان رجلاً خَرِب الذمة.

وليست المسيحية هي التي أوصته بأن يظلم ويكذب.

ولكننا نفحص تصرفه، فلا نجد فيه إلا بَطْر الحق وغمط الناس.

إنه يرتكب ما يرتكب وهو ممتلئ النفس ثقةً بأنه مالك عمله، وسيد وظيفته ـ والدولة مسلمة كما رأيت ـ. فهل ترى في مسلكه أثارةً من توجسٍ تغريه بتملُّق الشعب المسلم، أو مراعاة الحكومة المسلمة؟؟.

لا، إنه يظلم ويزوِّر، غير محاذرٍ أمةً ولا دولة.

والمسلمون لا يرون ضَيْراً ولا عجباً في أن يساكنهم ويصاحبهم من لا يتفق معهم في الدين.

فانظر كيف تُستغَل هذه السماحة الغالية في تولي المناصب ـ كبراها وصغراها ـ ثم في استغلال هذه المناصب للبغي والجور والتعصب والتحزب؟.

ممن؟ وعلى من؟.

مِنَ الأقلية الممتَّعة المرفَّهة على الأكثرية المتراخية!!.

إننا سنعرض أحداثاً شتىٰ من هذا اللون عندما نتكلم عن حال الأقباط في مصر منذ الفتح إلى اليوم.

ونريد أن نبيِّن أنَّ هذه المسالك النابية لم تخفَ على كثيرٍ من الحكام الأيقاظ، قال في (سياسة نامه):

«أما في فـارس فقد انزعج (نظام الملك) وزير الملك شاه من استعمال الذميين في الحكومة مكان الترك.

لذلك كتب سنة ٤٨٤هـ يقول: «ما قام يهوديٌّ أو نصرانيٌّ أو مجوسيٌّ أو قرمطيٌّ بعملٍ جليل، أو حلَّ مكان تركيٍّ ـ مسلم ـ إلا كان الإهمال أبرز صفاته.

إذ لا احترام عند هؤلاء الناس للدين، ولا إخلاص عندهم للدولة، ولا رحمة في قلوبهم على الرعية، بل سرعان ما يمسون موفوري الثراء.

وإنَّ المؤمن ليخشى العاقبة السيئة، ولا يعرف ماذا تؤول إليه الأمور.

ولم يحدث في أيام السلطان محمد مسعود ولا طغرل بك، ولا ألب أرسلان أن تجرَّأ مجوسيٌّ أو يهوديٌّ، أو نصرانيٌّ، أو كافرٌ، على المساهمة في الحياة العامة».

وعندي أنَّ للعقلية التركية دخلاً في هذا التوجيه[1].

فإنَّ صرامة الأتراك لا تطيق الجحود والعبث ممن ينبغي أن يُشكروا ويحمدوا!!.

أما الأمور في مصر، فقد سارت في اتجاهٍ آخر لأنَّ مصر «بلدٌ كلُّ شيءٍ فيه يُنسىٰ بعد حين».

* * *

والغريب أنَّ هذا الكاتب المتحامل على الإسلام وأهله يمرُّ بهذه الحقيقة فيصورها تصويراً مبْتسراً مغرضاً:

فيقول ـ في معرض الكلام عن حال الأقباط في عصر الفاطميين ـ:

«في هذا العصر نال الأقباط من المجد والثروة والحظوظ والسلطان ما أدَّى

---

(١) ليتهم بقوا على عقليتهم، فعندما فتحوا صدورهم لأهل الذمة إبان الدولة العثمانية وأغدقوا عليهم الخيرات، ما وجدوا منهم إلا الغدر والخيانة. (الناشر)

إلى غضب الشعب عليهم، واضمحلال نفوذهم: ذلك لأنَّ الأقلية الدينية استغلت ثقة الخلفاء بهم ليفوزوا بأكبر نصيب من التسامح للذميين: بينما أظهروا عدم مبالاتهم، بل جهروا بعداوتهم للأغلبية الدينية»..

فالاستهانة بالكثرة، والجهر بعداوة دينها، واستغلال الثقة الممنوحة للتنفيس عن الأحقاد الكامنة... هذا ـ في نظر الكاتب النزيه ـ دليلٌ على تعصب المسلمين، وعلى سعي الأقلية للفوز بأكبر نصيبٍ من التسامح!!.

* * *

بهذا الفكر المريض في تصوير الحوادث، أرسل الكاتب حكماً آخر على الإسلام نفسه فزعم في ص٢٥:

«أنَّ القرآن ـ بتعليماته الدقيقة فيما يجب اتّباعه حِيالَ أهل الذمة ـ لم يسهِّل المهمة الملقاة على عاتق الحكام الذين اضطروا إلى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث، أو تفسيرها حسب أهوائهم».

كما يقول في ص١٩: «استنَّ المشرِّع المسلم لأهل الذمة عدداً من القوانين استلهمها من تعاليم القرآن والحديث، غير أنَّ الفقهاء لم يستطيعوا دائماً فرض وجهة نظرهم على الحكام. وكان هؤلاء يحيدون عنها كلّما اضطرتهم ظروفهم ومصالحهم إلى ذلك».

وهذا الكلام يتلوَّى على الصفحات التواءَ الأفعىٰ الخبيثة.

إنَّ قائله يريد ليوهم القُرَّاء بأنَّ المبدأَ الذي سنَّه القرآن، وشرعه النبي ﷺ في سياسة أهل الذمة، هو الاضطهاد والجفاء!!.

فلما رأى الكاتب المفتري أنَّ أربعة عشر قرناً مَرَّت على أهل الذمة في بلاد الإسلام وهم أسعد الأقليات في العالم، زعم أنَّ هذه المعاملة الحسنة ترجع إلى أهواء الحكام!! وأنهم خرجوا بها عن تعاليم الكتاب والسنَّة، وعصوا بها نصائح الفقهاء!!.

فماذا نقول لامرئ تصل به أحقاده على الدين وأهله إلى هذه المنزلة من الكنود والكفران؟ .

يراك توصي به خيراً، ويرى وصاتك قد نفذت على نحوٍ يوجب الشكر، فينكر أنك نَوَّهتَ بحقه! ويردُّ الرعاية التي لحقته ـ على مرِّ القرون ـ إلى شهوات الولاة ومصالح الحكام! .

إننا نعرف أنَّ في البشر أفراداً لا يجدي في تأليفهم صنيع، ولا يصلح في معالجتهم لطف.

ولا نحب أن نذكر في وصفهم المثل السائر: «اتق شرَّ مَن أحسنتَ إليه». ولا قول الشاعر[1]:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكتَه وإذا أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرَّدا

فإنَّ العلاقات بين الأمم والطوائف لا تنال منها هذه الإساءات العابرة من أفرادٍ غلبت على طباعهم الخسَّة ـ ولكننا غضباً للحق المنكور ـ نتساءل:

هل القرآن لم يسهِّل المهمة الملقاة على عاتق الحكام في معاملة أهل الذمة كما يدَّعي هذا المخلوق؟! .

ونحن نورد القصة التالية ليرى القراء مبلغَ ما شَرَعه القرآن من عدالةٍ وإنصاف، في معاملة أهل الكتاب، ثم ندع لهم بعدئذٍ أن يحكموا: هل القرآن يَسَّر مهمة الحكام في معاملة الآخرين، أم صعَّبها كما يدَّعي هذا المؤلف؟؟ .

حدث في المدينة أنْ سطا رجلٌ معروف بإسلام، يدعى (طعمة بن أبيرق)، على أهل بيتٍ من المسلمين، وسَرَق منهم درعاً ثمَّ خبَّأها عند يهودي.

وبحث أصحاب الدرع عنها فوجدوها في بيت اليهودي، فاتهموه بأنه سارقها.

---

(١) المتنبي. (الناشر)

وذكر اليهودي أنه أخذها من طعمة وديعةً، وأنه بريء من أية ريبةٍ تتجه إليه! .

وكانت القرائن تتضافر على اتهام اليهودي! فالدرع عنده، ثم هو يهودي! وطعمة يحلف أنه ما أخذ الدرع، ولا استودعها أحداً.

وقد ذهب قومه إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن ينصر رجلهم، لأنه مسلمٌ ظاهر البراءة، وخصمه يهودي.

ولا ينبغي أن يُخذَل رجلٌ معروف بإسلامه أمام آخر معروف بيهوديته . . .

والقضية أمام الرسول ﷺ غامضة، فهو لم يؤتَ معرفة الغيب: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

ولم تنكشف له طبائع النفوس وخفاياها البعيدة، فهي مما استأثر الله بعلمه.

﴿ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقد جاء قوم (طعمة) يجادلون عن صاحبهم، ويطلبون من الرسول ﷺ أن يخاصم دونه، وأن يأخذ اليهوديَّ بالعقاب، وأن يَدَع القضية تمرُّ بظواهرها الغريبة دون مزيدٍ من البحث والاستقصاء . .

فإذا الوحي ينزل كاشفاً الغطاء عن الحقيقة المخبأة، مبرئاً ساحة اليهودي المحْرَج، دامغاً خصمه بأنه خائنٌ أثيم ـ وإنْ تظاهرَ بالإسلام ـ مؤنباً قومَه لجدالهم عنه، وسعيهم لدى الرسول ﷺ كي يجادل عنه كذلك.

وبدأت الآيات الكريمة بخطاب الرسول ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء: ١٠٥].

فالقرآن مظهر الحق وجوهره والحكم به لإقرار الحق بين الناس قاطبة.

فالناسُ أمام الحق سواء، يهوداً كانوا أو نصارى أو مسلمين.

فإذا خانَ رجلٌ ـ يدّعي الإسلام ـ فلن يكون أهلاً لمخاصمة الرسول ﷺ عنه، ولو كان ضد يهودي أو نصراني أو مجوسي.

ومن ثمَّ يقول الله له: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥ ـ ١٠٧].

ثم يتوجه التقريع إلى قوم السارق، الذين حسبوا الإسلامَ عصبيةً عمياء، والذين توهَّموا أنه ما دام في القضية يهوديٌّ ظنين فعليه أن يحمل الوزر! ولو كان مظلوماً! فيقول الله لهم: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٨ ـ ١٠٩]؟؟.

ثم يتَّجه الوحي إلى السارق بالنصيحة، كيما يرجع عن غيِّه، ويتوب من ضلاله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

ويحذِّره ويحذِّر غيره من المسلمين ألا يرموا بالتهم جزافاً. فإنَّ إسناد الجرائم إلى الأبرياء إثمٌ كبير، ومهما كانت أجناسهم ودياناتهم فإنَّ السيئة تقع على رأس مرتكبها وحده. ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١١ ـ ١١٢].

ويعود الوحي الكريم مرةً أخرى ينبِّه الرسول ﷺ إلى التيقظ لألاعيب الخصوم، وكيد المتقاضين، فإنهم قد يلبسون الحقَّ بالباطل.

وفي سبيل النجاة بأنفسهم وإهلاك أعدائهم يضلِّلون القضاء، ويحيِّرون القضاة: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

أرأيتَ إلى هذه النذر المتتابعة والنصائح الحكيمة؟.

أرأيتَ إلى هذه التعاليم الواضحة والخطوط المستقيمة؟.

أرأيتَ إلى آيات القرآن العزيز وأسلوبها في خطاب الرسول ﷺ ومَنْ حوله، وإنصافها للأبرياء أياً كانوا؟.

لِمَ هذا كله؟ لإنقاذ يهوديٍّ كادت القرائن تدينه، وإدانة رجلٍ يُعرف بإسلامٍ بين قومٍ يتعصَّبون له بوصف أنهم جميعاً مسلمون..!!

وبعد ذلك تبلغ القحة بكاتبٍ ملتاث فيقول:

«إنَّ القرآن لم يسهِّل مهمة الحكام المتسامحين! أو أنَّ تفسير القرآن مهمةٌ صعبة ودقيقة» كما يقول في ص٥٧.

اليهودية والمسيحية في الإسلام:

يرى اليهود أنَّ موسى نبيٌّ الله، وأنَّ بني إسرائيل شعبه المختار، وأنَّ عيسى ومحمداً كليهما رجلان دَعِيَّان ليست لهما رسالة، وأنَّ أتباعهما قُطعانٌ من المضللين لا يقام لأديانهم وزن، ولا يمنحون أية حرمة.

والنصارىٰ ـ في نظرهم ـ مخدوعون في لقيطٍ حَمَلت به أمُّه سفاحاً.

والمسلمون ـ في نظرهم ـ مخدوعون في أعرابيٍّ جاء من الصحراء لا يعقل شيئاً.

والمسيحيون ـ وإن اعترفوا بموسى وتوراته ـ إلا أنهم ناقمون على اليهود افتراءهم على عيسى وأمه، ولذلك سَنُّوا في معاملتهم قوانين الإذلال والاستئصال.

وكما نقموا على اليهود موقفهم من المسيح، فهم كذلك ناقمون على المسلمين، لأنهم يرون الإسلامَ ديانةً ملفَّقة، جاء بها من عند نفسه رجلٌ كاذب في دعواه النبوة.

والدين الذي نسخ ما قبله، وأنكر ما بعده هو المسيحية، التي يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة.

أما المسلمون ففي دينهم قاسمٌ مشترك بين الديانات كلها، فهم يؤمنون بموسى ويوقِّرونه، ويعتبرون التهجُّم على مكانته كفراً بالإسلام، وهم كذلك يؤمنون بعيسى، ويكرمون مولده، وينزِّهون نسبته، ويرون الطعنَ في عفاف أمه أو شرف ابنها كفراً بالإسلام.

وهم يضمُّون إلى إيمانهم بموسى وتوراته، وعيسى وإنجيله، إيماناً جديداً بمحمد وقرآنه، على أساس أنَّ النبوة الأخيرة جاءت تصديقاً لما قبلها، ومحواً للفوارق والخلافات التي مَزَّقت شمل العالم أجمع.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤].

فالإسلام هو دين موسى ودين عيسى معاً، وهدايات من قبلهما من رسل الله الأكرمين جميعاً.

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٤].

ومن هذا الشرح تجد أنَّ الانكماش والتعصُّب، والاتهام والتهجم ليس من طبيعة الإسلام وأهله.

ولكنه طبيعة من يرون أن يؤمنوا بموسى فقط، ويتعبَّدون الله بالطعن في عيسى ومحمد.

أو يريدون الإيمانَ بعيسى فقط، ويعتبرون مَنْ جاء بعده دجَّالاً يحاربه النصارىٰ بالسيف إنْ كانوا أكثرية، ويحاربونه بالدس والمؤامرات إن كانوا قلة.

ومن هذا الشرح ترى لماذا اتَّسع صدر الإسلام للأديان الأخرى.

فهو يعطيها حقَّ الحياة معه، في الوقت الذي ضنَّ فيه المسيحيون بحقِّ الحياة لا على المسلمين فحسب، بل على المذاهب المسيحية الأخرى.

ومن هذا الشرح تعرف السرَّ في جحود صنيعنا الذي أسديناه طوال أربعة عشر قرناً.

إنَّ إخواننا المسلمين الذين أوقعهم سوء الحظ بين جماهير المسيحيين في روسية ويوغسلافية وأسبانية وجنوب إيطالية.. إلخ قد هلكوا جميعاً[1].

أما الأقليات المسيحية في ربوعنا الفسيحة، فقد اغتنت وتكاثرت وعزَّت، ولكنها مع ذلك لا تستريح لما ترى.

ولماذا؟ لأنها لا تقرُّ عيناً إلا إذا طَمَست معالم الإسلام، وارتدَّ عامره بلقعاً.

إنَّ المسلمين في نظرهم خوارج على المسيحية.

وهم قومٌ يتَّبعون أمِّياً أساءَ إلى الكنيسة وكهنوتها.

وعندما تطوي قلبك على شعور التنقُّص والازدراء لامرئٍ ما، فإنك لن تُقِرَّ له بإحسان، ولن تعترف له بجميل.

وهذا الشعور الخسيس هو الذي أوحىٰ بتأليف كتابٍ يقوم في جملته وتفصيله على الافتراء والتضليل، والنَّيْل من (محمد) ﷺ ودينه وحكمه.

والمؤلف رجلٌ ينال مُرتَّبَهُ من دولةٍ تنصُّ في دستورها على أنَّ دينها الرسمي هو الإسلام.

واعجبْ لرجلٍ يأكل من مال المسلمين، ثم لا يطوي بطنه على ما فيه من

---

(١) وهاهي المجازر تعود في البوسنة والهرسك وإقليم كوسوفو وبلاد الشيشان على نحوٍ أفظع مما كان، ويخرس العالم المتحضر عن كلمة الحق كالشيطان، أما المسلمون فمذ تركوا دينهم الحق الذي أعزَّهم اللهُ به ذلُّوا، وأصبحوا كالغنم التي غاب راعيها وتركها في أرضٍ مُسْبِغة في ليلة شاتية. (الناشر)

غلٍّ ضد الإسلام، بل يفتح فمه ليتَّهم المسلمين الذين آووه وأمَّنوه بأنهم متعصبون ضد المسيحيين.

* * *

إنَّ الغرور والتعصُّب ليسا حديثين في هذه المعاملة الشائنة التي يلقاها الإسلام من اليهود والنصارى.

فقديماً أكَّد الفريقان أنَّ الدنيا والآخرة لهما وحدهما.

فصوَّر القرآن هذا التفكير الضيِّق وردَّ عليهما في إيجازٍ وأدب.

﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢].

وبيَّن القرآن أنَّ على المسلمين مصابرةَ هؤلاء اليهود والنصارى، وردِّ عدوانهم على الدين الجديد برقةٍ وحلم.

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٩].

كما بيَّن القرآن أنَّ محاسنة هؤلاء لن تطفئ نيرانهم أبداً.

إذ إنَّ راحتهم الكبرى هي في محو الإسلام، وهدم مساجده، وردِّ الناس قَسْراً إلى الكنائس والبيع.

ومع استبانة هذا القصد السيِّئ في مسالكهم المعوجة، فإنَّ الإسلام لا يعاملهم بالمثل، ولا يوحي لنبيِّه وأتباعه أن يعفوا على آثار الديانات السابقة، ويمحوها من الوجود.

بل يكتفي أن يطلب من النبيِّ ﷺ ومن معه الثبات على الحق، وعدم التزحزح عنه، مهما لاقوا من صعاب:

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وعندما تحوَّلت هذه الأحقاد إلى هجومٍ مسلَّح على الإسلام ردَّها بعنف، وما كان لأحدٍ أن يلومه على ذلك.

علاقة الإسلام بغيره من الأديان:

عرفت تهجُّمَ أهل الكتاب لظهور الإسلام وبعثة نبيه ﷺ. وأنهم تساءلوا ـ مستغربين ـ ما هذه الدعوة الجديدة؟ أو بتعبيرٍ أصرح. ما هذه الدعوى البعيدة؟ وماحاجة الناس إليها، وهم قائمون في الحياة يباشرون مراسيم العبادة، ويربطون الخلق بربهم على النحو الذي يألفون؟ إنَّ ظهور هذا الدين يعني أنَّ هناك نقصاً في العمل الذي يؤدونه، أو خللاً في المنهج الذي يقدمونه، أو تفريطاً في الواجب الذي يحملونه... أو... أو... إلخ.

ولما كانوا لا يلمحون في أنفسهم، ولا فيما معهم شيئاً من ذلك، فقد اعتبروا ذلك النبي المبعوث من العرب نافلةً يستغنى عنها، بل خرافةً يعترضون طريقها، ويستنكرون تصديقها!!!.

إنَّ هذه الرسالة الجديدة تحدٍّ لوجودهم وإنهاءٌ لبقائهم. ومسايرتها لحظةً من الزمن اعترافٌ بانقضاء أمدهم، وانتقالِ دور التوجيه إلى غيرهم!!.

ومن الذي يرضى بترك ما معه من يقين، لينضمَّ إلى هذا العربيِّ المبعوث بين الأميين؟؟.

فإذا انضاف إلى ذلك ما يكمن في طباع نفرٍ من البشر من سَوْرات الحقد وهيجان الحسد أدركنا أنَّ تكذيبَ اليهود والنصارى للإسلام يعود إلى عوامل شتى تقتضي علاجاً معقولاً، وتلطفاً تاماً في العرض، وإغضاءً كثيراً عن الصد، وتحملاً موصولاً للأذى، ومطاولةً متأنية في الجدل، واعتذاراً في أغلب الأحيان عن البطء في الإجابة والاسترسال مع التقليد.

موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الناحية النظرية:

وإيضاح الصلة بين الإسلام وما سبقه من أديان نال قسطاً كبيراً من القرآن الكريم.

والتأمل في الوحي الشارح لهذه الصلات العتيدة يحمل المنصف على القول بأنَّ الإسلام لم يدعْ مجالاً لظلال التجاهل، ولا لخلال التحاسد.

وأنه فسح الطريق لتعاونٍ شامل بين أهل الاعتدال من ورثة الأديان كلها. .

وأنَّ الإسلامَ أُكره إكراهاً على انتضاء السيف ليستبقي لنفسه حياةً ضنَّ بها الجاحدون والحاقدون. . .

وهاكَ صورة للعلاقة التي أقرَّها الإسلام مع من سبقوه، شرحناها بإسهابٍ هنا، وفي كتبنا الأخرى.

ونثبت إيجازاً آخر لها بقلم الشيخ الجليل (محمد عبد الله دراز) رحمه الله تعالى[1] وهذا نصه:

«إذا أخذنا كلمة (الإسلام) بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالاً لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية.

فالإسلام ـ في لغة القرآن ـ ليس اسماً لدينٍ خاص، وإنما هو اسمٌ للدين المشترك، الذي هتف به كل الأنبياء، وانتسب إليه كل أتباع الأنبياء.

هكذا نرى نوحاً يقول لقومه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

ويعقوب يوصي بنيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم

---

(١) فقيه، متأدب، أزهري، من هيئة كبار العلماء بالأزهر، ولد عام ١٨٩٤م، ونال العالمية سنة ١٩١٦م، ثم أوفد ضمن البعثة الأزهرية إلى فرنسة عام ١٩٣٦م، فحصل هناك على الدكتوراه، وعاد إلى التدريس في الأزهر، وبقي على ذلك حتى وفاته عام ١٩٥٨م. (الناشر)

﴿مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وأبناء يعقوب يجيبون أباهم: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

وموسى يقول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

والحواريون يقولون لعيسى: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

بل إنَّ فريقاً من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣].

وبالجملة نرى اسم الإسلام شعاراً عاماً يدور في القرآن على ألسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة المحمدية.

ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضيةٍ واحدة، يوجهها إلى قوم محمد ﷺ، ويبيِّن لهم فيها أنَّه لم يشرع لهم ديناً جديداً، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم.

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم نراه ـ بعد أن يَسْرُدَ سيرة الأنبياء وأتباعهم ـ ينظمهم في سلكٍ واحد، ويجعل منهم جميعاً أمةً واحدة لها إلـه واحد، كما لها شريعةٌ واحدة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء المرسلين؟.

إنَّ الذي يقرأ القرآن يعرف كنـه هذا الدين: إنه التوجُّه إلى الله ربِّ العالمين في خضوعٍ خالص لا يشوبه شرك. وفي إيمانٍ واثق مطمئن بكلٍّ ما جاء من عنده على أيِّ لسـان، وفي أيِّ زمانٍ أو مكان، دون تمرُّدٍ على حكمه، ودون تمييزٍ

شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتابٍ وكتابٍ من كتبه، أو بين رسولٍ ورسولٍ من رسله. هكذا يقول القرآن: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة ٥].

ويقول: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

نقول ـ إذاً ـ إنَّ الإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلاًّ للسؤال عن علاقةٍ بينه وبين سائر الأديان السماوية.

وإذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فهاهنا وحدةٌ لا انقسام فيها ولا إثنينية.

غير أنَّ كلمة (الإسلام) قد أصبح لها في عرف الناس مدلولٌ مُعيَّن، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد ﷺ أو التي استنبطت مما جاء به.

كما أنَّ كلمة (اليهودية) أو (الموسوية) تخصُّ شريعة موسى عليه الصلاة والسلام وما اشتقَّ منها.

وكلمة (النصرانية) أو (المسيحية) تخصُّ شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام وما تفرَّع عنها.

فالسؤال الآن إنما هو عن الإسلام بمعناه العرفي الجديد.

أعني عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: في علاقة الشريعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة، وهي في صورتها الأولى لم تبعد بعد عن منبعها، ولم يتغير فيها شيءٌ بفعل الزمان ولا بيد الإنسان.

المرحلة الثانية: في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شيءٌ من التطور.

أما في **المرحلة الأولى**: فالقرآن يعلِّمنا أنَّ كلَّ رسولٍ يُرسَل، وكل كتاب ينزل، قد جاء مصدقاً ومؤكداً لما قبله:

فالإنجيل مصدِّقٌ ومؤيِّدٌ للتوراة.

والقرآن مصدِّقٌ ومؤيِّدٌ للإنجيل والتوراة، ولكل ما بين يديه من الكتب. قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ ـ ٤٨].

وقد أخذ الله الميثاق على كلِّ نبيٍّ إذا جاءه رسولٌ مصدِّقٌ لما معه أن يؤمنَ به وينصره. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

غير أنَّ هاهنا سؤالاً يحقُّ للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة إنما هي تجديدٌ للمتقدمة، وتذكيرٌ بها، فلا تبدل فيها معنى، ولا تغير حكماً؟.

وإلا فكيف يقال: إنها تصدِّق... إلخ بينما هي تبدِّل وتعدِّل؟.

وإذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغيِّر المتأخِّر منها شيئاً من المتقدِّم فهل الواقع هو ذلك؟.

الجوابُ: ليس الواقع ذلك.

فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة، إذ أعلن عيسى عليه الصلاة

والسلام أنه جاء ليُحِلَّ لبني إسرائيل بعض الذي حُرِّم عليهم: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة، إذ أعلن أنَّ محمداً ﷺ جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرِّم عليهم كل الخبائث، ويضع عنهم إصرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولكن يجب أن يُفهم هذا وذاك، لم يكن من المتأخر نقضاً للمتقدم، ولا إنكاراً لحكمة أحكامه في إبانها، وإنما كان وقوفاً بها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدَّر..

مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء، جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته، فقرَّر قصرَ غذائه على اللبن.

وجاء الثاني إلى الطفل في مرحلته التالية، فقرر له طعاماً ليناً وطعاماً نشوياً خفيفاً.

وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها، فأَذِنَ له بغذاءٍ قويٍّ كامل.

لا ريب أنَّ هاهنا اعترافاً ضمنياً من كل واحد منهم بأنَّ صاحبه كان موفَّقاً كل التوفيق في علاج الحال التي عُرضت عليه.

نعم إنَّ هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا نختلف عليها باختلاف الأسنان، فهذه لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلُّها صدقٌ وعدل في جملتها وتفصيلها، وكلها

يصدِّق بعضها بعضاً من ألفها إلى يائها .

ولكن هذا التصديق على ضَرْبَين :

١ ـ تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره .

٢ ـ وتصديقٌ له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية .

ذلك أنَّ الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات :

١ ـ **تشريعات خالدة** لا تتبدل بتبدل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا العشر) ونحوها .

فإذا فرض أنَّ أهل شريعةٍ سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة اللاحقة بمثله (أي أعادت مضمونه تذكيراً)، وتأكيداً له .

٢ ـ **وتشريعات موقوتة** بآجالٍ طويلة أو قصيرة .

فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، وتجيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة . .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو تأويل قوله تعالى : ﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري .

١ ـ عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها .

٢ ـ وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقي اتجاهاً إلى مستقبلٍ أفضل وأكمل .

ونحن إذا نظرنا نظرةً فاحصة إلى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث نجد فيه هذين العنصرين واضحين كل الوضوح .

إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة

السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته.

نرى شريعة التوراة مثلاً قد عُنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك «لا تقتل»، «ولا تسرق»... إلخ.

ونرى الطابع البارز فيها هو طابع الحقوق، وطلب العدل والمساواة بينها.

ثم نرى شريعة (الإنجيل) تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكدها، ثم تترقى فتزيد عليها آداباً مكمِّلة: «لا تراءِ الناسَ بفعل الخير». «أحسنْ إلى من أساء إليك».

ونرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان.

وأخيراً تجيء شريعة القرآن، فنراها تقرر المبدأين كليهما في نَسَقٍ واحد:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [النحل: ٩٠]، مقدِّرةً لكلٍّ منهما درجته في ميزان القيم الأدبية، مميزةً بين المفضول منهما والفاضل:

﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

ثم نراها ـ وقد أضافت إليهما فصولاً جديدة ـ صاغت فيها قانون آداب اللياقة.

رسمت بها مناهج السلوك الكريم في المجتمعات الرفيعة.

ففي التحية والاستئذان، والمجالسة والمخاطبة، إلى غير ذلك.. كما نراه في سورة النور والحجرات والمجادلة.

هذا مثالٌ من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح.

والأمثلة كثيرة لا يتَّسع لها نطاق هذا البحث.

هكذا كانت الشرائع السماوية خطواتٍ متصاعدة ولَبِناتٍ متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع.

وكانت مهمة اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها ـ في الوقت نفسه ـ كانت بمثابة حجر الزاوية الذي يمسك أركان البناء.

وصدق الله حين وصف خاتمَ أنبيائه ﷺ بأنه ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ٣٧].

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه ﷺ بأنه كان إتماماً للنعمة وإكمالاً للدين: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة: ٣].

وصدق رسول الله ﷺ حين صوَّر الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير:

«إنَّ مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ مِنْ قَبلي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنىٰ بَيْتاً، فأحْسَنَهُ وأجْملَهُ إلاَّ موضعَ لَبِنَـةٍ في زاويـة، فَجَعَلَ النَّاسُ يطوفُونَ بهِ، ويُعجَبونَ لَهُ، ويقولونَ: هلاَّ وُضِعَتْ هذه اللَّبنَة؟ قال: فأنَا اللَّبنَة. وأنَا خاتمُ النبيِّين»(١).

إنها إذاً سياسةٌ حكيمة رسمتها يد العناية الإلـٰهية، لتربية البشرية تربيةً تدريجية لا طفرة فيها ولا ثغرة، ولا توقّف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض.

بل تضافُرٌ وتعانُق، وثباتٌ واستقرار، ثم نموٌّ واكتمال وازدهار.

وننتقل الآن إلى المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية في بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد على هذه الشرائع، فنالها شيءٌ من التطور والتحرر:

رأينا في المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائماً أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتب.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب، باب خاتم النبيين؛ ومسلم في الفضائل، باب ذكر كونه خاتم النبيين، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ونرى الآن أنَّ القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفةً أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضاً «مهيمناً» على تلك الكتب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨] أي حارساً أميناً عليها. .

ومن قضية الحراسة الأمينة على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلَّده التاريخ فيها من حقٍّ وخير، بل عليه ـ فوق ذلك ـ أن يحميها من الدخيل الذي عساه أن يضاف إليها بغير حق.

وأن يبرز ما تمسُّ إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدىٰ من يدَّعي وجودها في تلك الكتب.

﴿ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

كما كان من مهمته أن يبيِّن ما ينبغي تبيينه مما كتموه منها ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥].

وجملة القول: إنَّ علاقة الإسلام بالشرائع السماوية في صورتها الأولى هي علاقة تصديقٍ وتأييد كلي.

وأنَّ علاقته بها ـ في صورتها المنظورة ـ علاقة تصديقٍ لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليها من البدع والإضافات الغريبة عنها.

هذا الطابع الذي تتَّسم به العقيدة الإسلامية ـ وهو طابع الإنصاف والتبصير، الذي يلزم كل مسلم، ألا يقبل جزافاً، ولا ينكر جزافاً، وأن يصدر دائماً من بصيرةٍ وبيِّنة في قبوله ورده ـ ليس خاصاً بموقفها من الشرائع السماوية.

بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة.

وكل شريعة وملّة، حتى الديانات الوثنية، ترى القرآن يحلّلها ويفصّلها. فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسنَّة الصالحة، وينحّي ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة العملية:

أما بعد، فهذا هو موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية.

وقد بقي أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية.

هل يقف منها موقف السكوت عليها والإغضاء عنها اكتفاءً بالأمر الواقع؟

أم يقف موقف المحارب المقاتل، لا يهدأ له بالٌ حتى يطهِّر الأرض منها ومن أهلها؟.

قليلٌ من الكتَّاب الغربيين يجيبنا بالشق الأول.

حتى قال قائل، منهم (جوتييه) في كتابه (أخلاق المسلمين وعوائدهم):

إنَّ المسلمَ أنانيّ، وإنَّ الإسلام يشجعه على هذه الأنانية.

فالمسلم لا يعنيه ضلَّ غيره أم اهتدى، سعد أم شقي، ذهب إلى الجنة أم إلى السعير.

وأكثر الكاتبين يجيبون بالشق الثاني.

فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحدِّ السيف.

والقرآن ـ في نظرهم ـ يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما لقيه...

الواقع أنَّ كِلاَ الفريقين لم يُصِبْ كَبِدَ الحقيقة في تصوره لموقف الإسلام.

ليس الإسلام فاتراً ولا منطوياً على نفسه، كما زعم الأقلّون.

فالدعوة إلى الحق والخير ركنٌ أصيل من أركان الإسلام.

والنشاط في هذه الدعوة فريضةٌ مستمرة في كلِّ زمانٍ ومكان.

يأمر الله نبيَّه بتبليغ كلامه، وأن يبذلَ جهده في هذا التبليغ.

﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢].

والقرآن يحضُّ المؤمنين على هذه الدعوة:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فصلت: ٣٣].

بل يجعل الفلاح والنجاة وقفاً على هؤلاء الدعاة:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٢ ـ ٣].

ولكن الإسلام ـ في الوقت نفسه ـ ليس ـ كما يزعم الأكثرون ـ عنيفاً ولا متعطشاً للدماء.

وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضاً حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة.

فنبيُّ الإسلام هو أول من يعرف أنَّ كل محاولةٍ لفرض ديانةٍ عالمية وحيدة هي محاولةٌ فاشلة.

بل هي مقاومةٌ لسنَّة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود.

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [هود: ١١٨].

﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [القصص: ٥٦].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحكمة المبْرمة في القرآن قاعدة حرية

العقيدة ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها، فجعلها دعوةً بالحجة والنصيحة في رفقٍ ولين.

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: ١٢٥].

على أنَّ الإسلام ـ لا يكتفي منّا بهذا الموقف السلمي السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدَّم بنا إلى الأمام، فيرسم لنا خطواتٍ إيجابية، نكرم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين.

هل ترى أسمىٰ وأنبل من تلك الوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي؟.

اقرأ في سورة التوبة: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾ [التوبة: ٦].

فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نجير هؤلاء المشركين، ونؤويهم، ونكفل لهم الأمن في جوارنا فحسب.

ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق، ونهديهم طريق الخير وكفى.

بل يأمرنا بأنْ نكفل لهم ـ كذلك ـ الحماية والرعاية في انتقالهم، حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كلَّ غَائِلة.

ثم هل ترى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التي لا تكتفي بأن نكفل لغير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدر ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»؟

هل ترى أوسع أفقاً وأرحب صدراً، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي، والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفي

في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية، وبين الأمم التي لاتدين بدينها، ولا تتحاكم إلى قوانينها؟ لا تكتفي في تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٠]. بل تندب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقفَ رحمةٍ وبر، وعدل وقسط، ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ليس هذا هو كل شيءٍ في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يقفه الإسلام عملياً من غير أتباعه.. ولضيق المقام نكتفي بكلمةٍ واحدة:

إنَّ الإسلام لا يكفُّ لحظةً واحدة عن مدِّ يده لمصافحة أتباع كل ملَّةٍ ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن، وصيانة الدماء أن تُسفك، وحماية الحرمات أن تُنتهك، ولو على شروطٍ يبدو فيها بعض الإجحاف.

ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله ﷺ في هذا المعنى حين قال في الحديبية:

«والله لا تدعوني قريشٌ إلى خطةٍ توصَل فيها الأرحام، وتعظَّم فيها الحرمات، إلا أعطيتهم إياها».

فهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام.. يقرره نبيُّ الإسلام ورسول السلام ﷺ.

الفتح الإسلامي في العصر الأول:

هناك سؤالٌ يجب أن يوجَّه إلينا نحن المسلمين، ونحب أن نستمع إليه في أناة، وأن نشرح إجابته على ضوءٍ من الفكر الحر، والتجرُّد المطلق، تاركين كلَّ امرىءٍ بعدئذٍ أن يمحِّص هذا الرد، وأن يقلبه على وجوهه كلها، ليقتنع بما شاء!.

أما السؤال فهو: لماذا خرج المسلمون الأولون من الجزيرة التي انتشر الإسلام فيها زاحفين على مصر والشام وفارس وما وراء هذه الأقطار؟.

ولماذا لم يعيشوا بدينهم في نطاق أرضهم، مكتفين بإرسال الدعاة من حينٍ إلى حين للفت الأنظار إلى الرسالة الجديدة، وما تضمَّنت من مبادئ ونظم؟.

وإذا كان الإسلام لا يخوض الحروب إلا رداً لعدوانٍ، أو منعاً لفتنة، فهل هذه الجيوش التي هدَّمت الممالك المجاورة، وأقامت فيها كانت تشنُّ حرب دفاعٍ، أم كانت تهاجم فعلاً؟..

هذا هو السؤال الذي يجب أن نسمعه، وأن نقدِّم جواباً مقنعاً عنه!. وإلا بؤنا وباءَ دينُنا معنا بالصفة التي يستحقها.. ونستحقها معه!..

ونحن نرحِّب بهذا السؤال، ونود أن نسمعه من كل فم، وأن تسمع الإجابة عنه كل أذن!.

إنَّ الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح ثمرةَ الإرادة الحرة.

وكما أنَّ المكرَه على عمل ما لا يتحمَّل نتائجه، لأنَّ إرادته استعبدتها قوةٌ قاهرة، فكذلك المكرهون بالعنف على الدخول في دينٍ ما، لا يعتبَرون متديّنين به موضوعاً، وإن خضعوا له شكلاً.

وحسابهم الحق عند الله يقوم على اتجاهات قلوبهم، وحركات ضمائرهم فحسب.

وهذا المبدأ يعتبر حجر الزاوية في الدعوة الإسلامية.

﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد ظهرت في العالم أديانٌ كثيرة، وتقاسمت حكمه دولٌ شتى.

والإسلام لم يبدأ دعوته الكبرى في الأرض إلا بعد أن سَلَخت النصرانية قرابة سبعة قرون، فضلاً عن اليهودية القديمة، وعن الوثنية الأقدم من الجميع.

فلننظر ما هي الطرق التي سلكتها هذه الديانات في سيطرتها على الشعوب؟ ولنغضَّ الطرف ـ أولاً ـ عن قيمتها الذاتية، ومدى ما فيها عن حقٍّ وباطل.

ثم لنتساءل: هل نال كلُّ فردٍ من البشر حقَّه المطلق في اعتناق الدين الذي يتَّجه إليه بمحض إرادته؟ .

وهل الحكومات التي أقامتها هذه الديانات أعطت رعاياها حرياتهم المطلقة في تخيُّر ما يرون من مذاهب وأفكار؟ .

وهل انفردت الوثنية بالحكم في فارس، لأنها قامت على دعائم مكينة من حرية العقل والضمير؟ .

وهل انفردت المسيحية بالحكم في أقطارها الواسعة، لأنها كذلك وليدة إيمانٍ حر ورغبة مطلقة؟ .

وما الرأي إذا كانت الحكومة المسيحية ذات السلطة الهائلة قد قامت على أنقاض مذاهب مسيحية أخرى، خَنَقها الاضطهاد، وقَتَلَها الكبح والجبروت النازل بأشياعها عدة قرون؟ .

وما الرأي إذا كانت المذاهب المنتصرة بقوة السيف مذاهب مخرفة.

والمذاهب المنهزمة أدنىٰ إلى الرشد والصدق؟ .

هل يعتبر الهجوم على هذه الحكومات عدواناً؟ .

إننا قبل أن نجيب بالتفصيل على هذه الأسئلة، وقبل أن نتبيَّن معالم التاريخ القديم، نؤكد من جانبنا: أنَّ الإسلام لو استخدم قوةً عسكرية ضد حكوماتٍ تعتمد سياستها على تأمين حقوق الفرد، وإطلاق حريته الدينية، لكان قد ارتكب جريمةً من أقبح الجرائم، ولجازَ أن يؤاخَذ بها إلى يوم الدين.

وحسبنا أن نَسْرُدَ تاريخ الكنيسة في القرون السبعة التي سبقت الإسلام، ثم في القرون الثلاثة عشر التي أعقبته، لنضع تحت أعيننا سلسلةً من المآسي والفواجع لطَّخت جبين البشر بالوحل، وما زال تاريخ الدنيا يئنُّ من ذكرياتها، ويفزع إلى يومنا هذا من أشباحها! إنَّ اضطهاد المخالفين كان صبغةً عامة للمسيحية منذ تحولت إلى دولة على يد الإمبراطور الوثني قسطنطين.

ولم يكن اضطهاد أولئك المخالفين عملاً فردياً، يبدو حيناً ويختفي أحياناً،

بل كان سياسةً ثابتة حاسمة تستهدف إفناء الخصوم ومحو آثارهم محواً. وكانت المذابح العامـة والقوانين الصارمـة التي توحي بها تُدَبَّـر وتُنَفَّـذ بوحشيةٍ بالغة[1].

وليست المسيحية التي أنزلها الله على نبيِّه عيسى عليه الصلاة والسلام هي التي شـرعت للنصارى في العصـور الأولى أو الوسطى هذه التعاليم الهمجيـة المتعطشة إلى السفك والهلاك، فإنَّ المسيحية الحقَّة تبخَّرت بعد وفاة عيسى بأمدٍ قليل.

وقد حاول بعض الأنقياء المنصفين أن يعيدوها إلى أوضاعها الصحيحة ـ كآريوس[2] وأتباعه ـ ففشلوا وأبيدوا، على ما سيعرف القارئ بعد.

وتولَّىٰ زمام الديانة المشوَّهة أقوامٌ انقسموا على أنفسهم في فهم عقيدة التثليث، ولعن بعضهم بعضاً، ونصبوا لأنفسهم المشانق والمحارق، وعانىٰ العالم من تعصُّبهم وتشفِّيهم من خصومهم الويل الكبير..

مظالم متبادلة:

عانى المسيحيون الأولون صنوفاً من العَسْف والأذى تحت حكم الرومان وشرَّدهم الاضطهاد الدائم، فالتمسوا المهاربَ في كل فجّ.

وكان اليهود الحقدة، والوثنيون الجهلة أعواناً على التنكيل بالملَّة الجديدة والكيد لها.

ولكن المسيحية ـ برغم ما نزل بها ـ تشبَّثت بالبقاء، حتى أتيح لها على

---

(١) حرب الكنائس لأسد رستم، من منشورات الجامعة اللبنانية، والمؤلف نصراني كما هو معروف. (الناشر)

(٢) آريوس (٢٥٠م ـ ٣٣٦م) المشهور بالموحد، كان قسيساً في الإسكندرية في بداية القرن الرابع الميلادي، وعرف بنشاطه الديني، وكان اعتقاده أن المسيح عليه السلام مجرد بشر، وليس إلـهاً وابناً لله (تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً). انظر بسمة أحمد جستنية في كتابها (تحريف رسالة المسيح عليه السلام عبر التاريخ، أسبابه ونتائجه)، ص٣٠٢، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

نحوٍ نعتبره نحن المسلمين هزيمةً لعقيدة التوحيد، وبدايةً للونٍ جديد من التديُّن المعقَّد المُثْقَل بخرافات الوثنية الأولى!.

وامتزاج النصرانية بأفكارٍ أرضية بحتة بدأ من قديم، ولعل ذلك حدث لحاجة الديانة المضطهدة إلى متنفسٍ تتسرب منه، وترى ضياء الحياة.

قال (ترتليان) سنة ٢٢٠م:

«إننا بريئون من الذين ابتدعوا مسيحيةً رواقية، أو أفلاطونية، أو جدلية بعد المسيح والإنجيل. لسنا بحاجةٍ إلى شيء».

ولكن الذي حدث ـ للأسف ـ أنَّ هذه المبتدعات هي التي قُدِّر لها بعدُ أن تعيش وأن تسود.

وسنشرح وجهة نظرنا في هذا الموضوع عند الكلام عن اختلاف الفرق النصرانية في حقيقة عيسى ابن مريم.

ويقول الدكتور (توفيق الطويل): «يذهب صَفْوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذي أنزلته الدولة الرومانية بالمسيحية وأتباعها، إذ كان الدين الجديد يناصب العقائدَ الأخرى العداء، ولا يلين في حكمه عليها ورأيه في اتباعها، وقد بدا من تصرفات المسحيين واعترافاتهم أنهم على استعدادٍ لإبادة المذاهب كلها، وتحطيم الحضارة التي يعيشون في ظلها، متى تهيَّأت لهم سلطةٌ تمكنهم من بلوغ هذه الغاية.

فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها، ومحو دينٍ يهدِّد بإثارة الشقاق بين رعاياها، وينذر بتحطيم الحضارة التي يعتزُّ بها، ولو لم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حريةٍ دينية، فالمعروف أنَّ شهداء المسيحية قد راحوا ـ استجابةً ـ لنداء ضمائرهم ووحي إيمانهم، ولم يموتوا في سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية».

ويقول كذلك: «صرح المؤرخون من أمثال (بيري) أنَّ اضطهاد الأباطرة للمسيحيين قد أدت إليه رغبة هؤلاء الأباطرة في الانتصار لمبدأ التسامح العام».

وهذه الآراء تعني ـ في جلاء ـ أنَّ المسحيين الأولين لم يعتمدوا في دعايتهم على المناقشات والمحاورات التي لا تتطلّب أكثر من جوٍّ حُرٍّ لنشر المبدأ الصائب، مع أنَّ الأديان كلها لا تطلب أكثر من ذلك.

فهل يعود ذلك إلى أنَّ مبدأ التثليث لا يخضع لمناقشةٍ عقلية حرة؟ ربما.

ونحن ـ على أية حال ـ لا نطمئن إلى ضمائر الحكومات الوثنية، سواء كانت وثنيةً دينية تقوم على عبادة الأصنام؛ أو وثنيةً سياسية تقوم على تقديس نفرٍ من الحكام..

ونستنكر المظالم التي وقعت على المسيحيين، أو تقع على غيرهم أياً كانوا.

على أنَّ النصرانية حكمت فعلاً، وكان أسلوبها في الحكم مصدِّقاً لأسوأ الظنون، وملصقاً بالضمير الديني أقبح التهم.

كتب الدكتور (توفيق الطويل) عن بدء الاضطهاد في المسيحية، فقال:

«منذ اللحظة الأولى لظفر الكنيسة بسلطةٍ مدنية ـ في عهد قسطنطين ـ دخل مبدأ الكبح العام، واستمر عشرة قرون شداد، رَسَف فيها العقل والقلب في الأغلال وعانىٰ من قسوته اليهود والوثنيون كثيراً..».

قال: «وقد حاول قسطنطين أن يضع حداً لشرورهم، فأصدر قانوناً يقضي بإحراق كل يهودي يلقي على مَنْ اعتنق المسيحية حجراً، وعقاب كل مسيحي تهوَّد..

ثم عدل العقاب إلى مصادرة الأملاك، فإن تزوَّج يهوديٌّ بمسيحية أُعدِم».

قال: وقد أبان (نسطريوس) بطريق القسطنطينية عن مبدئه في الاضطهاد حين قال للإمبراطور: أعطني الدنيا وقد تطهَّرت من الملحدين، أمنحك نعيم الجنة المقيم.

ثم شرعت عقوبة الإعدام للملحدين، ونظَّم إفناؤهم.

ووضع (تيودسيوس) في أواخر القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستاً وستين مادة لمقاومة الهرطقة، وإلى جانبها بنودٌ أخرى لاستئصال الوثنية، ومناهضة الديانة اليهودية، والارتداد عن الدين، ومزاولة السحر، ونحو ذلك.

وكان هذا الدستور يقضي بإقصاء الوثنيين عن وظائف الدولة، وتحريم طقوسهم، وحظر عباداتهم، وهدم معابدهم، وتحطيم صورهم».

وفي أوائل القرن الخامس ظهر القديس (أوغسطين)، وهو رجلٌ عنيف المشاعر، بالغ القسوة، كانت حياتُه سَوْطَ عذابٍ على مخالفي المسيحية، ورافضي الدخول فيها، وقد أمدَّ حركة الاضطهاد بالوقود الذي زادها ضراماً، ورسمَ للأخلاف مُثلاً سيئةً للجماح والتوحش.

وقد وصفه الدكتور الطويل بأنه: «صاغَ مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية، وأقامه على أساس الكتاب المقدس، مستنداً إلى كلماتٍ فاهَ بها المسيح في مثلٍ من أمثاله «وأجبروهم على اعتناق دينكم».

وتمشياً مع هذا سلَّم (أوغسطين) بمعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات، ووضعَ للكنيسة دستوراً تلتزمه إزاء كل حركةٍ إلحادية.

ومن رأي (أوغسطين) ـ الذي استمده من عقيدة الخلاص، ومن نصوص العهد القديم ـ أنَّ عقاب الملحدين هو من دلالات الرفق بهم، وشواهد الرحمة، إذا كان هذا العقاب ينقذهم من العذاب الأبدي، الذي ينتظر المرتدين عن المسيحية.

«إنَّ الهرطقة توصف في الكتاب المقدس، وكأنها نوعٌ من الفسق والمروق وعبادة الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل، لأنها قتلٌ للأرواح، من أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب.

وإذا كان العهد الجديد قد خلا من رسولٍ استخدم القوة والعنف في نشر الدين، فقد كان هذا لأنَّ عصرهم قد خلا من وجود أميرٍ يعتنق المسيحية».

هكذا يقول (أوغسطين).

يعني أنَّ المسيحية لم تستعمل القوة من عهد عيسى عليه الصلاة والسلام، لأنها لم تتح لها، ولم تتيسَّر وسائلها، ولو أتيحت لها، ما تورَّعت عن قهر الأمم بها.

ويقول القديس الجبار مستدلاً على آرائه هذه من حوادث العهد القديم:

ألم يذبح (اليشع) بيده أنبياء (بعل)؟.

ألم يحطِّم (حزقيال) و(يوشع) ملك (بختنصر) بعد ارتداده؟.

ألم يحطِّم هؤلاء الأنبياء بالقوة عبادة الأوثان في أقاليمهم؟.

ألم يكونوا موضع ثناءٍ محمود من أجل ما انطووا عليه من تقوى؟.

قبل بعثة محمد ﷺ:

هذه فلسفة المسيحية قبل بعثة محمد ﷺ تجاه البشر أجمعين، يجب أن نكشف النقاب عنها، إذ لا معنى للمواربة في الحقائق أو الاستحياء من تقريرها مع قومٍ لا يبالون بقلب الحقائق، وتلمُّس العيوب للأبرياء.

فعقيدة الخلاص هي لبُّ المسيحية، وأساس فكرة التثليث، وعن عقيدة الخلاص صَدَر التفكير في الاضطهاد، إذ أخذ المسيحيون بنظريةٍ مؤداها: أنَّ الخلاص لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

وعندما روَّجوا للإيمان بها أذاعوا أنَّ الذين لا يدينون بصدق نظريتها تحيق بهم اللعنة الأبدية لا محالة.

فأفضى هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبىٰ الإذعان للكثلكة.

واعتبرت الهرطقة أعظم خطيئة، لا يقاس ما يبتلىٰ به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينتظرهم في الجحيم، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجباً مقدساً.

والاتصاف بالفضيلة لا ينهض عذراً للمروق.

فالطفل ـ على براءته وخلوّ ساحته من الخطايا ـ إذا مات من غير تعميد. أمضى بقية حياته الأخروية في جهنم (!).

والطبيعي ـ بعد هذا ـ أن يستهدف المتهمون بالمروق لأشد العذاب.

أجل، فالكنيسة التي تستبيح عذاب طفلٍ، وتتصوره عدالة، لا يُنتظَر منها أن تعامل جماهير الناس بمنطقٍ سليم.

وكذلك مضت المسيحية تشق طريقها في الحياة على ركامٍ من جثث الخصوم ورفات الضحايا يعلو مع الزمن.

كان الوثني يقول عن المسيحيين في القرن الأول: انظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضاً. فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول: هل عرفت الدنيا وحوشاً كهؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم في الدين!!؟؟.

أثر الاضطهاد في النصرانية نفسها:

كان ميلاد عيسى عليه الصلاة والسلام لغير أبٍ سبباً في اختلافٍ واسع الشقَّة بين من عاصروه ومن جاؤوا بعده، وقد جمحت الآراء في نعت عيسى وأمه عليهما السلام، من الضد إلى الضد.

فبينما يزعم اليهود أنَّ المسيح لقيط، وأنَّ أمَّه بغيٌّ أتت به لغير رشدة، يذهب النصارى إلى أنَّ عيسى إلـهٌ في صورة بشر، وأنَّ ميلاده الخارق ينفصل به عن غيره من الأناسي.

ولما نزل القرآن في أواخر القرن السابع لميلاد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام كان مبيِّناً في تخطئة الفريقين، وناسباً كليهما إلى الغلوّ القبيح، والشرود عن الحق، قال الله عزَّ وجلّ:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ

وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ [النساء: ١٧١].

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والواقع أنَّ المسيحية في العصور الأولى لم تظفر برعاةٍ يبسطون حمايتهم عليها، ولا دعاة مطمئنين يجمعون الناس في هدوءٍ على حقيقتها.

وقد كانت ولادة عيسى الخارقة الخارجة على السنن المعتاد مثاراً لانطلاق الأخيلة في ظلمات الاضطهاد النازل في كل مكان، أخيلة تضفي على عيسى عليه الصلاة والسلام هالاتٍ من المجد ما زالت تتضاعف حتى سلخته تماماً عن مصاف البشر!!.

ولكن أين تضعه هذه الأساطير المتحمسة؟.

إنَّ النبيين صلوات الله عليهم أجمعين من لدن آدم لم يدعوا إلا إلى ربٍّ واحد، لا شريك له، ولا ند ولا ضد.

والعهد القديم بين أيدي النصارىٰ شاهدٌ على ذلك.

فما تكون صلة عيسى عليه الصلاة والسلام بهذا الإلـه الواحد، إذا لم يكن عيسى بشراً؟!.

هذا ما حَيَّر الغالين في فهم حقيقة المسيح عليه السلام، النازعين إلى إشراب طبيعته معنى الألوهية..

وقد انقسموا فرقاً شتىٰ لحلِّ هذا اللغز المُعَمَّى، ولم يعودوا من خلافهم بطائل، لأنَّ الفرض إذا كان خطأً، فإنَّ الاستدلال عليه صعب، والدعوة إليه أصعب.

وتأليهُ عيسى فرَضٌ مُوغلٌ في الضلال، ولم يتحوَّل هذا الفرَض إلى مذهبٍ رسمي للكنيسة إلا في القرن الرابع للميلاد. على عهد الإمبراطور (قسطنطين)،

وهو حاكمٌ وثني، تَزْعُم التواريخ المسيحية أنه تنصَّر، وأصدر مرسوماً بإبطال عبادة الأوثان.

ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه المزاعم، ولا الموازنة بين رواياتها المتضاربة.

والكنسيون الجانحون إلى تأليه عيسى ـ الذين ساندتهم السلطات بعد ما أتيح للمسيحية أن تعتمد على سلطات ـ لهم آراءٌ غريبة في عيسى.

فهناك اليعاقبة[1] القائلون: «بأنَّ الطبيعة الإلـٰهية والبشرية امتزجتا في المسيح وصارتا فيه طبيعةً واحدة.

فكان عند التجسُّد ذا طبيعتين! أما بعده فصار ذا طبيعةٍ واحدة».

أما الملكانية[2] فيقولون: «إنَّ الابنَ مولـودٌ من الأب قبل الدهور غير مخلوق، وهو جوهره ونوره، والابن اتحد بالإنسان المأخوذ من مريم، فصار واحداً هو المسيح».

وفي القرن الخامس قرَّر مجمع أفسوس (٤٣م) «ألوهية المسيح وإنسانيته معاً، ولكنه أنكر وحدتهما في شخصيةٍ واحدة شاعرة بنفسها، ومن ثم انشطرت الوحدة إلى إثنينية».

ومن حقِّ كل امرىءٍ أن يسأل: هل كانت هذه الفروض القائمة على تأليه عيسى، والمضطربة في تحديد وضعه بالنسبة إلى الإلـٰه الكبير، هل كانت هذه الفروض التي انتصرت وشاعت هي الصورة الفريدة للتفكير المسيحي في العصور الأولى؟؟ والجواب: لا..!!

---

(١) نسبة إلى يعقوب البراذعي، الذي انتحل مذهب القائلين بأنَّ للمسيح طبيعة واحدة، وهي التقاء اللاهوت بالناسوت في المسيح، وتكونت من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والناسوت، وهو مذهب الأقباط في مصر. انظر تحريف رسالة المسيح، ص٣١٠. (الناشر)

(٢) مذهب من وافق القيصر في مجمع خلقدونية الرابع (٤٥١م) حيث قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد، وتذرعت بناسوته، فهو عندهم له طبيعتان لاهوتية وناسوتية. انظر المصدر السابق، ص٣١١. (الناشر)

فقد كان هناك كثيرٌ يشعرون من أعماق قلوبهم بأنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام لايعدو أن يكون بشراً، ميّزه الله ببعض الخصائص الجليلة، وأنَّ الألوهية أسمى مكاناً وأعزُّ شأناً من أن يشاركها في أوصافها القديمة المطلقة الخالدة أحدٌ من الخلق، ظهر في عصرٍ من العصور، ثم اختفى.

وقد كان هؤلاء النصارى الموحِّدون يفقهون دينهم على أصوله الصحيحة، إلا أنَّ تحوُّل المسيحية إلى دولة أيام قسطنطين، وما طرأ على سيرها في هذا التحول، جعل عقيدة التوحيد وأشياعها تتعرَّض ويتعرَّضون معها لما عُرف به الحكم الكنسي من فظاظةٍ وإرهاب.

في سنة ٣٣٦م قرر (آريوس) محاربة ما شاع في عصره من بدعة التثليث، وبَيّن أنَّ عيسى عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يكون مساوياً لله في جوهره وطبيعته، بل هو خَلْقٌ حادث، شأنه شأن سائر المخلوقات الخاضعة في وجودها وفنائها لإرادة الله الواحد القهار.

وانتشرت تعاليم (آريوس) وبدأ الناس يثوبون إليها.

ولكن الإمبراطور (قسطنطين) الذي لم يستأصل الوثنية من بلاده الواسعة، وتركها تعيش من بعده قرابة مئة عام حتى استأصلها (تيودوسيوس)، هذا الإمبراطور أمر بتشكيل مجمع (نيقية) الذي حكم بأنَّ المسيح يساوي الله في جوهره وطبيعته، ثم قرّر مطاردة آريوس وأتباعه.

وبدأت الكنائس الواهمة، والسلطات الحاكمة، تتضافر على محاربة الوحدانية الحقَّة، فأحرقت كتبها، وحرم اقتناؤها، وتعرَّض رجالها لما يتعرَّض له كلُّ خارجٍ على الدين والدولة موسومٍ بالإلحاد والمروق. . .

وقد اسْتَتَبَّ الأمر للكنيسة، وتفكَّك الموحدون كجماعةٍ لها شأنٌ وقوة، وانفردت الكثلكة بالسيطرة العامة في أقطار المسيحية الجديدة، المسيحية القائمة على التثليث وملء الكنائس بالتماثيل والبخور والتعاويذ.

حول مؤتمر (نيقية):

اجتمع في مدينة (نيقية) (٣٢٥م) من الأساقفة والبطاركة، وكانوا مختلفين جداً في آرائهم وعقائدهم.

فمنهم من كان يقول: «المسيح ومريم إلـٰهان من دون الله»!!.

ومنهم من يقول: «إنَّ المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار، توقَّدت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بإيقاد الثانية منها».

ومنهم من يقول: «لم تحبل مريم لتسعة أشهر، وإنما مرَّ نورٌ في بطن مريم كما يمرُّ الماء في الميزاب، لأنَّ كلمة الله دخلت من أذنها، وخرجت من فرجها لساعتها».

ومنهم من كان يقول: «بثلاثة آلهة: صالح، وطالح، وعدلٌ بينهما».

ومنهم من يقول: «ربُّنا وإلـٰهنا يسوع المسيح».

ومنهم من يقول: «إنَّ المسيح إنسانٌ خُلق من اللاهوت كواحدٍ منا في جوهره، وأنَّ ابتداء الابن من مريم، وأنه اصطفي ليكون مخلِّصاً للجوهر الإنساني، صحبته النعمة الإلـٰهية، فخُلق منها بالمحبة والمشيئة، فلذلك سمِّي ابن الله».

ويقولون: «إنَّ الله جوهرٌ واحد، وأقنوم واحد يسمُّونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس».

ومنهم من يقول: «إنَّ المسيح إلـٰهٌ حق، وإنسانٌ حق، بطبيعتين مختلفتين، ومشيئتين كذلك».

ومنهم من يقول: «إنه بطبيعةٍ واحدة ومشيئة واحدة».

إلى غير ذلك من الآراء والاعتقادات المختلفة المتناقضة.

وقد اجتمع هؤلاء عند (قسطنطين) وتناظروا واختلفوا.

وصار كلٌّ منهم يؤيد رأيه وعقيدته وينكر ما عداها.

واشتدَّ الخلاف والنزاع بينهم حتى لَعَن بعضهم بعضاً، وانسحب كثيرٌ منهم من المجمع، فلم يبقَ إلا (٣١٨) أسقفاً.

هـؤلاء هم الذين بقوا في المجلس، ووضعوا أساس العقيدة الجديدة للمسيحيين، التي يُلعن من خالفها ويُطرد من الكنيسة.

ووافق قسطنطين على ذلك، وأصدر أمره به.

أصل هذه العقيدة منقولٌ عن عقيدة الهنود القدماء في الشمس التي كانوا يعبدونها[١].

قال (مالفير) في كتابه المطبوع عام ١٨٩٥م وترجمه إلى العربية (نخلة بك شقوان) سنة ١٩١٣م. ما يلي:

«لقد ذكر في الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى اللغة الإنكليزية شارحةً عقيدة الهنود القدماء ما نصُّه:

نؤمن (بسافستري) أي الشمس، إلـهٌ واحد، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وبابنه الوحيد (آني) أي النار، نورٌ من نور، مولودٌ غير مخلوق، تجسَّد من (فايو) أي الروح في بطن (مايا) العذراء.

ونؤمن (بفايو) الروح الحي، المنبثق من الآب والابن، الذي هو مع الآب والابن، يسجد له ويمجد.

والثالوث القديم وهو (بسافستري) (الشمس) أي الآب السماوي، و(آني) (النار) أي الابن، وهو النار المنبثقة من الشمس، و(فايو) (نفخة الهواء) أي الروح، هو أساس المذاهب عند الشعوب الأريانية، أي الهنود القدماء».

ويلاحظ أنَّ المجامع المسكونية القديمة للنصارى قد انتهت إلى إقرار عقيدةٍ عامة للنصارى جميعاً، تنص على ما يلي:

---

(١) انظر محمد طاهر التنير: (العقائد الوثنية في الديانة النصرانية). (الناشر)

«نؤمن بإلـٰهٍ واحد، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، وبربٍّ واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نورٌ من نور، إلـٰهٌ حق، مولودٌ غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر؛ الذي من أجلنا نحن، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنَّس، وصُلب على عهد (بيلاطس البنطي)، وتألَّم وقُبر، وقام في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وسيأتي بمجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فناء لملكه، وبروح القدس، الرب المحيي المميت المنبثق من الآب، المتَّحد مع الآب والابن المسجود له. . . إلخ».

اضطهاد الموحدين في العالم المسيحي:

لكنَّ صوت الفطرة لا يَخْفُتُ مهما أُشيع حوله من إرهاب، وسُلِّط عليه من أخطار.

فبين الحين والحين يصرخ رجلٌ حرٌّ باستنكار التعدُّد في الألوهية، ويعلن ضيقَه بثالوث الآب والابن وروح القدس.

ونحن نقرر ـ آسفين ـ أنَّ الكنيسة تكون أسرع من البرق في إخفاتِ هذا الصوت وإخفاء معالمه.

ومصرع المصلح الإسباني (سرفتيوس) دليلٌ على صدق ما نقول، فإنَّ هذا الرجل ما إن جَهَر برأيه في خَطَل التثليث حتى اقتيد إلى السجن، ثم قُدِّم للمحاكمة، فقرر القضاء العادل إعدامه حرقاً سنة ١٥٥٣م!!.

وتبادل رجالُ الدين والدنيا التهاني عَقِبَ إحراقه!!. . .

واستعاد الموحِّدون نشاطهم في إيطالية، وألَّفوا طائفةً انشقت على الكنيسة، وعرفت (بالصوصنية)، وأظهر هؤلاء مبادئهم التي تتلخَّص في إنكار ألوهية المسيح، ونسبة الربوبية إلى الله وحده.

ومن البديهي أن تناصب الكنيسة هذه الحركة العداء، وأن تشنَّ عليها حرباً شعواء، مكررةً التهمة التي ترمي بها خصومها من القرن الأول تهمة الهرطقة.

مما اضطر معه هؤلاء الموحِّدون إلى الفرار من وطنهم إلى سويسرة، فكان حظُّهم هناك أسوأ، إذ هاجمتهم الكنيسة البروتستانتية، ففرُّوا من وجهها إلى بولندة وترنسلفانية، وهناك أذاعوا عقيدتهم القائمة على مبدأ التوحيد.

قال الدكتور الطويل:

«تحت تأثير الروح الصوصني أعلن (كاستليون السافوي) مبدأ التسامح في رسالةٍ شَهَّر فيها بتعصُّب (كلفن) وحقده، وندَّد بموقفه من إحراق (سرفتيوس) والقضاء والقدر. وأعلن أنَّ الدين إذا صاحبَه الاضطهاد كان لعنة».

والحقُّ أنَّ الحرية العقلية تلازم دائماً عقيدة التوحيد.

فإنَّ الرجل الذي يبني يقينه على الفكر الصائب، لا يبالي بأية مناقشة حرة، ويرى أنَّ سدادَ المنطق في كلِّ شيءٍ عونٌ له على تدعيم مبدئه وإظهار حقه.

أما الرجل الذي يشعر بالريبة والغموض في أساس عقيدته، فهو يعزلها عن العقل أولاً، ثم يجتهد أن يهوِّن من قيمة العقل ومنطقه في سائر نواحي الحياة، فإذا حدثت مجادلةٌ بينه وبين مخالفٍ له في مذهبه، اعتمد في الغلبة على السنان لا على البرهان.

وَدَعْوَىٰ القَوِيِّ كَدَعْوَىٰ السِّبَاعِ مِنَ النَّابِ وَالظُّفْرِ بُرْهَانُهَا

ولئن كان الكاثوليك قد نكلوا بالعلماء والأحرار والمفكرين، أفتظنُّ أنَّ البروتستانت كانوا أهدى منهم سبيلاً؟.

إنَّ (لوثر) نفسه كان يسمِّي (أرسطو) الخنزير الدنس الكذاب!.

وقال عن (كوبر نيكوس) ـ وهو أول رائد عرفه علم الفلك الحديث ـ «إنه منجِّمٌ مأفون مصابٌ بمسّ»!!.

ولم يستقر الموحدون (الصوصنيون) في بولندة طويلاً، فقد طاردتهم الكنيسة، ففرُّوا إلى ألمانية وهولاندة، حاملين معهم عقيدتهم المضطهدة، ومبشِّرين كذلك بالحرية العقلية والتسامح الديني.

بَيْد أنَّ أصابع الكنيسة ما زالت تَندسُّ وراءهم، وتتعقَّب أشياعهم، حتى سحقتهم سحقاً.

هذه سطورٌ قليلة من صفحاتٍ طويلة لتاريخ الكنيسة التي دار بينها وبين الإسلام قتالٌ تراجعت بعده عن مصر والشام وغيرها...

إنَّ الإسلام ينهض على أساسٍ فَذّ، هو توحيد الله..

فهل رأيتَ في تاريخ الكنيسة أنَّ هذا الأساس مُنح حقَّ البقاء يوماً، أو اعترف بأصحابه كمؤمنين مخلصين؟؟.. لقد حُرِّقوا وأُبيدوا!!.

وسَنَسْرد الكثير من هذه المآسي المخزية لمرتكبيها إلى آخر الدهر.

ولنسأل كلَّ منصف، هل صودر مبدأ التثليث في ظل الدولة الإسلامية الموحِّدة؟ أم بقيت كنائسه وأشياعه تتكاثر إلى اليوم في قلب الإسلام وفي أرجاء وطنه الكبير؟؟.

من نتائج الاستبداد:

إذا ذابت حريةُ الفرد في سلطان الحكم المطلق، وشعر جمهور الأمة بالانزواء والانكماش أمام إرادةٍ واحدة مكَّنتها المصادفات من السيطرة والامتداد، فمن العبث أن تتَّجه عناية المصلحين إلى أفرادٍ فقدوا ثقتهم، وأعطوا قيادهم لغيرهم، بل يجب حسم الأمر أولاً مع صاحب السلطة المطلقة، فإنَّ بقاءه في وضعه العاتي يتنافىٰ مع كل إصلاح.

.والعالم في عصوره الأولى لم يَسْلَم، بل لم يخلُ من أولئك المستبدِّين الجبارين، وقد كانت أقطار المسيحية كغيرها أو أشد تعرُّضاً لهذا اللون من الطغيان.

ونلاحظ أنَّ حرب الثلاثين عاماً التي اشتعلت في أوروبة خلال القرن السابع عشر للميلاد قد انتهت بصلحٍ عجيب، إذ منحت كلَّ أمير الحقَّ في اختيار الدين الذي يفرضه على شعبه!!.

وهذا المسلك النابي يدلُّ على قيمة الحرية الفردية في أوروبة قديماً.

والواقع أنَّ هذا المسك يَطَّرِد مع الفهم القديم لمكانة الإنسان في البلاد التي يسودها الاضطهاد والاستبداد، وتاريخُ الكنيسة يعرف هذه الشؤون حقَّ المعرفة.

وقد كان الرسول الكريم محمد ﷺ يدرك الأحوال العامة فارس والروم، فلم يرسل دعاته إلى الشعوب المضطهدة المأكولة، فأنَّىٰ لها سماعُ هديه؟ والاقتناع بوحيه؟ وهي مغلوبةٌ على أمرها، مستسلمةٌ لآكليها!.

فأرسل دعاته إلى الرؤساء المتكبرين أولاً.

روى مسلم عن أنس قال: «كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي - وليس بالنجاشي الذي صلَّى عليه - وإلى كلِّ جبارٍ عنيد يدعوهم إلى الله عزَّ وجلّ».

ولو أرسل دعاةً إلى الشعوب المحكومة نفسها، أفترى أصحاب الحكم المطلق يَدَعونهم لحظةً لإبلاغ رسالتهم؟.

إنَّ السلطة الضاغطة على الشعوب تمنعها أن يصلها من الخارج نداء، وتقتل أي محاولة لذلك..

ولم تُجْدِ هذه الرسائل التي بعث بها النبيُّ الجديد ﷺ إلى حكام عصره.

وهي - في حقيقتها - لا تعدو أن تكون إعذاراً إلى الله بإبلاغ الحق لكل امرىءٍ عَظُمَ شأنه أم هان.

كما أنه إبانةٌ لمنهج الدين الجديد في إرشاد الناس إلى أصوله.

إنَّ موسى الفريد الأعزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يُتصوَّر في حقه أن يُكرِه فرعون على الإيمان بالله .

ومحمد ﷺ المعلم في قلب الصحراء المنقطعة، لا يتصور في حقه كذلك أن يكره كسرى وقيصر على الدخول في دين .

وإبلاغ الدعوة لا يتطلّب أكثر من عرض حقائقها على صفحة قرطاسٍ، ثم ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف : ٢٩].

فأما كسرى فقد تناول الخطاب ثم مزَّقه، وأمر بإرسال اثنين لاستحضار المتجرئ على دعوته، كيما ينزل به ما يَستحق من عقاب؟ .

وأما قيصر فقد دار بينه وبين حاشيته نقاشٌ طوىٰ الكتاب بعده من غير ردٍّ، ومشت الأمور على منطقها المألوف في تاريخ الكنيسة الرومانية من سبعة قرون، فأعدَّت الجيوش لمقاومة الديانة الناشئة بالقوة، ومنع تعاليمها أن تعبر حدود الدولة، ولا شك أنَّ المسلمين لو كانوا رعيةً رومانية من نشأتهم الأولى لأُبيدوا وطُمِسَت عقيدتهم، كما حدث لأسلافهم الموحِّدين الخاضعين لسلطان الكنيسة .

ولكنَّ القدر في هذه المرة دَرَّع الموحدين بالحديد ذي البأس الشديد .

فلما فغرت الكنيسة فمها، وأطبقته لتعضَّ الموحدين تهشَّمت أسنانها، وانكسر عدوانها . . !!

وكان ذلك بعد سنين من هزيمة المسلمين في معركة (مؤتة) ومقتل دعاتهم عند حدود الشام في عهد النبي ﷺ نفسه .

* * *

وأبشع نتائج الاستبداد تحدث من تواصل أحزانه وتتابع عدوانه، وإجلابه بخيلِه ورَجِلِه على المستضعفين، يقلق آمنَهم، ويروِّع ساكنهم .

وإذا وضع المستبدون سياسةً بعيدة المدى لتغيير عقائد، ومحو أجيال،

وقست قلوبهم، فلم يبالوا بما يعترض سياستهم من صِعَابٍ ومغارم، فإنهم واصلون ـ بلا ريب ـ إلى غايتهم الآثمة على أنقاضٍ من الأشلاء والخرائب.

قال الدكتور الطويل: «إنَّ الاضطهاد نجح في مجال الاعتقاد الديني، فأخْفَتَ كلَّ صوتٍ ارتفع بالمقاومة، وأثارت القسوة والصرامة فزع العامة، وملأت أفئدتهم هلعاً.

فارتدَّ عن دينه أصلبُ الناس قناةً، أو تفانوا في سبيل عقائدهم، فذهبوا شهداء، أو ولّوا الأدبار فراراً بدينهم، فأخلوا الطريق للظالمين.

وهذه الحالات جميعاً تعتبر نصراً للاضطهاد، إذ تنبت الأجيال الجديدة في البلد المضطهد، وقد طبعها الاستبداد على ما يريد فرضَه من مذاهب وآراء».

وقد باد المسلمون في أوروبة المسيحية تحت أطباق هذه الرَّحىٰ المجنونة، إذ لم يكن الاضطهاد النازل بهم أزمةً تعرض ثم تزول، أو غيمةً تظلم ثم تنجلي، بل كان مجزرةً نضَّاخة بالدم، مُرْعِدةً بالردى، سيقَت إليها النساء والرجال والأولاد والشيوخ، فإما الاستشهاد أو الارتداد، ومن نجا بجلده ترك من بعده بلداً حُكِم عليه أن يتنصَّر إلى الأبد!!.

حدث ذلك لمسلمي إسبانية إبان القرون الوسطىٰ، إذ استأصلتهم عن آخرهم محاكمُ التفتيش، وحدث مثل ذلك لمسلمي البلقان في هذا العصر.

فإنَّ المذابح التي أوقعها القائد اليوغسلافي (مخائيلوفتش) بألوف المسلمين هنالك قد تطاير إلينا رشاشها القاني.

وإن كانت (أوروبة) المتحضِّرة! قد تكتَّمت أنباءها ليطويها النسيان، ثم نغْفو ونصْحو فإذا أنقاض الإسلام في البلقان قد زالت أو كادت.

وهذه النزعة المجرمة إلى إفناء الخصوم، ومحق الآراء المخالفة، توارثها سَدَنةُ الكنائس المسيحية من أول يومٍ تمكَّن فيه رجالها من الاستيلاء على السلطة التنفيذية.

وقد استطاع الكاثوليك قبل ظهور الإسلام أن يوطِّدوا سلطانهم المطلق

عدة أجيال متعاقبة، قضوا فيها على مذهب الموحِّدين، فلم يعد له كيانٌ متماسك، وطاردوا اليهودية، فهام أبناؤها على وجوههم في مشارق الأرض ومغاربها، وأبادوا الوثنية المحضة، ودمَّروا معابدها، ثم استدار الكاثوليك على مخالفيهم في المذهب يريدون إفناءهم فبطشوا بأقباط مصر.

وقد أحسَّ الأحياء قاطبةً بضرورة تجريد الكنيسة من سلطتها التي أساءت بها إلى العالم أبلغ إساءة.

وذنب الإسلام أنه فعل بالكنيسة المسيحية ما فعله المسيحيون أنفسهم بها بعد بضعة قرون . . . !!

حرمان المسيحيين من الحكم:

ماذا صنع الإسلام بالمسيحية عندما اصطدم بها في ميدان القتال؟ .

إنه لم يحاربها كدين، بل حاربها كدولة، وهذا ما فعله المسيحيون أنفسهم.

إنه لم يغلق أبواب الكنيسة، ولم يَحرُم أحداً من الدخول فيها، أو الخروج منها، بل جرَّد الكنيسة من السلطة التي أوغرت صدورَ البشر عليها، وجعلتها تتنكَّر لأصولها، وتخرج عن شرعتها.

ولم يشرع الإسلام ـ كما شرعت الكنيسة ـ قوانين لاستئصال الوثنية بالسيف، وتنصير اليهود بالعنف، وإبادة الخصوم في الرأي ـ ولو كانوا مسيحيين ـ كما فعلت الكنائس المتخاصمة عندما أعلن بعضها على البعض حرب فناءٍ أو ردة، بل أقرَّ الإسلامُ حرية العقل والضمير، فكان المسيحيون الذين حكمهم الكاثوليك أول من رحَّب بزوال الكنيسة، التي طالما ذاقوا بطشها وعانوا ويلها، وقد رحَّبت مصر والشام بزوال الحكم الكاثوليكي الذي فرضته دولة الروم الشرقية على هذه البلاد.

* * *

فأما مصر فقد أراد (هرقل) أن يفتنها عن مذهبها المسيحي، وأن يلزمها تنفيذ قرار مجمع (خلقدونية)، فأبىٰ الأقباط ترك معتقدهم، فصبَّ عليهم الرومان سَوْطَ عذاب، وتحوَّلت الكنائس والأديرة القبطية إلى سجونٍ تحفل بألوان الأذى،

وجيء بأخي الأسقف الأكبر (بنيامين) فوُضع على منصةٍ أُوقدت تحتها المشاعل، وسُلِّطت نارها على بدنه، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض!، ولما لم يتزحزح عن عقيدته، خُلِعَت أسنانه، ثم قاده الجلاَّدون إلى الشاطئ، وعرضوا عليه أن يترك دينه، ويخضع لقرار المجمع، فأبىٰ، فرموا به في البحر، وابتلعته أمواجُ اليم...

فلما طرد المسلمون الروم من مصر، تنفَّس الأقباط الصّعداء، ولم يكن عجباً أن يعاونوا العرب الفاتحين على الخلاص من سطوة حكمٍ غاشم، وأن يتطلَّعوا إلى المسلمين كمنقذين لهم من هذا العذاب الأليم.

وما حَدَث في مصر، حدث في الشام، فإنَّ المسيحيين في هذا القطر الخِصْب أصابهم من استنزاف الرومان لخيراتهم، واضطهادهم لمذهبهم، ما جعلهم ناقمين على الدولة، متمنين من أعماق قلوبهم أن يسقط لواؤها.

ولم يستطع المؤلف المفتري على الإسلام أن يغضَّ من هذه الحقيقة، فهو يقول في ص١٨: «لا نغالي إذا قلنا: إنَّ توطيد السيادة العربية مكان السيادة البيزنطية أدخل على نفوس مسيحيي الشرق بادرةً من الأمل».

فقد كتب (ميخائيل) السوري بطريرك أنطاكية يقول: «إنَّ ربَّ الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل، لينقذنا بوساطتهم من أيدي الرومانيين.

وإذا تكبَّدنا بعض الخسائر، لأنَّ الكنائس التي انتزعت منا، وأعطيت لأنصار مجمع (خلقدونية) بقيت لهم، إلا أننا قد أصابنا خيرٌ ليس بالقليل، بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا. هذا من جهة، ومن جهةٍ أخرى سادت الطمأنينة بيننا».

وهذا البطريرك يعقوبي، وهو هنا يستبشر بعهد الحرية الدينية التي صحبت دخول المسلمين، ويأسىٰ لما أصاب مذهبه من خسائر على عهد الروم، ولا ينسى الكنائس التي انتزعت منهم، وأُعطيت لخصومهم في هذا العهد المشؤوم.

والمسلمون لم يفكروا في نبش هذا الماضي، ولم يحاولوا التدخل فيما بين المسيحيين من خلاف، إلا أنهم احترموا رغبة المسيحيين في ألا يجاورهم ببيت المقدس يهودي. ولم يروا في هذا ظلماً لليهود.

وحسب اليهود في ظلال الحكم الجديد أن أَمِنوا على عقيدتهم ما بقوا مسالمين لغيرهم، وكان آخر ما نزل بهم قبل الحكم الإسلامي في الشام الأمر الذي أصدره الإمبراطور هرقل: «بتعميد جميع اليهود والسامريين الذين يقطنون مختلف الولايات الخاضعة له»، ومثل هذا الأمر مألوف في تاريخ الكنيسة قديماً.

وقد انقطع بزوال حكمها في الشرق، وبقي في أوروبة حتى هدم المسيحيون بأنفسهم الحكم الكنسي في العصر الأخير.

* * *

قام الحكم الإسلامي على تسامحٍ واسع النطاق، وسنتابع سَيْر الفتوح لنرى مصداق هذا من وقائع التاريخ.

وقبل هذه النقلة نريد أن نقرِّر حقيقةً أخرى.

وهي أنَّ هذا التسامح في منح الحرية الدينية لم يظفر به الغرب إلا بعد قرونٍ متطاولة، وتضحيات فادحة، ولو قُدِّر للمسيحيين في الغرب أن يتخلَّصوا من حكم الكنيسة، كما تخلَّص إخوانهم في الشرق لنجوا من مآسٍ جمَّة، ولكان تاريخ أوروبة أنظف مما هو عليه الآن.

على أنَّ التسامح الذي ساد دول أوروبة، بدأ ناقصاً، وانتهى مشوَّهاً، وأشرفت عليه نوايا مدخولة، ولكنه ـ على كل حال ـ أقلُّ شراً من حكم الكنيسة المباشر.

ولم تستطع دول الغرب الخلاص من أغلال الكهنوت، والفرار من مآزقه الكريهة إلا بعد مراحل متطاولة، كان النزاع فيها حاداً بين شعوبٍ تنشد الانطلاق، وكهَّانٍ مردوا على السيطرة والتزمُّت.

وللمؤرخ المسلم أن يلحظ تبرُّمَ المسيحيين بعقيدة التوحيد، حتى في العصور التي بدأت تحارب التعصب.

ففي إنكلترة ـ مثلاً ـ حاول أتباع الكنيسة المسيحية سنة ١٦٤٨م استصدار قرارٍ من البرلمان بإعدام كل من يشير برأيٍ يتعارض مع عقيدة التثليث والتجسيد!

وفي سنة ١٦٨٨م أصدر البرلمان الإنكليزي قانون الحقوق، وهو ينصُّ على جعل البروتستانتية ديناً رسمياً لإنكلترة، ويحرم على الكاثوليك القيام بعبادتهم في البلاد الإنكليزية...!!!

وفي السنة نفسها صدر قانون التسامح، وهو يعطي الحرية الدينية بعض الطوائف، وينصُّ على حرمان الكاثوليك والموحِّدين هذه الحرية التي استمتع غيرهم بنَيْلها...!!!

وقد ظفر الموحدون بعد فترةٍ طويلة بحرية العبادة.

ويوجد إلى عصرنا هذا جمهورٌ كبير من الأوروبيين يعتقدون أنَّ عيسى عليه السلام لا يعدو أن يكون بشراً نبيلاً ومصلحاً كريماً، وأنَّ ألوهيته المزعومة وهمٌ مُغْرِقٌ في الاستحالة، غير أنَّ هؤلاء الموحدين أوزاعٌ لا تضمُّهم روابط قوية، ولن يستطيعوا في وسط العالم المسيحي السَّادِر أن يتحوَّلوا إلى قوةٍ هادية موجهة.

وقد قرأنا الكلمات التي فاهَ بها فريقٌ من رجالات ألمانية قبل وفاتهم، فرأيناها تنضح بهذه الحقيقة.

لكنَّ القدر الساهر على إصلاح الأرض، وفي سبيل هذا الإصلاح يدفع الناسَ بعضَهم ببعض، لم يدعْ هذا المذهب المضطهَد يموت، ولئن ظلَّ مطارداً في أرجاء الممالك المسيحية قروناً بعد قرون، فقد شاء الله أن تجدِّد حياتَه الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ، وأن يحوطه بسياجٍ متين تتكسر حوله أمواج العدوان، وهكذا عاد مبدأ التوحيد الذي نزل به آدم من السماء إلى الأرض، وحمل ألويتَه، نوحٌ، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ عليهم الصلاة والسلام. عادَ هذا المبدأ إلى حياته ونمائه بعدما أوشك على الذبول والتلاشي تحت وطأة المسيحية

الرومانية الشَّاردة عن أصولها الصحيحة.

أما هذه المسيحية المثلِّثة المتجسِّدة المتعصِّبة فقد لقيت مصيرَها في أوروبة نفسها، لقيته منذ بدأت النزعة إلى تحكيم العقل تسيطر عل التفكير الغربي، فجرَّدت المسيحية من سلطتها التنفيذية كما يُجرَّد المعتدي من سلاحه، وظفرت الجماهير المروَّعة بالأمان الذي ظفر به إخوانهم من قبل، يومَ حَرَّر الإسلام مِصْرَ والشام وغيرها من نَيْر الكنيسة وحُمْق الكهَّان..!!!

* * *

أسلوب التوسع والمعاملة في تاريخ الديانتين

تلك نبذةٌ يسيرة عن الأسلوب الذي عاشت به المسيحية بعد وفاة رسولها، وهو أسلوب لا يجرؤ منصف على تبريره أو تبرئة رجاله، بل إن منازع العدوان والجبروت تصبغه وتزري به، وتتنادى بضرورة وقاية العالم أجمع من فتكاته وغدراته. . . !!

وقد عُدَّ هذا البغي من خصائص التاريخ الكنسي، حتى إن شوقي اعتذر به وهو يتحدَّث عن تسخير الفلاحين في تشييد الأهرام، كأن القساوسة فريق من الفراعنة قال[1]:

ورُبَّـةَ بِيْعَـةٍ عَـزَّتْ، وطـالـت بنـاهـا النَّـاسُ أمـسُ مسخَّـرينـا
مشيـدةٍ لشـافـي العُمـي (عيسـى) وكـم سَمَـل القسـوسُ بهـا عيـونـا!

فهل من عَجَب أن يتعهد القدر الأعلى هذه الدنيا البائسة، فيبعث إليها من

(١) الشوقيات: ١/ ٢٦٩، والبيعة بكسر الباء، معبد النصارى؛ ولشوقي أيضاً أبيات في الاستعمار يقول فيها:

(عيسـى) سـبيلُك رحمـةٌ ومحبّـةٌ في العـالميـن، وعـصـمـةٌ وسـلامُ
ما كنـتَ سـفّاكَ الدِّمـاءِ، ولا امـرأً هـانَ الـضِّعـافُ عـليـه والأيتـام
يـا حامـلَ الآلامِ عَـنْ هــذا الـورى كثـرتْ علـينـا باسـمِـكَ الآلامُ
واليـومَ يهتـفُ بالصليـبِ عصـائـبٌ هــم للإلـٰـهِ وروحِــه ظــلَّامُ
خلطـوا صليبك والخناجـرَ والمُدَى كــلٌّ أداةٌ لــلأذى وحِـمَــامُ

(الناشر)

يأسو جراحاتها، ويستنقذها من إسار الحكام والكهان الذين تواطئوا على إهانتها وإساءتها؟؟.

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

إن اليهود والنصارى كذَّبوا هذا النبي، كما كذَّبه الوثنيون.

بل إن أصحاب الكتابين السابقين انضموا إلى عَبَدة الأصنام في مصاولة الدين الجديد، ومحاولة القضاء عليه(١).

ونفذت مشيئة الله فانتصرت قوى الخير انتصاراً قطع دابر المعتدين وأيأسهم من معاودة الكيد والمكر بالبلاد والعباد.

ولم تخل الحياة ولن تخلو من أبرار يتَّبعون الحق حين يعرفونه، ويستمسكون به حين يذادون عنه.

إنَّ الَّذي خَلَقَ الحَقيْقَةَ عَلْقَماً   لَمْ يُخلِ مِنْ أَهْلِ الحَقِيقَةِ جِيلاً

وقد انشرحت صدور كثيرة للإسلام، وثاب إلى مبادئه الراشدة من انخدعوا قبلاً بعبادة الأصنام، كما أن جماهير غفيرة من اليهود والنصارى رأت في هذا الدين الكريم الأصول الصحيحة لليهودية والنصرانية، فآمنت بمحمدٍ وعيسى وموسى جميعاً، واعتنقوا الإسلام عن رغبة واعتزاز.

إلا أن هناك طوائف أخرى من الوثنيين واليهود والنصارى بقيت على ما ورثت، وحرصت على تجريح الإسلام ونبيّه، ولم يزدها تطاول الأيام إلا افتراءً على الرسالة العظمى وصاحبها الأمين.

وهم - بعد ألف من السنين وأربعمئة - لا يزالون يتحدثون عن رواية دامية صنعها خيال رجل لا صلة له بالسماء!!.

---

(١) انظر (فقه السيرة) للمؤلف، ص٢٣٩، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

ما أشبه أولئك المتخلفين بقطيع من العميان، كلّما طلع عليهم النهار، واستفاضت على الناس أشعته بقوا في ليلهم الدائم لا يحسون جديداً، ولا يدركون نقصاناً ولا مزيداً. . .

أفترى حجاب أولئك المحرومين قادحاً في مطلع الشمس، أو كاسفاً من بريقها؟؟.

إن الأدلة التي تَثْبُتُ بها نبوة محمد ﷺ أرسخ ـ في عصرنا هذا ـ من الأدلة التي تثبت نبوة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

ومن الإزراء بالعقل أن نزعم القرآن كتاباً بشرياً، وأن نطالبَ بعدئذٍ بعدِّ التوراة والإنجيل تراثاً سماوياً محضاً. . !!.

* * *

والمؤلف الذي تناول قصة الفتوح على أنها غارة شعواء، وتعرَّض لأصحاب محمد ﷺ مِنْ ساسةٍ وقادة على أنهم رجال ذوو مطامع وأهواء، ومن طراز (الإسكندر) و(نابليون) وغيرهما، هذا المؤلف المسكين، ليس إلا مثلاً للتعصب الذميم، تعصب العميان ضد الضياء، تعصب الكهان المشدوهين ضد الديانة التي أسقطت وساطتهم، ونسخت خرافتهم.

وسنذكر خلطه في الكلام عن الفتوح الأولى معقبين عليه بالحق المبين.

قال في ص٢١: «الواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة، لأن الحروب التي وقعت بينهم أنهكتهم، ثم هم لا يوجسون خيفةً من القبائل التي تسكن الفيافي العربية المترامية الأطراف، نقول هذا لنقيم البرهان على أن الفتوحات العربية لم ترتكز على أغراض دفاعية».

صحيح أن الفرس والروم أتعبتهم الحروب التي نشبت بينهم آماداً طويلة، ولكن لماذا كانت تشتعل هذه الحروب بين الفريقين؟.

ألم يثرها تنازعهما على سيادة العالم، والانفراد في أقطاره الفسيحة بالسطوة والجاه؟.

كانت (مصر) مزرعةً لرومة يكدح أهلها في واديهم الأغبرُ ليفيض من عرقهم سيل الضرائب الفادحة التي تذهب إلى أشراف الرومان، فإذا حدث أن احتل الفرس البلاد بدل الروم، لم يتغيَّر إلا المصب، وبقي المنبع المستنزف على حاله الأولى.

فهل إعياء اللصوص عقب معارك قاسية بين عصاباتهم يحبس رجال الأمن عن أداء واجبهم في قطع دابر الجميع؟.

وإذا أغضينا الطرف عن هذا الواقع المنكر، ونظرنا إلى الجانب الديني في هذا النزاع الطاحن، فماذا نجد؟.

نجد الكثلكة في بلاد الروم تحارب المذاهب كلها ماعداها، وقد استطاع أسلاف الإمبراطور (هرقل) أن يقضوا على مذهب التوحيد في أرجاء الإمبراطورية. فلما انقسم المثلثون على أنفسهم في فهم الطبيعة الجديدة لديانتهم، أبى الإمبراطور أن يعطي حق الحياة والأمان للآراء المخالفة وذويها.

فهل كان يعقل أن يعطى الرومان حق البقاء والامتداد لدين يقوم على التوحيد، وهم الذين قضوا بالقوة على مبدأ التوحيد من قبل؟.

أو كانت صدورهم تتَّسع لمساجد يذكر فيها اسم الله، وهم الذين انتزعوا الكنائس من مسيحيين أمثالهم، لأنهم خالفوهم في تقرير العلاقة بين أطراف الثالوث؟.

وليس لمسيحي في الأرض كلام عن الحرب التي دارت بين المسلمين والوثنية المجوسية في فارس، فإن المسلمين أذنوا للمجوس بالبقاء على دينهم، ولم يحاولوا استكراههم على إيمان، أفهذا ما صنعه المسيحيون الظافرون بالوثنية وأهلها؟ كلا!.

لقد أعلنوا عليهم حرب فناء في أرجاء ملكهم حتى استأصلوهم، فلما دارت رحى الحرب بينهم وبين الفرس عجزوا ـ بعد مئات السنين ـ عن النتيجة الموفقة الرائعة التي وصلت إليها جيوش الإسلام في بضع سنين.

بل سنرى في سير الفتح أن المسيحيين قد انضموا إلى الوثنيين في مقاتلة الإسلام والنيل منه، وإنه لأمرٌ عُجاب أن يتحالف المشركون وأتباع الإنجيل على مقاتلة الدين الذي يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار.

ولكنه الحقد الأعمى، ولكنه نسيان المسيحية لأصلها السماوي، ونزعتها الطارئة إلى جعل الألوهية شركة، ممّا سوّل لأشياعها أن يشبعوا ضغينتهم على مبدأ التوحيد، ولو حالفوا الشيطان في سبيل القضاء عليه، ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره.

ولعل من بقايا هذه السخيمة المتّقدة أن يجيء هذا المؤلف المسيحي فيردّ انسياب الجيوش الفاتحة إلى أسباب اقتصادية قائلاً: «إنَّ الحاجة تبرر كل عمل عدائي، وإن العرب كثيراً ما قاموا بأعمال عدوانية بحثاً عن القوت» ص٢٢.

ثم ينقل زعماً لباحث في علم الجغرافية يقول: «إن مناخ الجزيرة أصيب بجفاف في القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة منها ومهاجمة البلدان التي تتاخمها».

ونحن لا نقف عند هذا اللغو، ولكن قبل أن ندوسه وننتهي من سخفه نحب أن ننقل حواراً جليلاً دار بين نفرٍ من فرسان المسلمين وبين قوّاد كسرى وحاشيته، ليرى أولو الألباب مبلغ فقه الصحابة الفاتحين لدينهم، ومعرفتهم العميقة بأحوال الشعوب التي قدموا عليها، وأنواع الحكم التي قرروا إسقاطها، وليروا كذلك بأي ضمائر نقية وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم بها؟.

لما نزل (رستم) قائد الفرس بالقادسية أرسل إلى سعد بن أبي وقاص: ابعث لنا رجلاً نكلمه، فأرسل إليهم ربعيَّ بن عامر، فجاءه وقد جلس على سرير من ذهب، وبسط ووسائد منسوجة بالذهب، فأقبل ربعي على فرسه، وسيفه في خرقة، ورمحه مشدود بعصب، فلمّا انتهى إلى البساط وطئه بفرسه، ثم نزل، وربطها بوسادتين شقهما وجعل الحبل فيهما، ثم أخذ عباءة بعيره فاشتملها، فأشاروا عليه بوضع سلاحه، فقال: لو أتيتكم فعلت ذلك بأمركم، وإنما دعوتموني..

ثم أقبل يتوكأ على رمحه، ويقارب خطوه، حتى أفسد ما مرَّ عليه من البُسط، ثم دنا من (رستم) وجلس على الأرض؛ وركز رمحه على البساط، وقال:

إنا لا نقعد على زينتكم.

فقال له رستم: ما جاء بكم؟.

قال: «اللهُ جاء بنا! وهو بعثنا، لنخرج من شاء من عبادةِ العباد إلى عبادة الله.. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.. ومن جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام.. فأرسل رسوله ﷺ بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر..».

فقال رستم: قد سمعنا قولكم، فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟

فقال: «نعم، وإن مما سنَّ لنا رسول الله ﷺ أن لا نمكِّن الأعداء أكثر من ثلاث! فنحن مترددون عنكم ثلاثاً.. فانظر في أمرك، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزية فنقبل ونكفُّ عنك، وإن احتجت إلينا نصرناك، أو المنابذة في اليوم الرابع، إلا أن تبدأ بنا، وأنا كفيل بذلك عن أصحابي».

فقال رستم: أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم».

ثم انصرف، فخلا رستم بأصحابه وقال: أرأيتم كلاماً قطّ مثل كلام هذا، فأروه الاستخفاف بشأنه، فقال رستم: ويلكم، إنما أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة، والعرب تستخف باللباس، وتصون الأحساب.

فلما كان اليوم الثاني من نزول رستم، أرسل إلى سعد أن ابعث إلينا هذا الرجل! فأرسل إليه حذيفة بن محصن الغطفاني! فلم يختلف عن ربعي في العمل والإجابة.

فقال له رستم: ما قعد بالأول عنا؟.

قال: «أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي».

فقال له رستم: والمواعدة إلى متى؟.

قال: إلى ثلاثٍ من أمس!!.

وفي اليوم الثالث. أرسل إلى سعد: أن ابعث إلينا رجلاً.

فأرسل إليه المغيرة بن شعبة فتوجَّه إليه، ولما كان بحضرته جلس معه على سريره، فأقبلت إليه الأعوان يجذبونه، فقال لهم:

قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوماً أسفه منكم، إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً! ـ إلا أن يكون محارباً لصاحبه ـ فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى..

وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب!! وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم.

وإني لم آتكم، ولكنكم دعوتموني، اليوم علمتُ أنكم مغلوبين، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول.

فقالت السوقة: صدق ـ والله ـ العربيُّ!.

وقالت الدهاقين (الزعماء): لقد رمى بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه، قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصغِّرون أمر هذه الأمة.

ثم تكلم رستم بكلام عظَّم فيه شأن الفرس، وصغَّر شأن العرب، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش.

فقال المغيرة: أما الذي وصفتنا به من سوء الحال، والضيق والاختلاف، فنعرفه ولا ننكره، والدنيا دُوَل، والشدة بعدها الرخاء، ولو شكرتم ما آتاكم الله لكان شكركم قليلاً على ما أوتيتم، وقد أسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال.

إن الله بعث فينا رسولاً . . ثم ذكر ما تقدم وختم كلامه بالتخيير بين الإسلام والجزية والمنابذة . ثم رجع .

فخلا رستم بأهل فارس وقال : أين هؤلاء منكم؟ .

ألم يأتكم الأولان فجسَّراكم واستخرجاكم ، ثم جاءكم هذا ، فلم يختلفوا ، وسلكوا طريقاً واحداً ، ولزموا أمراً واحداً؟ .

هؤلاء والله الرجال ، صادقين كانوا أم كاذبين! .

والله لئن بلغ من أدبهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا فما قومٌ أبلغ فيما أرادوا منهم ، لئن كانوا صادقين فما يقوم لهؤلاء شيء . .

هل وعيت هذه المفاوضة؟ إنك تستبين منها وجهة نظر الإسلام في الوثنية السياسية التي مدَّت جذورها قروناً في هذه البلاد المستعبدة! .

وتستجلي منها كيف تتحول عقيدة التوحيد إلى سياج يحفظ الحقوق العامة للإنسان ، ويوطِّد أركان العدالة في المجتمع!! .

فممثلو هذه المفاوضات لا يناقشون الفرس في عبادة النيران ، بل يخبرونهم أنهم جاؤوا ـ كما قال ربعي ـ ليخرجوا مَنْ شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله . . .

إنهم يتركون الناحية الشخصية ، ولكنهم يحطمون العبودية السياسية ، ثم ينقلون الناس ـ كما قال ربعي أيضاً ـ من ضيق الدنيا إلى سعتها ، أي أنهم يمهِّدون للناس ـ باسم الإسلام ـ حياةً رخيَّةً ، تتوفر فيها أسباب الأمان والراحة والرفاه . .

وقد أبرز المفاوضون العرب هذه الحقائق في كلامهم أولاً وآخراً ، وأكدوا لخصومهم أنها طرق الإصلاح التي ينشدها الإسلام لهم ولسواهم .

فأما (ربعي) فقد حقَّر زينة الأشراف التي يتيهون فيها ، خرَّق برمحه بسطهم! ورفض الجلوس على العرش المذهَّب المعدّ لقائدهم ، كأنما يعلن تمرُّد الإسلام على هذا الجاه الكاذب . . .

وأما (المغيرة) فقد أوغر صدور العامة على كبرائها . وقال : «إنا معشر

العرب ـ لا يستعبد بعضنا بعضاً».

ثم رماهم بهذه الكلمة الخطيرة: «ظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى».

فلما وثب إلى جوار القائد المستعلي على سريره، كانت وثبته تلك إيماءةً ذكية إلى أن الإسلام يرفع المستضعفين إلى مصافِّ السادة.

وسواء كان توافق المفاوضين العرب في آرائهم عفواً أو عمداً، فهو بيان حاسم عن طبيعة المبادئ التي يحملها الفاتحون..

أيُّ عارٍ في هذه المبادئ؟.

إنها ـ والله ـ لو لم تكن ديناً لكانت في حياة الأمة نظاماً حسناً.

فلماذا ينقم الكاتب الصليبي على هذه الفتوح؟.

إنه يزعم في (ص٢٢) أن أسباب الفتح الإسلام لم تكن دينية فحسب، بعد أن يزعم أن الجدب والبحث عن القوت هما اللذان اضطرا العرب للغارة على الأمم المجاورة!.

لئن كان جوع العرب هو الذي حملهم على التطوف في الأرض بهذه المبادئ الرائعة، إنه جوع يفضل شبع المبطونين من رجال الكهنوت، الذين مهّدوا للإلحاد في العالم كله بتحجُّر عواطفهم وسقم أفكارهم.

أم إنه الحقد الذي يغشى على البصائر والأبصار؟..

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

* * *

وهذه محاورة أخرى بين كسرى نفسه وبين وفدٍ آخر من مفاوضي العرب سبقت المحاورة الأولى.

«فقد أرسل سعد دعاةً إلى (يزدجرد) منهم (النعمان بن مقرن) و(المغيرة بن

شعبة) و(عاصم بن عمرو)، فلمَّا وصلوا المدائن أُدخلوا على (يزدجرد)، فسألهم بواسطة ترجمانه:

ما جاءكم ودعاكم إلى غزونا والولوغ ببلادنا؟ أمن أجل أنّا تشاغلنا بأنفسنا عنكم اجترأتم علينا؟.

فتكلّم النعمان بن مقرن، وقال: إن الله رحمنا، فأرسل إلينا رسولاً يدلنا على الخير، ويأمرنا به، ويعرفنا الشرّ، وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة. فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلا صاروا فرقتين: فرقة تقاربه، وفرقة تباعده، ولا يدخل معه في دينه إلا الخواص، ثم أمر أن ينهد إلى من خالفه من العرب، ويبدأ بهم، ففعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكروه عليه[1] فاغتبط، وطائع إياه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق.

ثم أمر أن نبدأ بمن يلينا من الأمم، فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسَّن الحسنَ، وقبَّح القبيح كلّه، فإن أبيتم فأمر من الشر أهون من آخر شر منه، الجُزى، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله، وأقمناكم عليه، على أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم، وشأنكم وبلادكم، وإن واتيتمونا بالجُزَى قبلنا منكم، ومنعناكم ـ حميناكم من عدوكم ـ وإلا قاتلناكم..

---

(١) كان الدخول في عهد وأمان الإسلام والخروج منه مباحاً إلى ما قبل وفاة الرسول ﷺ بأمد قليل كما جاء في صلح الحديبية: «وأنه من أحبَّ أنْ يدخلَ في عَقْدِ محمد وعهده دخلَ فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقدِ قريشٍ وعهدِهم دخل فيه، فلما تكالب مشركو الجزيرة على حرب الدعوة ابتغاء إفنائها، خُيِّرَ وثنيو الجزيرة بين الإسلام أو القتال، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ١ ـ ٣].

فقال: فتكلّم يزدجرد فقال:

«إني لا أعلم في الأرض أمة كانت أشقى، ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم، فقد كنا نوكّل بكم قرى الضواحي فيكفونا أمركم، لا تغزوكم فارس، ولا تطمعون أن تقوموا لفارس! فإن كان عددكم كثير فلا يغرّنكم منّا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتاً إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم، وكسوناكم، وملّكنا عليكم ملكاً يرفق بكم!».

فقام المغيرة بن شعبة فقال:

«أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت أو أشد».

ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي ﷺ مثل مقالة النعمان.

ثم قال: اختر إن شئت الجزية عن يدٍ وأنت صاغر، وإن شئت السيف، أو تسلم فتنجِّي نفسك.

فقال يزدجرد: أتستقبلني بمثل هذا؟ لولا أن الرسل لا تُقتَل لقتلتكم، لا شيء لكم عندي.

ثم استدعى بوقر من تراب، وقال لقومه: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن، ثم قال: مَن أشرفكم؟

فقام عاصم بن عمرو وقال: أنا أشرفهم! وأخذ التراب فحمله، وخرج إلى راحلته فحمله عليها، ثم مضى مسرعاً، ولما وصل إلى سعد قال له: أبشروا، فوالله لقد أعطانا الله مقاليد ملكهم»[١].

* * *

ثم إن رستم خرج بجيشه الهائل مئة ألف أو يزيدون من (ساباط)، فلمّا مرَّ على (كوثى) لقيه رجل من العرب، فقال له رستم: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون منا؟؟.

---

(١) البداية والنهاية: ٧/ ٤٢ ـ ٤٣.

قال العربي: جئنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أبيتم أن تسلموا.

قال رستم: فإن قُتلتم قبل ذلك؟.

قال: من قُتِل منا دخل الجنة، ومن بقي أنجزه الله وعده! فنحن على يقين.

قال رستم: قد وُضعنا إذن في أيديكم!.

قال العربي: أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك، فإنك لست تجالد الإنس، وإنّما تجالد القدر.

فغضب منه رستم وقتله.

فلما مرَّ بجيشه على (البرس) غصبوا أبناء أهله وأموالهم، وشربوا الخمور، ووقعوا على النساء، فشكا أهل (البرس) إلى رستم، فقال لقومه: «والله لقد صدق العربي! والله ما أسلمتنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء - وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم..».

* * *

إنه لا مكان للمقارنة بين هذه الطليعة المؤمنة من جند الإسلام، وبين حملة الحضارة الحديثة إلى الأقطار المجهولة والبلاد المتأخرة.

فدول الغرب استغلت تفوقها المادي في السلب والنهب، وحرصت ألا تهب الشعوب المغلوبة قسطاً من المعرفة، وألا تنقل إليها من مظاهر حضارتها إلا بمقدار ما تعلم أنه ينفعها وحدها، تبقى الأرض المفتوحة وسكانها في أغلال رقٍّ مؤبّد.

أما العرب فقد صنعوا من حيهم وشهيدهم جسراً تعبر عليه عدالة السماء ودعوة الإنصاف، وأبدوا استعدادهم - على لسان النعمان - أن يعودوا من حيث أتوا، تاركين دينهم وديعةً لمن شاء الانتفاع به.

ولو نظرت إلى تاريخ الثورة البيضاء في فرنسة، والحمراء في روسية

لوجدت المبادئ التي تهفو إليها الشعوب قد امتزجت بأحقادٍ لا تعرف موضعاً لعفو[1].

فقُتل القيصر في روسية وأهلكت أسرته، كما قُطع رأس الملك في فرنسة، وسالت دماء الأشراف أنهاراً في كلتا الدولتين، وكانت فكرة القِصاص لمظالم القرون السالفة هي التي تحرك أسلحة الثوار، وتهيِّج مشاعر النقمة في أنفسهم.

فانطلقوا - وهم عبيد الأمس - يدمِّرون قصور السادة، ويتشفون برؤية دمائهم وأشلائهم وأنقاضهم.

والناس يغتفرون للرسالات التي تنطوي على نية إصلاح وتقويم كثيراً من الجرائم التي يقترفها الجمهور الساخط ضد خصومه الأولين.

ولو أنَّ حملة الإسلام الأوائل - وهم يقوِّضون ملك كسرى وقيصر - ارتكبوا بعض الأخطاء الدقيقة أو الجليلة لما ضاق بهم ضمير التاريخ الذي اتسع للكثير!.

ومع ذلك فإن الجيوش الفاتحة سارت على منهج لم تختل فيه موازين المثل العليا قيد شعرة.

والتزموا في كفاحهم - لملوك الدولتين الباطشتين بالعالم يومئذٍ - حدوداً من الحق والعفة والاستقامة لا تُعرف أبداً إلا في مواريث النبوات المنزلة من السماء.

وكان المسلمون في هذه المعارك جميعاً أقل من أعدائهم عدداً وعدة، بيد أن إيمانهم الدافق، وحماسهم البالغ، وسباقهم الفذ إلى موارد المنايا، يطلبون الاستشهاد، ويفرحون بنيله أشد مما يفرحون بالعودة إلى الوطن والأهل، ذلك كلّه صنع المعجزة التي لم يعرف تاريخ الأرض مثيلاً لها.

ألم يعجز الروم أن يهزموا الفرس في قرون طوال مع بسطة المال والرجال؟

ولكن الروم والفرس جميعاً هزموا في سنين معدودات أمام القبائل التي وحَّد الإسلام صفوفها، وغرس الحق في أفئدتها، ذلك أن الأمر كما قال العربي

---

(١) انظر الثورة الفرنسية تنوير أم تزوير، للدكتورة ليلى عنان، كتاب الهلال رقم ٥٦٧. (الناشر)

المسلم لرستم: إنك لا تجالد الإنس، وإنما تجالد القدر، والقضاء النازل لا يدفعه الخلق مجتمعين ولا مفترقين.

وانتشار الإسلام في الأرض، وانهدام معاقل الطغيان أمام مدِّه العريض؛ يتمشَّى مع سنن التطور التي تفسح الطريق لنظام حسن، بعد أن تخليه من نظام سيِّئ.

وقد ألمع رستم إلى هذه الحقيقة، وهو يقول للفسقة من ولاة الفرس لمَّا اعتدوا على الجمهور: «والله إن العرب مع هؤلاء ـ وهم لهم حرب ـ أحسن سيرة منكم».

والواقع أن أسلافنا من المسلمين الفاتحين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل، وكانت مصلحة العالم أجمع في انتقال هذه القيادة إلى أيديهم اللبقة، بعد ما لعبت بها الروم والفرس، ولن يعود هذا الزمام الضائع إلى أيديهم إلا يوم يكونون أرجح في موازين الصلاحية العامة من غيرهم، مصداق قول الله في كتابه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وخيرٌ للمسلمين أن يفقهوا سنن الله في كونه، فإن هذه السنن لا تحابي أحداً.

إن أحقَّ الناس بامتلاك التربة التي نحيا عليها من يحسن استغلالها، واستخراج الدفين من كنوزها، والخبيء من خيراتها. وأحقُّ الناس بالتمكين في الأرض من يستطيع ـ إذا ساد فيها ـ أن يقيم الموازين القسط بين أهليها.

ولكما اضطربت طاقة أمة، وتطرَّق الفشل إلى سياستها في ميادين التعمير والإصلاح، والعدالة والإنصاف، بدأت تتدحرج إلى حافة الهاوية، ويسرع بها عسفها إلى حتفها.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

ولو أن صلاحية السيادة في الأرض بقيت للدولة الإسلامية في العصور الأخيرة ما سقط لها لواء في حرب أو سلام.

ومن أين تأتيها الصلاحية المنشودة إذا كان أمراؤها أفسق الحكام، وأغنياؤها أبخل الملاّك، وعامتها أضيع الرعايا!! . . .

لا غَرْوَ أن ينفذ القدرُ فيها حكمَه القاهر.

إن السبب في انتصار المسلمين قديماً هو السبب في انهزام المسلمين اليوم.

إن النظام يجب أن يغلب الفوضى، والعلم يجب أن يمحق الجهل، والأخلاق ترجح حتماً على الضعة والتحلل.

وقد كانت فضائل القوة كلها إلى جانب الصحابة الفاتحين.

أما أملاك كسرى وقيصر فكانت مباءةً خصبة للأهواء المسلطة، والخرافات السائدة، والتعصب الأعمى لما لا يفيد، ومن ثَمَّ تفهم كلام (النعمان بن مقرن) لكسرى وهو يقول له: «ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسَّن الحسن، وقبَّح القبيح كله . . .».

وقد تسأل: فما هذه الجزية التي طلبها الفاتحون؟ أهي ثمن حريتهم الدينية؟

نقول: إنها ليست ثمن شيء من ذلك!.

ولو أن ألوفاً مؤلفة من البشر تمنت أن تدفع هذا الثمن للمسيحية الحاكمة في رومة والقسطنطينية وتظفر ـ بعد دفعه ـ بحريتها الدينية، ولكن رجال الكنيسة رفضوا، فإما الموت، وإما الدخول في المسيحية.

إن الكنيسة لم تخيِّر اليهود والوثنيين في أنحاء العالم إلا بين شيئين، إما التنصُّر وإما الفناء، بل إن المذاهب المسيحية المتناحرة لم تعرف هذا التخيير في علاقاتها، فوقعت المذابح البشعة بين الأشياع المتعصبين.

وكم كانت الأقليات الدينية في الشرق والغرب تتمنى لو ظفرت بالأمان على أموالها ودمائها لقاء دريهمات تدفعها، ومع ذلك عزَّ عليها هذا الأمل البعيد.

أما الإسلام فقد أوضح ـ على لسان ممثليه من القادة الفاتحين ـ أن هذه الجزية في مقابل دفاع المسلمين أنفسهم عن الأمم التي دخلت في ذمتهم، وذلك معنى قول النعمان بن مقرن لكسرى: «إن بذلتم الجُزَى قبلنا منكم ومنعناكم».

ومن الظلم أن يتولى المسلمون وحدهم نفقات جيش يقوم بالدفاع عنهم وعن غيرهم.

وقد تقول: فلم لا يترك المسلمون هؤلاء يعدون من القوة ما يشتغلون به في حماية أنفسهم؟؟.

والجواب: إن لهم هذا الحق!! ولا يتدخل الإسلام في شؤون دولة أخرى إلا إذا رآها تستغل قوتها في الإفساد والاضطهاد، ومصادرة الآراء، وإيقاع المظالم.

فإذا رأى دولةً تصنع ببنيها أو جيرانها ذلك، جرَّدها من السلاح الذي أساءت استخدامه، دون أن يجبرها على اعتناق دين، وترك آخر! وهذا ما فعله المسلمون الأولون.

كانت مصر والشام واليمن والعراق وكثير غيرها من أقطار الأرض موزعةً على الدولتين الكبيرتين تحكمانها بالقوة أسوأ حكم، فلما جاء الإسلام إلى هذه الأوطان المغلوبة على أمرها ردَّ إليها حريتها، ومالها، وكرامتها، فاستقبله أهلوها أحسن استقبال.

فكيف يعاب الإسلام على هذا الصنيع الكريم؟؟.

ما الذي يحزن الأمم التي تستذلها فرنسة الآن إذا جاء جيش فهدم أسوار (باريس) وأسقط حكومتها؟؟.

وما الذي يحزن المستعمرات التي تستغلها إنكلترة اليوم إذا زحفت قوة على (لندن) فدكتها على من فيها؟؟[1].

---

(١) كتب هذا الكلام عندما كانت إنكلترة وفرنسة تستعمران أكثر من ثلثي العالم، وتسومان أهله ألوان العذاب والقهر. (الناشر)

لقد طلع الإسلام على العالم كما تطلع الأشعة الدافئة عقيب ليلٍ قارس البرد، كالح الظلام، وما إن جثت القوى الباغية على ركبتيها أمام جيوشه المظفرة حتى تنفَّس الناس الصعداء[1]، ونجا المسيحيون أنفسهم من بطش الكنائس التي طالما استعبدتهم وفتنتهم.

ولا ننكر أن الجماهير الغفيرة دخلت في الإسلام أفواجاً، إذ آثرته على عقائدها الأولى، وقد حدث ذلك بعيداً عن تدخل الحكام، بل سترى أن ذلك حدث بالرغم من بعض الحكام.

الإسلام وحرب الأجناس:

لم يعرف الإسلام حرب الأجناس، ولا ينبغي أن تنسب هذه الحروب الداعرة لدين ما، فإنَّ الله لم يفضِّل لوناً على لون، ولم يؤثر بكرامته جنساً دون جنسٍ، وما يزعمه الأقوياء لأنفسهم من ميزات هو ادعاء يسنده الناب والظفر، لا الحق والبرهان.

وقد استطاع العرب ـ برحمة الله وتأييده ـ أن يهيمنوا على العالم كله، وأن يكونوا الدولة الأولى فيه، وربما جاء من أعقابهم من افتخر بدمه، أو اعتز بعنصره، وهو في ذلك دعيٌّ مغرور، ولكن الإسلام نفسه ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن اقتراف هذا المنكر.

بل قد رأينا كسرى (يزدجرد) يقول لوفد العرب: «إني لا أعلمُ أمةً في الأرض كانت أشقى، ولا أقل عدداً، ولا أسوأ ذات بين منكم...».

فما يجيبه أحد منهم بكلمة ينوِّه فيها بالدم العربي، ويرد اتهامات العاهل الفارسي، وإنما كان كلام (المغيرة بن شعبة) له: «أما ما ذكرت من سوء الحال، فكما وصفت أو أشد!!».

ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعزَّ جانبهم.

* * *

---

(١) الصعداء: النفس الطويل. (الناشر)

لذلك أخذتنا دهشة بالغة عندما تحدث الكاتب الصليبي في (ص٢٦) عن التفوّق العنصري عند العرب، وقد نقل تحت هذا العنوان جملة مفتريات، يجزم السُّذَّج بافتعالها! قال:

«إن الإقامة في شبه جزيرة العرب والتفوُّه باللغة العربية لم يكونا كافيين لاعتبار القاطنين فيها عرباً إذا كانوا من المهاجرين، حتى لو كانت هجرتهم ترجع إلى عدة قرون.

إن كلمة (عربي) لم يكن يراد بها المعنى الوطني كما هو منصوص عليه الآن، ذلك لأن العرب كانوا يجهلون ما هو التجنُّس، وما هو فقدان الجنسية».

هذا الكلام من أبطل الباطل، وقد نسبه الكاتب إلى مستشرق يدعى (بولياك) ولا بد أن هذا المستشرق كان مخموراً وهو يقول هذا الكلام.

لأن النبي ﷺ الذي بعثه الله من صميم العرب كان ولد إسماعيل عليه السلام.

وإسماعيل نزح من بلاده مهاجراً إلى الجزيرة، حيث اكتسب فيها جنسيته العربية الجديدة، ومعروفٌ أن الاستعراب أصل في تكوين العرب، وأنَّ من تعلَّم لغة العرب وامتزج بهم صار منهم، فالعربية لسانٌ لا دم.

* * *

ولا يفوق هذا الكلام في بطلانه إلا إيغال الكاتب في بهتانه عندما قال في (ص٢٨): «بقي عرب شبه الجزيرة متمسكين بهذا المبدأ (كذا) حتى قبض العباسيون على زمام الحكم.. ويلاحظ (الأب جانو) أن معتنقي الإسلام من الموالي والمسيحيين واليهود والسامريين الذين لم ينحدروا من أصل عربي كانوا لا يدخلون في المجتمع العربي الإسلامي دخولاً كلياً بمجرد إسلامهم (كذا) بل كان عليهم أن يلتمسوا انتسابهم لإحدى القبائل العربية، وكانوا يدفعون ثمن الانتساب غالياً، ومع ذلك لا يعتبروا إلا مسلمين من الدرجة الثانية..».

هذا ما يلاحظه الأب الكذوب.

ثم يمضي الكاتب الصليبي موغلاً في الافتراء، فيقول: «يستنتج من ذلك أن الشعوب المغلوبة التي اعتنقت الإسلام في السنوات الأولى من الدعوة الإسلامية، لم يستقبلهم العرب بعاطفةٍ من الفرح والأخوة، بل وضعوهم في مركز أدبي وضيع بالنسبة لهم . . ».

ياغوثاه!!.

هل يبلغ الحقد بذويه حتى يتدلوا إلى هذا الدرك السحيق من الإسفاف؟.

من قال من مؤرخي الأولين والآخرين: إن صحابة رسول الله ﷺ كانوا ينظرون إلى الأمم التي دخلت في الإسلام نظرة تنقُّص؟؟ أو أنهم كانوا يحلونهم في مراتب وضيعة؟؟.

إن الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلق في وجهها أحداً يزعم أنه أولى منهم بالله أو أحق برسوله ﷺ.

كانت الأجيال المتفاوتة تدخل فيه كما تدخل الجماهير المرحة إلى حديقة عامة، لا حظر عليها ولا بوّاب، ولا يفخر فيها أحد على أحد بأي ادِّعاء.

ولقد قال الله للرعيل الأول من أصحاب محمد ﷺ ـ محدِّداً لهم مسلكهم من المشركين المقاتلين ـ:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ١١].

ولم يجعل للقائمين بأمر الدعوة إلى الله منزلةً معينة يستحقون بها تسمية خاصة، بل زجَّهم في الغمار العام الذي يسوِّي بينهم وبين غيرهم تحت عنوان واحد:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

لا سيادة ولا تبعية، ولا مراكز أولية وأخرى ثانوية، إنه من المسلمين فحسب.

وقد جرت نصوص القرآن تتوالى تؤكد هذا المبدأ، فهدَّد الله العرب في إبان نزول الوحي أنهم إن لم يستقيموا على سواء الصراط، وينهضوا بأعباء الرسالة التي وكَّلهم بها، فسوف يحرمهم من أفضالها، ويلقي إلى غيرهم بمقاليدها، فإن الكل في ساحته سواء، لا يمتاز عنصر على عنصر إلا بمدى بلائه ووفائه لهذا الدين العام:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن أولئك القوم؟.

روى الترمذي أنهم الفرس، لأنه ﷺ سئل عنهم فضرب على عاتق سلمان الفارسي وقال: «هذا وذووه».

وصحَّ كذلك أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ سورة الجمعة، فلما بلغ قوله تعالى: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ بعد قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٣]. قال له رجل: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا، يعني لم يعاصرونا، فوضع يده على سلمان الفارسي وقال: «والذي نفسي بيده؛ لو كان الإيمان بالثريا لناله رجال من هؤلاء» يشير إلى أنهم أهل فارس[1].

ويرى بعضهم أن الحديث من باب الاقتصار والتمثيل، ولذلك قال ابن جبير: هم الروم والعجم...

وقد جرت في موقعة اليرموك محاورة طريفة بين (خالد بن الوليد)، وهو عربي مسلم؛ وبين (جرجة بن ثيودور)، وهو نصراني رومي، وهذه المحاورة

---

(١) رواه مسلم رقم (٢٣٠)، (٢٥٤٦) عن أبي هريرة. (الناشر)

تشهد لعواطف الاستبشار والغبطة التي لقي بها العرب الأوائل أي داخل في دين الله .

ولا حرج من أن ننقل المحاورة كلها لما تضمنته من دلالات شتى :

نادى جرجة : ليخرج إليَّ خالد ، فخرج خالد حتى التقى به بين الصفين ، فلما أمَّن كلاهما صاحبه ، قال جرجة : ياخالد ، أصدقني ولا تكذبني ، فإن الحرَّ لا يكذب ، ولا تخادعني ، فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله ، هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه ، فلا تسلُّه على قوم إلا هزمتهم؟ .

قال : لا .

قال : فبمَ سُميت سيف الله؟ .

قال : إن الله عزَّ وجلَّ بعث فينا نبيه ، فدعانا ، فنفرنا عنه ، ونأينا عنه جميعاً ، ثم إن بعضنا صدَّقه وتابعه ، وبعضنا كذَّبه وباعده! فكنت فيمن كذَّبه وباعده ، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا ، فهدانا به ، فبايعناه ، فقال : أنت سيفٌ من سيوف الله ، سلَّه الله على المشركين ، ودعا لي بالنصر ، فسميت سيف الله بذلك ، فأنا من أشد المسلمين على المشركين؟ .

قال : صدقتني .

فقال جرجة : يا خالد ، إلامَ تدعون .

قال : إلى شهادة أن لا إلـه إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء به من عند الله عزَّ وجلّ .

قال : فمن لم يجبكم؟ .

قال : فالجزية ، ونمنعهم (أي نحميهم من أعدائهم) .

قال : فإن لم يعطها؟ .

قال : نؤذنه بحرب ، ثم نقاتله .

قال : فما منزلة من يجيبكم ، ويدخل في هذا الأمر اليوم؟ .

قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا: شريفنا ووضيعنا؛ وأوّلنا وآخرنا.

قال جرجة: فلمن دخل فيكم اليوم من الأجر والذخر مثل ما لكم من الأجر والذخر؟.

قال: نعم وأفضل... !

فقال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه!.

فقال خالد: إنّا قبلنا هذا الأمر، وبايعنا نبينا ﷺ وهو حيٌّ بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتاب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا، وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع.

وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا، ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج؟ **فمن دخل في هذا الأمر منكم بحقيقة ونيَّة كان أفضل منَّا.**

قال جرجة: بالله لقد صدقتني؟ ولم تخادعني؟.

قال: تالله لقد صدقتك، وإنّ الله وليُّ ما سألت عنه!.

فعند ذلك قلب جرجة الترس، ومال مع خالد وقال: علِّمني الإسلام، فمال به خالد إلى فِسطاطه، فسنَّ عليه قربة من ماء، ثم صلَّى به ركعتين... إلخ[1].

من ذلك الحوار تحكم: أكان المسلمون العرب يحتقرون الداخل في الدين من الأجناس الأخرى ـ كما يقول الكاتب الصليبي ـ أم كانوا يرحِّبون به، ويقدِّمونه على أنفسهم؟.

وما يقول المبطلون إذا عرفوا أن الرسول ﷺ جعل قائد جيشه إلى الروم أسامة بن زيد ـ وهو من الموالي[2] ـ وكان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما جنوداً في هذا الجيش؟.

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٧/ ١٢ ـ ١٣.

(٢) ليس كل مولى أعجمي، فزيد عربي من بني كلب القبيلة اليمانية المعروفة، ولكنّه لما استرقّ في الجاهلية، وأعتقه النبيّ ﷺ صار من موالي قريش. (الناشر)=

وماذا يقولون إذا رأوا رجلاً من صميم العرب كأبي ذرٍّ يلصق بالتراب خدَّه، ويبيح لعبده الأسود[1] أن يقتصَّ منه؟.

إن المسلمين الأوائل كانوا أنأى الناس عن النزعات العنصرية السفيهة، وليس لها في تاريخ الفتوح أثر قط.

وفرحة المسلمين بالداخل في دينهم يتوارثونها إلى يوم الناس هذا.

والمسلم الذي يوفّق إلى هداية امرئ حيران؛ ويستطيع شرح صدره للإيمان، يحسُّ بأنه ادخر لنفسه من المثوبة عند الله ما يقرُّ عينه، ويشيع الغبطة في حياته كلها.

وكيف لا؟ وهو يستمع إلى قول النبي ﷺ: «لأن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها».

لا جَرَم أن السلف الصالح خفُّوا إلى استقبال الأفواج الداخلة في دين الله وعواطف الترحيب تهزُّ جوانحهم، حتى إذا مضت الأيام على استقرارهم في الديانة التي آثروها، أضحى السابق واللاحق شركاء متساوين في حمل مغارمها ومغانمها.

فإن يكن موضع الملاحظة من القبيل الذي أشار إليه الكاتب الصليبي آنفاً فإن المؤرخ المنصف لن يفوته أبداً تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلة في الإسلام على حساب العرب أنفسهم، ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس، وتسويته المطلقة بين من اعتنقوه كافة، سمح للفرس والروم والترك وسائر الأعاجم أن يزاحموا العرب بالمناكب في ميادين النشاط العلمي والأدبي والفني، وأن ينتزعوا القياد منهم في هذه الآفاق الحرة.

فلم تمضِ خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من

---

(١) هو بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ، والذي قال فيه عمر رضي الله عنه: أبو بكر سيدُنا وأعتق سيدَنا ـ يعني بلالاً ـ. (الناشر)

فقهاء الأمصار الكبرى رجالاً من الأعاجم وغيرهم، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا أمامهم عائقاً.

وإننا لنلقي نظرة على تاريخ الإسلام الطويل فنجد أن علوم الشريعة من تفسير وسنة وتشريع، بل علوم اللغة العربية نفسها، قد بلغت تمامها، واعتلت قمتها على أيدي رجال لا يمتُّون للعروبة إلا بصلة التجنُّس.

ولولا الإسلام وما بثَّه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا قط.

ولمّا وقع أول فساد في الحكم بتحوله من خلافةٍ راشدةٍ إلى ملك عضوض حاول بنو أميّة ـ بعد أن احتكروا الملك في بيتهم ـ أن يحيوا ما أمات الإسلام من نزعاتٍ عنصرية، وأن يجعلوا من الحكم العربي دعامة لعصبية جنسية طائشة، غير أن هذه المحاولات ذهبت سُدًى، فتغلبت طبيعة الإسلام، واستجاب لها جمهور الأمة، وأخذ الموالي حظوظهم كاملة في الحياة العامة.

قال الشيخ محمد الخضري[1] في كتابه (تاريخ التشريع):

«إنهم ـ أي الموالي ـ وجدوا في جميع الأمصار، وشاركوا الصحابة وكبار التابعين من العرب في العلم والتعليم، فقلّما يذكر عبد الله بن عباس إلا ومعه راويته ومولاه (عكرمة)، وقلّما يذكر عبد الله بن عمر إلا ومعه مولاه (نافع)، وقلّما يذكر أنس بن مالك إلا ومعه مولاه (محمد بن سيرين)، وكثيراً ما يذكر أبو هريرة ومعه مولاه (عبد الرحمن بن هرمز الأعرج)، هؤلاء الأربعة أكثر الصحابة حديثاً وفتوى، ولمواليهم الأربعة فضل كبير.

ومن الخطأ أن يحسب أن حظ العرب من الفقه ورواية الحديث كان أحسن، وإنّما كانت المشاركة فلم يوجد مصر إلا وفيه من الفريقين عدد وافر، إلا أن بعض الأمصار كان الامتياز فيه للموالي كالبصرة، وعلى رأسهم الحسن بن أبي الحسن

---

(١) محمد الخضري بن عفيفي الباجوري (١٨٧٢ ـ ١٩٢٧م) مؤرخ، درس في الأزهر ودار العلوم، واشتغل بالتدريس والقضاء، له مؤلفات مشهورة. (الناشر)

البصري، وفي بعضها كان الامتياز لفقهاء العرب كالكوفة.

هل نفهم من ذلك أن نشاط الموالي انحصر في نطاق العلم والبحث فقط؟.

كلا فقد زاد شأنهم رفعة، وزاد سلطانهم سعة حتى بدأ الحكم العربي ينكمش أمام نفوذهم الممتد.

ثم كان قيام الدولة العباسية أثراً لنشاط الموالي من أهل خراسان والعراق. وبذلك استطاعت الأجناس الداخلة في الإسلام أن تجمع بين السيادتين العلمية والسياسية.

* * *

إنه منذ كوَّن الإنكليز إمبراطوريتهم ما تحوَّل الحكم عن جنس معين ولا انتقل من عاصمة معينة.

أما الدولة التي أقامها الإسلام، فما أكثر الأجناس التي امتلكتها! وما أكثر العواصم التي تنقلت فيها بين الشرق والغرب، ذلك أن الإسلام ـ كالعلم ـ لا وطن له، وليس له مستقر يأرز[1] إليه إلا القلب الإنساني الكريم.

بل نستطيع القول بأن عدالة الإسلام المطلقة في المساواة بين الأجناس، ومحق الفوارق الخاصة، قد استغلت ضدَّه استغلالاً قبيحاً، فقد تطلعت إلى حكم المسلمين جميعاً عناصر من الأتراك والأعجام واهية الصلة بالعروبة، مع أن الرسوخ في لغة العرب ضرورة لا بد منها لفهم الدين قبل الحكم به، ومن ثَم قامت دول إسلامية قوية من الأتراك، لم تحسن سياسة رعاياها، ولا سياسة الأجانب عنها، فألحقت بالدين وأهله أضراراً فادحة.

أفترى أن العرب يتحوَّلون إلى رعية في ميدان العلم، ثم إلى رعية في ميدان الحكم، لو أن أسلوبهم في أيام الفتوح كان قائماً على إهانة الأمم المغلوبة، ووضع أبنائها في مراكز دنيئة؟.

---

(١) يأرز: يلجأ.

إن العرب الأوائل أدوا رسالتهم على نحوٍ لم يعرف التاريخ ـ ولن يعرف ـ مثيلاً له في نزاهته وترفعه.

وإذا ذكر الصحابة الأمجاد، الذين حرروا الأمم من إسار كسرى وقيصر، فلنذكر رجالاً آثروا الموت على الحياة، وآثروا ما عند الله على متاع الدنيا.

إنها فطر من طراز لا تعرفه دنيانا الغاصَّة بالمطامع والأهواء، ولا يستطيع أن يفقه سمَّوها كُتَّاب ملوثون، وباحثون مغرضون.

مع ألوية المنتصرين:

عندما نقرأ أنباء الجيوش الزاحفة في عصرنا هذا أو في العصور السالفة، تمر بأعيننا صور من الدمار الشامل، والهلاك المبير، وتتقزَّز أنفسنا من سيطرة البغي والأثرة على الساسة والقادة، الذين يشعلون الحروب الدامية إشباعاً لكبريائهم، وإرضاءً لأطماعهم، غير مكترثين لما يحل بالبلاد والعباد من نكبات طامة، وفتن عمياء.

والحق أن أكثر الحروب التي ثارت في العالم قديماً وحديثاً كانت وليدة غرور فردي أو طيش عنصري، وأن أغلب (الإمبراطوريات) الكبرى، سواء منها ما تأسَّس في عصرنا هذا، أو في العصور الأولى، لم يتكوَّن إلا على أنقاض الحق والخير وسائر المثل العليا.

أما الحروب التي اشتبك الإسلام فيها مع خصومه فهي ضربٌ آخر من القتال يخالف في بواعثه ونتائجه ما ألف الناس رؤيته في ساحات الوغى، وما ألف التاريخ تسطيره في صحائفه القانية[1].

إن الفارق بين هذا القتال وغيره كالفارق بين حكم إعدام يصدره قضاء عادل على مجرم أثيم، وبين حادثة اغتيال يرتكبها امرؤ شرير لغرضٍ سافل، إن الأمر في كلتا الحالين تمخَّض عن سفك دم، ولكن شتَّان بين قتل وقتل!

---

(١) أفردنا مبحثاً خاصاً بالقتال في الإسلام تجده في كتابنا (الإسلام والاستبداد السياسي).

وسنذكر هنا إشاراتٍ سريعة إلى موقف الإسلام من أصحاب الكتابين السابقين ليرى القرّاء، على من تقع تَبِعة القتال الذي دار بين المسلمين وبين اليهود والنصارى؟.

إن دعاية الإسلام القوية إلى توحيد الله وإقرار المساواة بين خلقه كافة لقيت مقاومةً عنيدة فظّة من الوثنية، التي هيمنت قروناً طويلة على جزيرة العرب.

وكان حق الإسلام أن يلقى عوناً على مجالدة هذه الوثنية الطاغية من حَمَلة الكتاب الأولين، أتباع موسى وعيسى عليهما السلام، فهل أدى اليهود والنصارى بعض هذا الحق؟.

كلا. إنهم لم يؤدوه، بل إنهم لم يلتزموا الحياد الدقيق في هذا الصراع الخطير! إنهم انضموا ـ بعواطفهم ـ أول الأمر إلى عَبَدة الأصنام! فلما رأوا كفة الإسلام توشك أن ترجح، انضمّوا بأسلحتهم إلى الجانب المناوئ للدين الجديد، دين التوحيد والأخوة!!.

وقد غيّر المسلمون موقفهم تبعاً لما طرأ على معسكر خصومهم من تغيرات، فقبل أن ينضم اليهود إلى جانب الوثنيين كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، على حين يقول في السورة نفسها قاصداً عباد الأصنام: ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٩١].

فلما انحاز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب، وحاولوا معهم إسقاط المدينة، وهي عاصمة الإسلام يومئذ، قال الله عز وجل ـ واصفاً ما نشب بين المسلمين واليهود من عراك ـ:

﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

اتسع نطاق القتال بعدما تظاهر المشركون وأصحاب التوراة ضد الإسلام، ثم زادت حدَّته بعدما تكاتف سكان الجزيرة كلها على حرب المسلمين، فنزل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦][1].

* * *

أما النصارى فلم تكن لهم داخل الجزيرة نفسها مراكز عسكرية ذات بال إذ كان جمهورهم يعيش على الأطراف البعيدة، جنوباً في اليمن أو شمالاً وشرقاً نحو العراق والشام، وربما جاءت وفود منهم إلى النبيِّ ﷺ في مكة أو المدينة تناقشه في حقيقة الإسلام، وتتبيَّن أمر هذا الدين الجديد.

ولا شكَّ أنهم أرقّ قلوباً، وألطف إجابة من عامة اليهود.

من هذه الوفود المسيحية من عرف الحق فأسلم.

روى محمد بن إسحاق في (السيرة) أن وفداً من النصارى ـ قيل: من الحبشة أو من نجران ـ يبلغون العشرين رجلاً، قدموا على النبي ﷺ وهو في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال قريش في أنديتهم حول الكعبة. فلمّا فرغوا من مساءلة الرسول ﷺ فيما أرادوا دعاهم إلى الله، وتلا عليهم القرآن، **فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به، وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم.**

فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش قائلين لهم:

خيَّبكم الله من ركب! بعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه فيما قال!! ما نعلم ركباً أحمق منكم.

---

(١) انظر (فقه السيرة) للمؤلف، ص٢٣٩، ط. دار القلم بدمشق. (الناشر)

فقالوا لهم : سلام عليكم لا نجاهلكم ، لنا ما نحن عليه ، ولكم ما أنتم عليه لم نأل أنفسنا خيراً .

وفي هؤلاء النصارى نزلت آيات من القرآن :

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

والواقع أن النصرانيّ المعتدل يجد أحسن ما يطمئن إليه من ديانته واضحاً في الإسلام ، ولا يجد في الإسلام النقائض المستحيلة التي يجدها في ديانته ، وهذا سرُّ إسلام الألوف المؤلّفة من الشعوب المسيحية .

على أن هناك وفوداً أطالت الكلام مع النبي ﷺ في شأن عيسى ، وأصرت على إشراب شخصه معنى الألوهية! وقد وقف النبي ﷺ من هذه الوفود موقفاً يعتبر آية في الإخلاص ، والفناء في نشدان الحق ، إذ طلب من مجادليه أن يصلوا لله جميعاً مستنزلين اللعنة على من يكذب ويظلم :

﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [آل عمران : ٦١] .

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ . . . ﴾ [آل عمران : ٦٢] .

وثبت من وقائع التاريخ أن الوفد المسيحي رفض أن يردّد مع الرسول ﷺ هذه الدعوات ، وهو رفضٌ يدل على أن أولئك المتنصرين من العرب ما كانوا يجزمون بفكرة قاطعة في شأن عيسى عليه الصلاة والسلام ، وأن تأليههم له لا يعدو أن يكون اتباعاً لظنون ، وتقليداً لآباء ، وما أكثر هؤلاء الواهمين بين جمهور المسيحيين . .

إلا أن النصرانية بدأت تناوش الإسلام فعلاً عندما أحسَّت بدائرته تنداح ،

وبدأت الموجة المقبلة من داخل الجزيرة تصل إلى اليمن جنوباً والشام شمالاً على عهد النبي ﷺ نفسه.

وكانت الأولى محتلة بالفرس، والأخرى خاضعة للروم.

وبذلك بدأ الصدام مع الدولتين الكبيرتين اللتين اقتسمتا الأرض والعباد بينهما.

* * *

ونحن في هذا الكتاب لا نعنى بتدوين الوقائع المفصَّلة لهذا الصدام الطويل، وإنما يهمنا أن نبرز الأوامر الحربية التي كانت جيوش الإسلام تتلقاها من الرسول ﷺ وخلفائه، لنعرف حقيقة الروح التي توجّه أولئك المقاتلين.

ويهمنا كذلك أن نبرز موقف النصارى من الدعوة الجديدة، وكيف استأنفت الكنيسة الكاثوليكية عدوانها القديم، وحدَّت شفرتها تبغي ضمَّ ضحية جديدة إلى ضحاياها الأولين.

استطاع المسلمون قطع الصلة بين اليمن ودولة الفرس. وأرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل معلماً ينتقل بين البلاد، ليرشد الناس إلى الإسلام، فأوصاه بهذه الكلمات:

«إنك تأتي قوماً أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة ألا إلـه إلا الله وأني رسول الله.

فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة.

فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم.

فإن هم أطاعوا لذلك، فإياكم وكرائم أموالهم.

واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

ومن هذه الوصية نرى أن الدين يعرض على الناس عرضاً مجرَّداً من شائبة ضغط، وأن النصارى ـ وهم سكان اليمن يومئذ ـ كانوا مطلقي الحرية في إجابة داعي الله أو الإعراض عنه، وأن الرسول ﷺ حرَّم على ولاته ظلم الناس ولو كانوا كفاراً.

فإن اختلاف الدين لا يبيح التظالم بين المتعاملين والمتجاورين. بل إن الظلم حرام، ولو على امرئ سيِّئ.

روى أحمد عن أبي هريرة: «دعوة المظلوم مستجابة، ولو كان فاجراً، وفجوره على نفسه».

إن الرسول الكريم ﷺ لما تمكَّن من بسط رَوَاق الإسلام على الجزيرة كلها أخذ صحابته بتعاليم مشدَّدة في ضرورة إشاعة العدل، وتحري الدقَّة في تطبيقه على كل فرد وإظهاره في كل عمل.

روى أحمد عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام في أرض العرب، ولكنه سيرضى منكم بدون ذلك بالمحقَّرات، وهي الموبقات يوم القيامة. اتقوا الظلم ما استطعتم، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنجيه، فما زال عبد يقوم يقول: ياربِّ ظلمني عبدك مظلمة، فيقول: امحوا من حسناته، وما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة من الذنوب، وإن مثل ذلك كسفر نزلوا بفلاة من الأرض، ليس معهم حطب، فتفرَّق القوم ليحتطبوا فلم يلبثوا أن حطبوا، فأعظموا النار، وطبخوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب»(١).

هذه تعاليم المنتصر، وتلك أوامره في معاملة الناس.

وكانت (نجران) ـ إحدى القبائل المسيحية التي تقطن الجنوب ـ من بين الذين شملهم هذا العدل الرحب، فما وقع على فردٍ منها غبن، ولا أكره على إيمان.

ولماذا يستثنون من التعاليم التي ذكرناها آنفاً؟.

---

(١) أحمد (١/ ٤٠٢)؛ وأبو يعلى (٥١٢٢)؛ والطبراني في الأوسط.

لكن الكاتب الصليبي الحقود لا يعلق بحرف على خضوع اليمن كلها لمجوس فارس، وإنما تشتعل نيرانه لسيطرة الإسلام على العرب في وسط الجزيرة وجنوبها، فإذا خياله المريض يصوِّر العهد الذي تمَّ بين المسلمين ونصارى نجران تصويراً ينكره الواقع كل الإنكار.

قال: «ذهب الوفد إلى مكة[1]، وبمجرد وصوله دخل المسجد حيث كان النبي، وأخذ الأعضاء يصلون على الطريقة المسيحية متجهين عكس القبلة، فاغتاظ المسلمون لهذا المسلك، ولكن محمداً أمرهم أن يتركوهم وشأنهم.

وعندما انتهوا من صلاتهم توجهوا إلى النبي ﷺ، فأدار لهم ظهره، ورفض أن يحيهم محتجاً بأنهم وارفون في حلل غالية ثمينة.

وفي اليوم الثاني قابلوا النبي الذي دعاهم إلى اعتناق الإسلام.

ولما احتد النقاش صرفهم بعد أن عيل صبره.

غير أن الوفد عرض عليه إبرام معاهدة على أساس منح صاحب الدعوة الإسلامية بعض الفوائد المادية... ص٢٩».

أي والله بعض الفوائد المادية!!.

أرأيت إلى الكاتب الكذوب كيف يتخبط في مفترياته؟.

إن نصارى نجران كنصارى اليمن جميعاً، أسلم منهم جمٌّ غفير حبّاً في الإسلام، وغضاضة من البقاء على لوثة التثليث، وبقي منهم من آثر الاستمرار على نصرانيته.

فاشترط عليهم أن يعاونوا المسلمين في الحرب إذا حاولت فارس العودة إلى احتلالها، ومنحوا حريتهم كاملة في شؤونهم كافة مقابل أن يدفعوا للمسلمين ضريبة قدرها ألف ثوب في السنة، هي قيمة الجزية التي تجب عليهم. وكانت

---

(١) لم تعقد معاهدة بين المسلمين والنصارى في مكة، ولعل المقصود المدينة، والعذر جهل هذا الكاتب!!.

الألف ثوب تؤخذ منهم لتوزع على العراة من الفقراء.

فإنَّ محمداً لم يحبس في بيته هذه الثياب، وهو الذي عرف بين خصومه وأحبائه أنه «يرقِّع ثوبه، ويخصف نعله».

ولا شكَّ أن ألف ثوب يكسى بها عرب الصحراء أرفق بنصارى اليمن من القناطير المقنطرة التي كان يدفعها النصارى صاغرين لرسل كسرى كي يزدان بها إيوانه الأبيض في المدائن.

لكن وثنية فارس أحب إلى هذا الكاتب الصليبي من دين محمد ﷺ، ولذلك يظهره ـ في كتابته التافهة ـ كأنه زعيم قبائل ثارت بحثاً عن الفوائد المادية.

فوائد مادية لمن؟ إن القرآن يقول: ﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١].

والنبيّ ﷺ يقول: «ليس لي من مغنمكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم».

والعلّة في الاستيلاء على الخمس، وإعادة توزيعه على الجهات المحتاجة تعود إلى إقامة التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع، كما نص القرآن في تقسيم الفيء، قال عزَّ وجلّ: ﴿ مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾[الحشر: ٧].

فأيُّ نفعٍ مادي يزعمه الكاتب في هذه الشؤون؟

ثم يمضي الأفَّاك في هَذْره قائلاً: «لم يجرؤ أحدٌ على فرض الجزية على هؤلاء العرب ـ النصارى ـ».

وهذا كذب فقد فرضت عليهم الجزية ودفعوها.

ويقول كذلك في ص٢٩: «حَرَص المسلمون أشدَّ الحرص على عدم جرح عواطف مواطنيهم المسيحيين».

والواقع أن المسلمين لم يجرحوا عواطف النصارى عرباً وروماً، وإيهام

القارئ أن العرب خضعوا لنزعة جنسية فحاربوا مواطنيهم، وجاروا على غيرهم باطل لا أصل له، والعهود الثابتة بين المسلمين وسائر الملل والأجناس الأخرى تكذب ذلك.

* * *

استطاع المسلمون في هذه المرحلة من قتالهم الفرس أن يؤمنوا جنوب دولتهم، وعجزت الإمبراطورية المتداعية أن تعيد اليمن إلى حظيرتها.

بل إن القبائل النازلة على شطآن الخليج الفارسي بدأت تدخل الإسلام، أو تقر صلاتها به في معاهدات متكافئة، لا وكَسَ فيها ولا شطط.

فترك المسلمون هذه الجهة إلى حين، ورموا بأبصارهم نحو الشمال حيث تبدأ حدود الدولة الرومانية الكبرى، ممثلة النصرانية في الأرض.

أو بتعبير أدق، ممثلة المذهب الكاثوليكي من هذه الديانة..

وحكومة الروم تعرف ما الإسلام؟ وما أهدافه العامة؟.

والإمبراطور (هرقل) نفسه يدرك الكثير عن الإسلام ونبي الإسلام ﷺ وعن أسلوب دعوته ونمو أنصاره.

والرسالة التي جاءته لم تكن نزوة رجل طامح دفعه حمقه إلى مخاطبة الملوك، ثم راح في مطاوي الفناء. كلا. كلا.

إن هذه الرسالة هي البداية الجريئة لعمل متواصل تجاوز السنين إلى القرون، ومن ثم فتح الرومان أعينهم يرمقون ـ بتوجس ـ سير الدعاية النشطة لهذا الدين الحديث، وربما حسبته الكنيسة الكاثوليكية مذهباً مبتدعاً في تبيين حقيقة (عيسى) يشبه مذهب (آريوس) الذي وأدته قبلاً.

على أية حال يجب أن تحارب هذه النزعة في فهم طبيعة (عيسى)، فإن كل إنكار لمبدأ التثليث لا بد من القضاء عليه.

هكذا صنع الكاثوليك الرومان بأنفسهم وبخصومهم في الرأي.

وأوعزوا إلى القبائل النصرانية المتاخمة لحدود الشام أن تقف سدّاً منيعاً دون أي تقدم قد يحرزه الإسلام في هذه البقاع.

فلما بعث النبي ﷺ وفداً من الدعاة المسالمين يعلمون الناس مبادئ الإسلام، وثبت عليهم جموع العرب الموالين للروم، فقتلتهم جميعاً في مكان (ذات الطلح) وكانوا خمسة عشر داعياً، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة.

وتمكن أعرابي من قبيلة غسان أن يقتل رسولاً بعثه النبي ﷺ إلى الوالي الروماني على بصرى يدعوه إلى الإسلام، وأشيع أن هذا الاغتيال كان برضا (هرقل) نفسه.

ونحن نستبعد هذه الإشاعة، ونرى أن المتعصبين من القساوسة هم الذين ارتضوا هذه الخطة في مقابلة الدعاية إلى الإسلام، فإن موقف (هرقل) من الرسالة التي جاءته ينبئ عن حصافته، وتنزهه عن ارتياد هذا المسلك الدنيء.

وليس أمام المسلمين بإزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا هذا التهجُّم، فأرسل النبي ﷺ حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام، بَيْد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكتيبة من المؤمنين المتحمسين، فجمعوا نحو مئتي ألف من رجالهم، ومن انضمَّ إليهم من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلي، وماذا عسى يصنعه ثلاثة آلاف أمام مئتي ألف؟.

ولكن حرارة اليقين جعلت الكتيبة المتفانية تجازف بالاشتباك مع جيش يربو عليها سبعين مرة، فقتل قادتها الثلاثة على التعاقب، زيد بن حارثة، وجعفر ابن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة..

وشعر خالد بن الوليد أن قتالاً من هذا النوع ميئوس العواقب، فاحتال للخلاص منه مع المحافظة على سلامة الجيش وسمعة المسلمين، فمازال يناوش الرومان حتى أفقدهم روح الهجوم، ثم انسحب قافلاً إلى المدينة.

وتسمى هذه المعركة وقعة (مؤتة)[1]. على أن هذه المعركة المحدودة قد أدت المقصود منها.

قال الدكتور محمد حسين هيكل: «إن القبائل العربية المتاخمة للشام نظرت إلى أفعال المسلمين بإعجاب، وكان من ذلك أن أحد زعمائهم (فروة بن عمرو الجذامي) ـ وهو قائد فرقة من جيش الروم ـ ما لبث أن أعلن إسلامه، فقُبض عليه بأمر من هرقل بتهمة الخيانة، وكان هرقل على استعداد للإفراج عنه إذا هو عاد إلى المسيحية، بل كان على استعداد أن يرده إلى مركز قيادته الأولى، لكن (فروة) أبى، وأصرَّ على إبائه وعلى إسلامه، فقتل.

وكان من ذلك أيضاً أن ازداد الإسلام انتشاراً بين قبائل نجد المتاخمة للعراق وللشام حيث كان سلطان الرومان في ذروته، وزاد في انضمام الناس إلى الدين الجديد اضطراب أحوال الدولة البيزنطية اضطراباً جعل أحد عمال (هرقل) ـ وقد كلف أن يدفع للجيش رواتبه ـ يصيح في وجه عرب الشام الذين اشتركوا في الحرب: «انسحبوا فالإمبراطور لا يجد ما يدفع منه رواتب جنده إلا بمشقة! وليس لديه لذلك ما يوزعه على كلابه!!».

فلا عجب أن ينصرف هؤلاء عن الإمبراطور وجنده، وأن يزداد ضياء الدين الجديد أمامهم نوراً يهديهم إلى صدق حقيقته السامية التي يبشِّر الناس بها..

لذلك اعتنق الإسلام في هذه الفترة ألوف من (سُليم)، وعلى رأسهم (العباس ابن مرداس)، ومن (أشجع)، و(غطفان) الذين كانوا حلفاء اليهود، حين نكب اليهود في خيبر، ومن (عبس) و(ذبيان) و(فزارة).

فكانت وقعة (مؤتة) سبباً في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام.

أفيرضى الرومان أن تتطور الأمور إلى هذا المصير؟.

---

(١) انظر (فقه السيرة) للمؤلف، ص٣٦٥، (ط٧)، دار القلم بدمشق. (الناشر)

لقد تضاعفت وساوس النصارى ونمت مخاوفهم؟ وزادهم حنقاً أن يتحول تقهقر العرب في (مؤتة) إلى انتصار يستثير إعجاب الناس ويغريهم باعتناق الإسلام.

والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأي يخالف في الفروع التافهة، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها، لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط. وينكر عقيدة الفداء التي ترتكز عليها، لأنه يبني الجزاء على عمل الإنسان وحده، فليس للإنسان إلا ما سعى، ولا تزر وازرة وِزْرَ أخرى.

ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهية، فليس للعالم إلا ربٌّ واحد، يخضع له عيسى وأمه عليهما السلام.

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرَّة فيضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود، فلا يستطيع التسرب منها، وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشري، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده، ويدعو للصلاة والفلاح.

وترامت إلى النبيّ ﷺ في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر، ـ وتاريخ النصرانية منذ تولت مقاليد الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت ـ فلم يَرَ النبيُّ ﷺ بدّاً من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبيّت، والتهيؤ لملاقاة الروم، جاء في أيام قيظ وقحط، والسير إليهم يتطلب جهداً مضنياً ونفقة كبيرة.

وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدَّة، بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات، وتملك موارد ثرَّة من الرجال والأموال...

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب، والسكوت على تحدي النصارى لهذا الدين، ورغبتهم الملحّة في القضاء عليه؛ يعتبر انتحاراً وبواراً، فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذاً، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض عليهم من تضحيات وتفديات.

وللظروف التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سمي جيش العسرة!!.

والآيات التي أنزلها الله في كتابه متعلقة بغزوة العسرة هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم. وقد بدأت باستنهاض الهمم لردِّ هجوم المسيحية على الإسلام، وإفهام المسلمين مغبَّة تقصيرهم في أداء هذه الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرَّة من التفريط في حماية دينه ونصرة نبيه ﷺ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مزلقة إلى الردَّة والنفاق:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٣٩].

ومضت الآيات تتحدث في صرامة وعنف، ففضحت المنافقين، وكشفت المترددين، وأعانت طلاب الدعة والراحة الذين آثروا القعود في ظل بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء ووعثاء السفر ومتاعب الجلاد:

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وأنباء جيش العسرة تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة.

ولعل من البين في أسلوب القرآن ـ وهو يصف هذا الجهاد ـ أنه لم تأخذه هوادة في التنويه بمن اشتركوا فيه، والتنديد بمن تخلفوا عنه.

ولا عجب، فتحديد موقف الإسلام مع النصرانية هو بتٌّ في مستقبل الدين كله إلى الأبد، فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة، وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لدينهم أثر، وكان لهذا الجزم أطيب النتائج.

فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها، فانطلقوا صوب

الشـمال، حيث تربض جيوش الروم، فلما وصلوا إلى تبوك، أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطيقون لقاءه، فاختفوا داخل حدود الشام.

وعسكر النبيُّ ﷺ وصحابته بإزاء هذه الحدود أمداً يسيراً، ولم يفكروا في اجتيازها، لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجمين!.

فبقـوا في أماكنهم قدر ما تشـعر القبائل القاطنـة بالحدود، وقدر ما يشعر النصارى أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال..

وفي تبوك عقد النبي ﷺ معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل، ثم قفل بعدها عائداً إلى المدينة[١]..

* * *

لو كانت لدى النصارى الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين إلى قواتهم الكثيفة.

ثم فاوضوا المسلمين في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكلا الدينين كرامته، وتتيح الحرية لمن شاء أن يعتنق أي الديانتين أحب.

لكن هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمع في مثله.

إنَّ الروم لا يجول بخلدهم أن يعترفوا بهذا الدين، وأن يعطوه مكاناً مساوياً بعقيدتهم، بله أن يوقروا صاحبه أو يكرموا أتباعه!.

إنّهم تراجعوا وراء حدودهم، كما تكمن الحية في جحرها، تنتظر الفرصة السانحة للدغة القاتلة.

حتى إذا كرَّ المسلمون عائدين إلى قلب الجزيرة، قاطعين ألوف الأميال، ظهرت القوات المختفية تنشر الفزع من جديد.

ولذلك ما إن عاد المسلمون حتى جاء (هرقل) فأمر بقتل (يوحنا بن رؤبة)

---

(١) انظر (فقه السيرة) للمؤلف، ص٤٠٢. (الناشر)

أمير (أيلة) ثم صلبه أمام قريته لأنه رضي بعقد صلح مع المسلمين . . !

فلا غروَ أن يفكر النبيُّ ﷺ بعد وصوله إلى المدينة في ضرورة إرساء علاقاته بالنصارى الروم على قواعد ثابتة، تكسر شدة هذا الطغيان المتكرر، لكن الروم متكبرون، وقد رأيتَ أتباع الإمبراطور يصفون النصارى العرب بالكلاب، وسياستهم في مصر تقوم على محو المذهب الأرثوذكسي.

فهل يتوقع منهم أن يهادنوا الإسلام؟ أو يسكتوا على دخول الشعوب فيه؟ كلا!.

فأيُّ حرج على المسلمين أن يستظهروا بالقوة لإقامة هذا العوج، عوج المتكبرين المتعصبين، الذين احتكروا حق الحياة لدينهم في الماضي، ويريدون احتكاره في المستقبل كذلك؟.

تلاقت هذه الأسباب كلها لدى النبيّ ﷺ المشغول بمصير رسالته، فاستقر رأيه على مناجزة الروم، حتى يضطرهم إلى معاهدة تبيح حرية التديُّن، يبقى بها المسلم مسلماً، والنصراني نصرانياً متى شاء.

وفي سبيل هذه الغاية أمر الرسول ﷺ بالاستعداد لقتال الروم، وكوّن جيشاً بقيادة (أسامة بن زيد) جمع فيه خيرة رجاله، بيد أن الموت عاجله قبل مسير الجيش، فذهب إلى الرفيق الأعلى، أصبر ما يكون على الحق، وأسمح ما يكون بالنفس والنفيس لتفديته وإعلاء كلمته، مات بعد أن وصل في جهاده لإمبراطورية الفرس إلى استخلاص اليمن وما جاورها، وبعد أن بلغ في جهاده لإمبراطورية الروم أن أدّب كبرياءها، وفلَّ سلاح العدوان الذي استغلته دهراً طويلاً، وترك لخلفائه من بعده أن ينتهوا بهذه الجهود إلى غايتها الموفقة في تحرير البلاد والعباد.

أجل في تحرير البلاد والعباد!.

* * *

ولنتابع هذه الألوية الزاحفة لنرى أكان خروج المسلمين من ديارهم بطراً ورئاء الناس؟ أم كان تحقيقاً للأهداف التي تنشدها الأمم الحرة، والتي داسها

الأقوياء المتناحرون على استرقاق البشر من الفرس والروم ومن أمثالهم في كل زمان؟.

أسرع أبو بكر في تنفيذ أمر النبي ﷺ بإرسال جيش أسامة، ليعيدَ إلى المسلمين هيبتهم بعد أن قتل الرومان الأمير الذي صالحهم، وبعد أن ألَّبوا أتباعهم من العرب على العبث بالمسلمين في شمال الجزيرة.

وقد التزم أبو بكر الحدود التي شُرع الجهاد من أجلها. فأمر رجال الجيش الزاحف أن يكونوا مُثُلاً كريمة لدينهم، فلا فساد ولا اضطهاد، ولا سلب ولا نهب.

قال أبو بكر لأسامة وجنده: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلُّوا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً، ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً، ولا بعيراً إلا للأكل.

وإذا مررتم بقوم فرَّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له... إلخ».

قارن بين هذه الأوامر وبين ما صنعته الولايات المتحدة ـ زعيمة الأمم الحديثة وسادنة الحضارة الحديثة كذلك ـ عندما أمرت طياريها في حربها الأخيرة مع اليابان، فألقوا القنابل الذرية على مدينتين آهلتين، فأحرقوا الحرث والنسل، واستحال الشيوخ والأطفال والنسوة إلى قيح وصديد ولحم عَفِن، وعظام نخرة، وأنقاض متداعية، كأن لم تغن بالأمس.

لقد استحل الغربيون لأنفسهم المنكر محتجين بأنهم يبشرون بقضايا العدل والحرية بين أمم لا تعرف العدل والحرية!! والعالم كله يعرف أنهم في هذه المزاعم كاذبون.

ولو فرضنا ـ جدلاً ـ أنهم صادقون، فإن المثل العالية لا تحقق بالمسالك النابية.

فهذا أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ يأمر جيشه بتأديب النصارى، الذين ضنُّوا على العالم بالحرية الدينية، فيرسم للجيش معالم لا يتخطاها، حتى لا يكتوي

بنيران الحرب من لا يحملون جريرتها من نسوة وولدان.

دار القتال بين العرب والروم، أو بالأحرى بين المسلمين والنصارى.

وشعر الإمبراطور (هرقل) أنه يلاقي صنفاً من الناس على غير ما عهد في حروبه الكثيرة، فأشار على قومه أن يعقدوا مع المسلمين صلحاً حسناً، وقال لهم:

«أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم أحب إليكم من أن يغلبوكم على بلاد الشام ونصف بلاد الروم».

ورفض النصارى هذا العرض من ملكهم، وأجمعوا أمرهم على القتال.

كان أبو بكر قد أرسل جيوشاً أخرى من قلب الجزيرة لإرساء العلاقات مع الروم على قواعد واضحة.

وليس يعنينا هنا ـ كما قلنا ـ سرد أخبار المعارك، بل نريد رسم صورة صادقة للروح الذي يهيمن على المسلمين في خصامهم مع أعدائهم، حتى يستبينَ المنصفون أهدى الفريقين وألصقهما بالعدل وأجدرهما بالنصر!!.

كتب أبو بكر ليزيد بن أبي سفيان، قائد المسلمين بجهة فلسطين يقول له:

«إني قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك، وإن أسأت عزلتك!.

فعليك بتقوى الله، فإنه يرى من باطنك مثل الذي يرى من ظاهرك.

وإن أولى الناس بالله أشدهم تولياً له، وأقرب الناس من الله أشدهم تقرباً إليه بعمله.

وقد ولَّيتُكَ عمل خالد بن سعيد بن العاص ـ الوالي السابق ـ فإياك ونخوة الجاهلية، فإن الله يبغضها ويبغض أهلها.

وإذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، وعِدْهم إياه.

وإذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً.

وأصلح نفسك يصلح لك الناس، وصلِّ الصلاة لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسجودها والتخشُّع فيها.

وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون.

ولا ترينَّهم - حقيقة جيشك - فيروا خللك، ويعلموا علمك.

وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم.

وكن أنت المتولي لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك.

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخزِن عن المشير خبرك فتؤتى من قبلك.

واسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عندك الأستار.

وأكثر حرسك، وبدلهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك.

فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط؛ واعقب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها أيسرها لقربها من النهار.

ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجنَّ فيها، ولا تسرع إليها.

ولا تغفل عن عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العابثين.

وجالس أهل الصدق والوفاء، واصدق اللقاء، ولا تجبن فيجبن الناس.

واجتنب الغلول، فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر.

وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له. . . ».

أوعيت هذه النصائح الغالية؟ .

أرأيت ما فيها من فقه عميق لسياسة الدين والدنيا؟ .

أرأيت في أي جو من العفة والنبل تحلِّق؟ .

هذه توجيهات التلميذ الأول لمحمد ﷺ، للجيش الذي اضطلع بقتال النصارى من الروم.

الروم الذين برزوا بقيادة إمبراطورهم هرقل يريدون أن ينفردوا في الأرض بالسيادة كي يملؤوها جوراً وتعصُّباً وظلاماً.

إنه لا مناص من أن ينهزم هؤلاء المغرورون بقواهم أمام الركع السجود:

فأدبروا ووجوهُ الأرضِ تلعنُهم   كباطلٍ مِنْ جَلالِ الحَقِّ مُنْهَزِمِ

* * *

إن فيض اليقين الذي نضح على قلوب هؤلاء العرب من الرسالة الخاتمة هو بداية التاريخ الحق لقوم لم يعرف لهم قبل تاريخ، ولم يحمل آباؤهم للناس هداية.

والنهضة التي أقبلت من وسط الجزيرة لم تبدأ وليدةً غضَّةً ثم نمت على مرِّ الأيام، بل تكشف عنها صمت الصحراء السائد، فإذا هي عملاق يفاجئ المبطلين بوكزاته، ويمسك بخناقهم حيث كانوا. .

لاحَ للأعين كلها أن أولئك المسلمين يجهلون أتمَّ الجهل سياسة الانتهاز والمرواغة والاصطياد في الماء العكر، والاستعانة بعدو على عدو، إلى غير ذلك مما يتقنه تجار السياسة، ويستنكره أصحاب المبادئ. . لا. .

إنهم حملة عقيدة، ورجال مثُل، وطلَّاب آخرة، صمدوا بدينهم في مهب الزعازع، وقبلوا العراك عليه في ميادين متشابكة.

ففي الوقت الذي أُكرهوا فيه على مقاتلة الروم، ودفعوا بجيوشهم إلى الشَّمال في صراع خطير مع المسيحية المدلَّة بقواها.. كانت جيوشهم تدق أبواب فارس في جبهة أخرى لا تقل عن أختها خطراً..

إن إفلات العرب من عواقب حرب تنشب بينهم وبين الروم فحسب، أو بينهم وبين الفرس فحسب، يعتبر لهم كسباً جليلاً!!.

فكيف وقد أحرزوا النصر في ميدانين هائلين؟.

وهو ليس نصراً عسكرياً في معركة تكسب فيها أرض أو تخسر فيها أرض، بل هو نصر في توجيه الأجيال، واستنقاذ الشعوب، وصبغ العالم بحضارة فيه إلى الأبد...

هذه هي المعجزة التي لم يعرفها فتح من قبلُ ولا بعدُ..!

* * *

لقد تابعنا الألوية المنتصرة في تقدمها الظافر، وشرحنا الأسباب المباشرة للقتال الذي خاضته..

ونريد أن نتساءل: هل من واجب المؤرخ المنصف استقصاء هذه الأسباب الموقوتة لتبرير ما وقع من حروب؟.

إننا نستغرب لما ذا يتحول الحق المغتصب إلى حق مكتسب؟ تقوم له حرمة وتصان له حدود، ويسمى التعرض له عدواناً؟.

إنَّ هذا ـ للأسف الشديد ـ ما تواضع المجرمون على إقراره.

فإذا احتلت فرنسة بلاد المغرب، وأذاقت أهلها الخسف؛ وملأت أفئدتهم بالخوف، ثم جاء من يستنكر ذلك، ويعلن سخطه، صاحت فرنسة:

ما لكم تقحمون أنفسكم في مسائل داخلية لا شأن لكم بها؟.

إن المغرب قطعةٌ من فرنسة نفسها، يعتبر التعرض له خصومة لفرنسة تمتشق الحسام دفاعاً عنه!.

أرأيتَ إلى الوقاحة كيف تقلب الأوضاع، فتردُّ الحق باطلاً والباطل حقاً؟ .

أتحسب أصحاب هذا المنطق المريض يعالَجون بنصح أو يخاطَبون بأدب؟ أم أن أفضل دواء لهذه الرؤوس الملتاثة أن تُقطع لتستريح الأرضُ من طرائق تفكيرها؟

ومن الذي يعتبر مطاردة الفرنسيين في أرجاء المغرب هجوماً باغياً؟ .

أو من الذي يعتبر تعقُّب جيوشهم في أرض فرنسة ظلماً شنيعاً .

ومن الذي يبكي ويستبكي لو دكت أسوار (باريس) وتنفَّس المضطهَدون الصعداء لذهاب ريحها؟ .

ليس في شيء من ذلك عيب، بل العيب كله في عدم وقوع ذلك .

فإذا قيَّض الله للعالم في عصوره الوسطى قوَّةً فاضلة مبرأة تلتمس وجه الله في تغيير الشر، ومحو آثاره السود، جاء من المغرضين والأفاكين من يتَّهم المحررين بالاستعباد، ويلصق بهم ما هم منه براء .

إن أصحاب محمد ﷺ أسدوا صنيعاً لا ينسى فضله يوم صنعوا من جسومهم جسوراً عبرت عليها الأضواء والمروءات إلى العراق والشام، وغيرهما من البلاد التي رزحت آماداً طوالاً تحت وطأة القياصرة والأكاسرة .

وكم نود لو أن قوة أخرى تتكون في هذه العصور الحديثة لتنقذ العالم العاني من عراك الجبهتين المتطاحنتين على قتله وأكله .

* * *

لندع المسلمين يقاتلون النصارى الروم في الشام، ولننظر إلى الجبهة الأخرى حيث اشتبك المسلمون بالمجوس العجم! .

بدأ القتال في هذه المنطقة بهجوم (خالد بن الوليد) على ثغر الأُبُلَّة . وكان أميره مبغضاً لدى العرب من سوابق عدوانه عليهم، واجتياحه لبلادهم، فما إن رأوا الجيش يستعد لمنازلته حتى سارعوا إلى النفير معه .

ولسنا ـ كما قلنا ـ وُصّاف معارك، وإنما نبرز هنا أمراً أصدره أبو بكر لخالد ابن الوليد والمثنى بن حارثة.

فقد طلب إليهما أن يستنهضا مَنْ قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد موت الرسول ﷺ، وألا يستعينا بمرتد، وأن يسيرا بمن يحب، ولا يستكرها أحداً.

فانفضَّ عنهما كثير ممن معهما!!.

ما هذا الأمر الغريب من خليفة يقاتل الفرس الذين دوَّخوا الروم عدة قرون؟

كيف لا يستعين على قتالهم بكل حيٍّ يستطيع تجنيده؟.

لا... إن الخليفة يرى الجهاد في سبيل الله شرفاً لا يرشَّح له إلا الأكْفاء، إن الأمر في نظره ليس مغانم يتسابق الأعراب لنيلها.

إنها رسالة تستمد قوتها قبل كلِّ شيء من إيمان رجالها، وتفانيهم، ثم تسير بعدئذٍ في ضمان السماء.

ومن ثَم أصدر الخليفة أمره إلى قائده أن يحتفظ بخلاصة نقيَّة من الرجال الموقنين الثابتين، فذلك أجدى عليه من الغثاء الكثير.

كما أصدر الخليفة أمراً آخر إلى خالد: «تآلف أهل فارس، ومن كان في ملكهم من الأمم».

أجل؛ فإن القتال في الواقع لملوك فارس وأمرائها لا لفلاحيها وأجرائها فلأولئك المستضعفين جاء الإسلام ليخلصهم من الهوان، ويخرجهم من الظلمات إلى النور...

وقد حرص خالد في موقعه ألا يمسَّ الفلاحين بسوء، وأن يعرض عليهم الجزية والذمَّة فيجيبوا ويتراجعوا.

النصارى والمجوس يتحالفون ضد الإسلام:

كلما رجع المرء ببصره في تاريخ المسيحية يتبيَّن له بُعْدُ الشقة بين حاضر

هذه الديانة بعدما عبثت بها الأيدي، وبين ماضيها العريق، يوم تنزلت من السماء آيـات بينات، وكان إنجيل عيسى عليه الصلاة والسلام دستورها الفذ، ذلك الإنجيل الذي قال الله فيه وفي رسوله: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٤٦].

إلاَّ أنَّ الشرود الذي عرا المسيحية أفقدنا الأمل في عودتها إلى قواعدها، لا في ميدان العقيدة فقط، بل في ميادين الحرب والسلم كذلك، وهذا الشرود هو الذي زيّن لها أن تناصب الإسلام العداء، وأن تمنع العرب عن اتباع نبيه.

فلما انقضت سنتان على موت النبي الأمين ﷺ كانت المسيحية تظاهر المجوسية في فارس ضد الإسلام!!.

ماذا كان يضير النصارى لو أنهم تركوا الإسلام يحيا كما تحيا أديان كثيرة فيها الحق وفيها الباطل؟!.

وإذا كان المسيحيون يحسبون أنفسهم أهل كتاب نزل من السماء، فأي حرجٍ يصيبهم لو أنهم تركوا المسلمين ـ الذين يزعمون أنفسهم أصحاب دين سماوي ـ ينتصرون على المجوس، الذين يصارحون بأنهم لا صلة لهم بالسماء وكتبها؟.

إنَّ الروم ناوشوا الأكاسرة طويلاً، فعجزوا عن إسقاط ملكهم، وقد حزن المسلمون قديماً لما أصاب المسيحية من هوان على أيديهم.

فهل بلغ من حقد آباء الكنيسة أن يحالفوا أعداء الأمس كيما تواتيهم الفرصة للقضاء على دين التوحيد فيخلوا الجو لوثنية فارس، وللطقوس المبهمة التي سميت أخيراً مسيحية؟.

إن ذلك ـ على أي حال ـ ما سجله التاريخ!.

* * *

ظهر النصارى في الحرب الفارسية بعد وقعتي (الأبلة) و(الثني)، إذ قاتلوا

مع الفرس في معركة (الولجة) ـ وهؤلاء النصارى من العرب لا من الروم ـ وقد انهزم الفرس وتكبدوا خسائر جسيمة.

وأصيب كثير من نصارى (بكر بن وائل)، فغضب لهم حلفاؤهم، وقرروا الانضمام إلى الفرس ضد المسلمين.

فلما بلغ خالداً تجمُّع نصارى العرب من (بني عجل)، و(تيم اللات)، و(عرب الضاحية) من أهل الحيرة، ولحاق المجوس بهم أسرع إلى ملاقاتهم في وقعة (أليس) حيث أنزل بهم كارثة جعلت دماءهم تخالط ماء النهر، فسمي إلى اليوم نهر الدم.

وتقدَّم خالد إلى الحيرة، وكان الرجال قد تحصَّنوا في قصورها، فأجال الخيل في عَرصاتها، وأدار المعركة في الشوارع بالخزف والنبال.

فأحسَّ الرهبان أن الأمر جد، واستنزلوا أهل القصور يطلبون الصلح.

وكان أول الرؤساء طلباً للصلح عمرو بن عبد المسيح، ثم تبعه غيره.

فكان من كلام خالد لهم:

«ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم؟ فما تنقمون من العدل والإنصاف».

وأمضى معهم صلحاً لا بأس أن نذكر نصَّه(١):

«هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعمراً ابني عدي، وعمراً بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة، وحيرى بن أكّال، وهم نقباء أهل الحيرة، ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به.

عاهدهم على تسعين ومئة ألف درهم، تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيساً عن الدنيا، تاركاً لها، وعلى المنعة..

---

(١) د. محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٣٧٩.

فإن لم يمنعهم فلا شيء عليهم حتى يمنعهم، وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة. كتب في شهر ربيع الأول سنة ١٢ هـ».

وهذه المعاهدة تقسم النصارى فرقتين:

فرقة منقطعة إلى العبادة، لا تبسط للمسلمين يداً بأذى، فأولئك يتركون وشأنهم، لا تفرض عليهم جزية، كالرهبان المعتزلين صوامعهم وأشباههم من المسالمين.

وأخرى محاربة، يخشى شرها، بل هي أساءت إلى المسلمين فعلاً، وهؤلاء تؤخذ منهم الجزية.

وكلتا الفرقتين لا يحجر على حريتها الدينية، ويفرض على المسلمين أن يردوا عنهم العدوان، فإذا فرَّطوا في ذلك سقط حقهم في الجزية.

ونكرر مرةً أخرى أن هذه الجزية كانت رحمة يتمنى المسيحيون قديماً لو تعاملوا بها حتى يأمن أشياع الكنائس المختلفة بطش بعضهم ببعض.

فليذكر من يعيبون نظام الجزية أن النصارى المنتصرين سلبوا خصومهم حق الحياة، فلم يقبلوا من أحد فدية.

وليذكروا أن النصرانية التي ظاهرت المجوس ضد الإسلام لو ظفرت بالمسلمين ما أبقت لهم حقيقة ولا اسماً، ولأضحوا اليوم في خبر كان..!!

وجاء في معاهدة خالد مع صلوبا بن نسطونا صاحب قُس الناطف في شأن أداء الجزية:

«... القوي على قدر قدرته، والمُقلُّ على قدر إقلاله، في كل سنة.. فإن منعناكم فلنا الجزية، وإلا فلا حتى نمنعكم..».

وفي موقعة (عين التمر) استولى خالد بن الوليد على الحصن والكنيسة،

فوجد بالكنيسة أربعين صبياً يتعلمون الإنجيل فسأل عنهم: ما هؤلاء؟ قالوا: رهائن! .

ففرقهم خالد على أسر المسلمين، فكان منهم الرجال الذين أعقبوا موسى ابن نصير القائد الشهير، ومحمد بن سيرين المحدِّث المعروف .

وكانت وقعة (الفراض) من أعنف وقعات الفتح، إذ التقى الحلفاء الحانقون على الإسلام من مجوس الفرس، ومن نصارى الروم والعرب جميعاً، بجيش خالد بن الوليد .

ولما تلاقت الجيوش المتحالفة وتذاكرت ماضيها القريب في قتال المسلمين صاح الروم: «امتازوا حتى نعرف اليوم ما كان من حَسَن أو قبيح من أينا يجيء» .

فامتازت صفوفهم ليبدي كل صف غاية ما لديه من بلاء! .

بَيْد أن ذلك لم يغير من عقبى البغي للبغاة، فانكسروا جميعاً .

وقيل: إن خسائر الفرس والروم والعرب في هذه المعركة نحو مئة ألف، لم يُجدهم تحالفهم شيئاً. . . ومضت الألوية المنتصرة تشق طريقها لتحرر العبيد، وتهشِّم القيود .

وفي تلك المعركة أنشد القعقاع بن عمرو:

لقينا بالفِراضِ جُمُوعَ رومٍ وفُرْسٍ غَرَّها طولُ السَّلامِ
أَبَدْنا جمعَهُمْ لمَّا التقينا وبيَّتنا بِجَمْعِ بني رِزامِ
فما فَتِئَتْ جُنودُ السِّلْمِ حتَّى رأينا القومَ كالغَنمِ السَّوامِ

والقارئ يلحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يسمي جيش المسلمين جنود السلم، ويؤاخذ الروم والفرس وحلفاءهم بأنهم استحمقوا من طول مسالمة المسلمين لهم حتى إذا لجُّوا في غوايتهم حلَّ بهم النكال. . .

ومن حق المرء أن يتساءل: أما كان هناك موضع لسلم شريف يصون هذه الدماء الغزيرة أن تسفك، وهذه الأرواح الغالية أن تهلك؟؟ .

ولا نشك أنه كانت ثمّة مندوحة من التورُّط في هذه الحرب الشعواء، وإنما يحمل أوزارها من بغى، لا من نهض يؤدب البغاة . .

هناك صنفان من الناس لن تذوق الأرض حلاوة السلم ما بقيا:

أولهما: الرجال المفروضون على الدنيا يحكمونها بأمرهم، ويسترقّون البشر بسلطانهم.

والآخرون: الرجال المفروضون على الدين، يحسبون مفاتيح الآخرة بأيديهم وحدهم، وأن الطريق إلى الله لا تتيسَّر إلا بإذنهم، فمن نأى عنهم فهو هالك . .

وقد وقف الصنفان كلاهما في وجه الإسلام يستنكران عليه دعوته، ويتظاهران ضده.

أما كسرى ـ وهو مثل الجبارين من أهل الدنيا ـ فقد مزَّق إعلان الهداية الذي بلغه، وأرسل إلى رجاله يطالبهم بالقبض على محمد ﷺ وقتله!!.

وأما المحترفون من آباء الكنيسة ـ وهم المفروضون على الدين ـ فإن تاريخهم قبل بعثة الرسول ﷺ بقرون، وبعده ببضعة عشر قرناً، مشحون بصور قانية من مصادرة الآراء والتنكيل بحرية العقيدة.

ولما استطاع الغرب في العصر الحديث إقصاء الكنيسة عن الحياة العامة، بقيت وساوس رجالها تنفث في المجتمع إلى هذا اليوم.

وقد قرأنا أخيراً ثورة الجمهور الإنكليزي على الأميرة (إليزابيت)، لأنها زارت (بابا رومة) زعيم الكاثوليك مع أنها بروتستانتية.

فإذا كانت قضايا المسيحيين الدينية ظلت دهوراً لا يحلها القساوسة إلا بالسيف، أفكان المسلمون من الغباء بحيث يقفون عزّلاً في معترك يحكمه الحديد والنار؟؟.

لو أن الدعاية إلى الدين تقوم على منبر حر ومستمعين أحراراً لأرسل الإسلام

رجاله يشـرحون دينهم لمن يجهله، ويفنِّدون ـ بأدب ولين ـ ما يأخذونه على الأديان السابقة، وكيف مسخها التحريف وشوهتها الأغراض.

إن الإسلام لم يطلب أكثر من هذا، وهو مستعدٌ أن تشرح كذلك وجهات النظر التي يعتنقها الآخرون، وأن توفر لهم الحرية لقول كل ما عندهم، والإسلام لن تضيره أبداً هذه الحلبة الحرة.

بَيْد أن رجال الكنيسة ينكرون هذا الأسلوب في عرض قضايا الإيمان، وهم لم يجربوه منذ ملكوا زمام الحكم في الدنيا، ما جربوا إلا الاضطهاد والتعذيب ينصبُّ على رؤوس من خالفهم.

فأيُّ عاقل يلوم الإسلام على ردِّه ضربات المسيحيين بمثلها؟؟.

إن من رحمة الله بالناس أجمعين أن أعان قادة الإسلام الأوائل على حسم هذه الشرور.

وقد مضت ألوية المنتصرين إلى غايتها النبيلة كما رأيت على عهد الخليفة الأول.

لم يعقها تساند النصارى والمجوس في الكيد للإسلام ومحاولة الخلاص منه.

* * *

فلمَّا ولي عمرُ أَمْرَ المؤمنين حافظ على أهداف الفتح.

وهي تنحصر في كسر شوكة الملوك، وإقرار الحرية الدينية، وتنزيه الفاتحين عن اقتراف المآثم التي يعرفها التاريخ لمئات القادة والساسة ممن يسيحون في الأرض ابتغاء المجد والمتعة..

فالجهاد في الإسلام إذا اقترن به هوى من أهواء الشهرة أو الثروة، حبط أجره، وسقط عند الله قدره.

إنه عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا، ومحرر عبيد لا مستعبد أحراره، ومصلح أوضاع لا مثير فوضى، فإذا لم تتحقق هذه المعاني في القتال فالإسلام منه بريء.

وما أحوج العالم بين الحين والحين إلى مجاهدين من هذا الطراز السامي، يغسلون الأرض من أوضارها المتكاثفة، ويردون إليها صوابها إذا سلبه الجبارون من أهل الدنيا، أو الدجالون من رجال الدين.

ووصايا عمر لقادته تشعرك بأن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا بشراً معتادين بل كانوا ملائكة مُكْرمين.

انظر إلى ما كتبه إلى (سعد بن أبي وقاص) في جبهة فارس قال:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال.

فإن تقوى الله أفضل العدَّة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب.

وآمرك ومَنْ معك أن تكونوا أشدَّ احتراساً من ذنوبكم منكم من عدوكم، فإنَّ ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم.

وإنَّما يُنصَرُ المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم، وعدَّتنا ليست كعدَّتهم.

فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلاَّ نُنْصَر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا.

فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله.

ولا تقولوا: إن عدونا شرٌّ منا فلن يُسلَّط علينا، فربَّ قوم سُلِّط عليهم من هو شر منهم! كما سُلِّط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمعاصي الله ـ كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً.

وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، وأسأل الله ذلك لنا ولكم.

وترفَّق بالمسلمين في سيرهم، ولا تجشِّمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم، ـ والسفر لم ينقص من قوتهم ـ فإنهم سائرون إلى عدو مقيم، حامي الأنفس والكراع.

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم.

ونحِّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا يرزأ أحدٌ من أهلها شيئاً.

فإنَّ لهم حرمة وذمة، ابتليتم بالوفاء بها، كما ابتلوا بالصبر عليها.

فما صبروا لكم فتولوهم خيراً، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

وإذا وطئت أرض العدو فأذك[1] العيون بينك وبينهم، ولا يخفَ عليكم أمرهم.

وليكن عندك من العرب ـ أو من أهل الأرض ـ من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعض، والغاش عينٌ عليك وليس عيناً لك... إلخ».

إذا هبطنا من السماء إلى الأرض، وانتقلنا من نصائح (عمر) في الحرب الإسلامية إلى أوامر (تشرشل) في الحرب الديمقراطية، وجدنا رجلاً يقول: أنا أحالف الشيطان في سبيل الوصول إلى أغراضي..!

ووجدنا عهوداً تكتب ثم ينكث بها قبل أن يجفَّ مِدادُها..!

---

(١) أذك العيون: أرسلها وأكثر منها. والعيون: الجواسيس.

ووجدنا المهزوم مفروضاً عليه أن يسلم بدون قيد ولا شرط.

ووجدنا قائداً أمريكياً في الفليبين يطارد غلاماً ليفسق به.

ووجدنا الجنود حيث كانوا ينظَّم لهم البغاء، وتُمهَّد لهم الجريمة، ويباح لهم النهب، وذلك كله من أموال وأعراض البلاد المفتوحة..

وبرغم هذا البَوْن الشاسع بين السماء والأرض، بين حروب الإسلام في العصور الأولى، وحروب الغرب في العصور الحديثة، لا تعدم وقحاً سود الضغن قلبه على هذا الدين الحنيف، فهو يتَّهم الفاتحين الملائكة بسوآت آبائه وزعمائه من الساسة والقادة.

والمستشرقون والمبشِّرون من وراء هذا الإفك المفترى يحسبون أنهم إذا هدموا الإسلام بهذه الأوهام فقد خدموا النصرانية وأمدوا لها حبل البقاء.

وعمر الذي يُصدر أوامره تلك لقائد المسلمين في فارس يدري درايةً جيدة من هم الذين يقاتلونهم، وأيُّ فسادٍ تغلغل في صفوفهم ونفوسهم، ومكَّن له حكم الفرد المتأله في بلادهم.

لذلك قال لأبي عبيد بن مسعود حين وجهه لقتال فارس:

«إنك تقدم على أرض المكر والخديعة، والخيانة والجبرية، تقدم على قوم تجرؤوا على الشر فعملوه، وتناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون، وأحرز لسانك، ولا تفشين سرك...».

ومهما انحدر مستوى البلاد المفتوحة فما يجوز ظلمها ولا هضمها، وما ينبغي أن يروا من المسلمين إلا جوانب متألقة بالعفة والاستقامة والنزاهة.

ترى كم استغل الجنس الأبيض في عصرنا هذا تخلف الأجناس الأخرى لبسط سلطانه وإطلاق شهواته..؟

وماذا صنعت الكنيسة المنهزمة في بلادها عندما أقبلت في مؤخرة قوات الغزو والاستعمار؟؟ جاءت لتبارك سُرَّاق الشعوب، لقاء أن يباح لها الكلام مع

الزنوج والهنود عن الثالوث وصلب عيسى فداءً للخطايا[1].

إن الحديث يتشعب بنا لو استقصينا ما كان يصنع المسلمون لمصلحة الأمم التي اتصلوا بها، ثم قارنا بين فتح وفتح . . . فلنطوِ هذه القصة متعجلين ختامها، لنستكمل بحثنا من جوانبه الأخرى . . في محاورة بين عمر والهرمزان ـ وكان قد أُسِر بعد انتقاضه على المسلمين، وإمضائه معهم عهداً ـ قال عمر للزعيم الفارسي :

«لعل المسلمين يؤذون أهل الذمة فلذلك ينتقضون؟؟ .

فقال رجال فارس : ما نعلم إلا وفاء!! .

قال عمر : فكيف يحدث هذا؟ .

فقال الأحنف بن قيس : ياأمير المؤمنين إنك نهيتنا عن الانسياح في البلاد، وإن ملك فارس بين أظهرهم، ولا يزالون يقاتلوننا مادام ملكهم فيهم! ولم يجتمع ملكان متفقان حتى يخرج أحدهما الآخر .

وقد رأيت أنّـا لم نؤخذ شيئاً بعد شيء إلا بانبعاثهم وغدرهم، وأن ملكهم هو الذي يبعثهم، ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا بالانسياح فنسيح في بلادهم، ونزيل ملكهم، فهنالك ينقطع رجاؤهم .

فقال عمر : صدقتني والله بها»! وصمم على اتباع مشورته . .

* * *

ماذا يبغي ملك فارس؟ لقد حمل شعبه قوائم عرشه حتى ناء بأثقالها، فكان جزاء ولائهم له أن أكل في السلم صحيحهم وسقيمهم، واستذل غنيهم وفقيرهم، وأصدر أمره (الكريم) إليهم أن يكونوا عبيده المخلصين في حرب الإسلام ومشاقة نبيه ﷺ . . فساروا وراءه مسحورين ببريق التاج وميراث السيادة، حتى إذا تلاحقت الهزائم، وهتكت قوى الإيمان أستار الجبروت المكذوب، وقرر العبيد عقد

---

(١) انظر (التبشير والاستعمار) للدكتور عمر فروخ ومصطفى الخالدي . (الناشر)

معاهداتٍ متكافئة الدم مع الفاتحين الذين ساقتهم الأقدار . . أبى الملك المتشبِّث بأذيال ماضيه إلا أن يحرِّض (الرعية) على الغدر، ويحثَّهم على معاودة القتال مع المسلمين .

لو لم يكن للفتح الإسلامي من ثمرات إلا أنه هدم هذه الوثنية السياسية، وأحرق آثارها، لكانت تلك يداً جليلة يشكرها العالم له . .

فلما أحسَّ كسرى باليأس من بقاء ملكه رأى أن يهرِّب أمواله وكنوزه إلى قطر آخر، فينتقل إليه بثروته، إن لم يستطع الانتقال إليه بسدته!! .

بَيْد أن الشعب الذي استيقظ آخر الأمر حَرَمه من هذا الأمل الباقي .

قال الأستاذ محمد الخضري : قصد (يزدجرد) شطر (مرو)، فحصر حاميتها، واستخرج منها خزائنه، وأراد أن يرحل بها إلى (فرغانة) أو (الصين) فيقيم بإحداهما، فلم يمكِّنه من ذلك أهل (خراسان) قائلين : ارجع بنا إلى هؤلاء القوم ـ المسلمين ـ فصالحهم، فإنهم أوفياء وأهل دين . . .

وإن عدواً يلينا في بلادنا أحب إلينا من عدوٍ يلينا في بلاده ولا دين له، ولا ندري ما وفاؤه .

فلم يقبل، فأخذوا منه الخزائن قهراً، فلحق (بخاقان) ملك الترك، الذي لم يتمكن من الوقوف أمام المسلمين .

وجاء الخراسانيون إلى الأحنف بن قيس فصالحوه، ودفعوا إليه خزائن (كسرى) وتراجعوا إلى بلدانهم وأموالهم موفورين، فكانوا أفضل حالاً من أيامهم على عهد الأكاسرة، واغتبطوا بملك المسلمين، لأن الرجل منهم لم يكلَّف إلا بدفع شيء قليل جزاء حمايته، أما بعد ذلك فماله وعرضه ودمه كمال المسلم وعرضه ودمه، محرم كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام، وناهيك بمن اعتبره المسلمون في ذمة الله ورسوله ﷺ فكيف يخفر؟ .

وليس عليه ـ بعد ـ إلا النصيحة للمسلمين، وألا يمالئ عليهم خصماً، فإن ارتكب شيئاً من ذلك فقد غدر، وليست له ذمة .

تلك نهاية الطاغوت في فارس.

أما جبهة الشام حيث النصرانية مشتبكة مع الإسلام فقد شاء الله أن يذوق المعتدون عاقبة تحديهم للدين الناهض، فانهارت قواهم في معركة (اليرموك)، وكانت الهزيمة التي حاقت بهم قصاصاً عادلاً لما أسلفوا من سيئات غليظة يوم قتلوا الدعاة المسلمين على حدود الشام، ويوم صلبوا من أراد مسالمة النبي ﷺ من الأمراء المؤثرين للسلام..

واطَّرد سير الألوية المنتصرة، ففتحت دمشق، وحمص، وبيت المقدس، ورحَّب الأهلون بقدوم العرب، وفرار حكامهم السابقين، وذلك لما سبق مجيئهم من شهرة بالتسامح والنزاهة، وهم قد عانوا الأمرين من تعصب الكثلكة، وعسف الأباطرة والولاة.

وتستطيع أن تدرك البَوْنَ الشاسع بين طبيعة الحكم الإسلامي وطبيعة الحكم المسيحي في هذه العصور البعيدة، من موقف الفريقين بإزاء المعابد المخالفة.

فإن الرومان كانوا يغتصبون من الأرثوذكس كنائسهم، ويحوِّلونها إلى كنائس كاثوليكية غير مكترثين بحرمة العقائد وغضب العامة.

لكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قدم بيت المقدس، ودخل كنيسة القيامة، حضرته الصلاة!.

فقال للبطريرك: أريد الصلاة!.

فقال له البطريرك: صَلِّ موضعك.

فامتنع عمر، وخرج من الكنيسة فصلى قريباً من بابها، وصلى وحده، فلما فرغ من صلاته قال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدي، وقالوا: هنا صلى عمر.

وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة ـ درجة السُّلَّم حيث صلى ـ كما أمر ألا يؤذن عليها..

ثم قال للبطريرك : أرني موضعاً ابني فيه مسجداً .

فاختار البطريرك مكان الصخرة ، لأن الله ـ كما يُحكى ـ كلّم يعقوب عليها؟ وكان بالمكان ردم كثير ، فشرع عمر في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه ، واقتدى به المسلمون كافة ، فزالت الأنقاض المتخلفة وأمكن بناء المسجد .

ذاك صنيع الخليفة الراشد عمر ، والمسلمون في أوج قوتهم .

والإمبراطور هرقل يلمُّ فلول جيشه المدحور قافلاً إلى القسطنطينية بعدما لفظ الاستعمار الروماني أنفاسه الأخيرة في هذه الساحة الرحبة .

وليس يؤثِّر في مسلك المسلمين ، أو يؤخذ على العهود التي أبرموها أي اتجاه إلى الفتنة عن دين ، أو الاحتقار لشعيرة مخالفة .

وقد ودعت الشعوب المغلوبة حكام الأمس ، واستقبلت حكام اليوم ، وقارنت عن كثب بين الرفقاء الجدد ، الذين لا يشربون خمراً ، ولا يقترفون وزراً ، والذين يحمل خليفتهم التراب في حِجْره ، ويشارك في بناء المسجد بعرقه وجهده .

فلما وَعَت هذه الصورة ، واستخرجت من دفائن الماضي القريب صورة الإمبراطور المختال في حاشيته ، المتعالي في أبهته ، ومن حوله البطارقة والأمراء والكبراء يحتسون الخمور ، ويرتكبون الآثام ، ويهضمون الجماهير . . لم يجدوا حرجاً ، بل وجدوا ألف وازع يغريهم بالدخول أفواجاً في الدين الجديد ، فلما دخلوا فيه ، لم يلبثوا إلا قليلاً حتى نقلوا الإسلام من عواصمه الأولى حيث نزل الوحي ، إلى عواصمهم أنفسهم ، معتقدين أن الإسلام مبادئ عامة لا يحتكرها مكان دون مكان ، ولا يختصُّ بها جنسٌ دون جنس .

إن هذا النجاح الذي أحرزه الإسلام جعل رجال النصرانية يزدادون جماحاً وتعصباً ، فلم يفكروا في تغيير سياستهم نحوه ، ولم يعاودوا النظر فيما لديهم من طقوس وتقاليد .

ولو أن النصارى ـ مع إصرارهم على ما لديهم ـ اعترفوا بالإسلام كدين ينزِّه العذراء مريم ، ويكرّم السيد المسيح ، ويدعو إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ،

ويحضُّ على التخلُّق بالفضائل العالية، ويحارب الفسوق والمعاصي والأرجاس.

لو أن النصارى أبدوا شارة الرضا ببقاء الإسلام يعمل جنباً إلى جنب مع دياناتهم التي يستمسكون بها لكان هناك مجال واسع لتقريب مسافة الخُلف، ومنع غوائل الحرب أن تفتك بأجيال عديدة وتورث البغضاء أجيالاً أخرى.

لكن التعصب الأعمى مضى بأربابه في متاهة طامسة.

فالنصارى الذين حالفوا المجوس ضد الإسلام، رأوا بعد هزائمهم في سورية أن يشنُّوا حرباً من الأكاذيب ضد صاحب الرسالة الخاتمة، شحنوها بمفتريات لا تخطر على بال عاقل.

وانطلق الحاقدون على الإسلام ونبيه ﷺ يصفونه بأقبح الخصال، وأشنع السير، فزعموا: «أن محمداً لصٌّ نِيَاق، وزعموه متهالكاً على اللهو، وزعموه ساحراً، وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطريق!.

بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً محنقاً أن لم ينتخب لكرسي البابوية.

وحسبه بعضهم إلـٰهاً زائفاً يقرِّب له عبَّادُه الضحايا البشرية..».

وإن (جيرد نوجن) نفسه ـ وهو رجل جد ـ فيذكر أن محمداً مات في نوبة سُكرٍ بيِّن، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الرَّوْث، وقد أكلت منه الخنازير[١]... إلخ.

أرأيت هذه الحرب التي أعلنتها الكنيسة على الإسلام؟.

إنها ما تزال إلى عصرنا هذا حامية الوطيس في أوروبة وأمريكة، ولا يزال المبشِّرون السفهاء يحملون جرائمها في دمائهم الملوثة[٢].

وآخر مظهرٍ لسورة هذه الأضغان الكامنة تألُّب الصليبية العالمية مع اليهودية

---

(١) هيكل. ترجمة عن الكاتب الفرنسي إميل درمنغم.

(٢) آخر مؤامراتهم مؤتمرهم الذي عقدوه في (كولورادو) في أمريكة، ووضعوا الخطط الشيطانية لتنصير المسلمين. انظر (صيحة تحذير من دعاة التبشير) للمؤلف. (الناشر)

على طرد المسلمين من فلسطين[١].

أجل، ففي عِمَاية الغضب الدفين على الإسلام وأهله ابتلع النصارى طعن اليهود في شرف مريم ونسب ابنها، وتصافح الفريقان ليواجها المسلمين جميعاً بحرب شعواء، تذر الألوف المؤلفة من العرب البائسين يخرجون من ديارهم ليقتلهم الجوع والعراء.

* * *

---

(١) وها هم اليهود اليوم يقتِّلون المسلمين في فلسطين من أطفال ونساء ومسنّين بسلاح أمريكي متطور، وبفرح صليبي غامر، أما المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها فحالهم كما يقول الشاعر:

مَنْ يهن يسهلُ الهوانُ عليه ... ما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامُ (الناشر)

كيف دخلت المسيحية مصر وكيف دخلها الإسلام ؟

من ألوان الحرب التي تُشنُّ الآن ضد الإسلام اعتباره طارئاً على البلاد، وفد عليها مع فاتحين غرباء، ثم استقرَّ فيها على كره من أصحابها الأصلاء! .

وهذه مزاعم مضحكة، فإن كلتا الديانتين جاءت مصر من الخارج، وليست مسيحية عيسى صناعةً محلية يجب ـ لتشجيعها ـ أن توضع العوائق الجمَّة أمام ما قد يزاحمها من وارداتٍ أخرى! كلا .

ولو كان من حق أهل بلد ما أن يطردوا الأفكار الغريبة عن بيئتهم، لأنها ليست أفكار مواطنين أصلاء، لوجب إخراج المسيحية والإسلام معاً من مصر، ولوَجَبت إعادة البلاد على عجل إلى حظيرة الوثنية المحضة التي تعبد فيها الأصنام وتقدَّس العجول، فإن الوثنية هي الديانة التي عرفها تاريخنا آلاف السنين؛ إنها بضاعتنا العريقة.

أما الإسلام فقد جاء به عربٌ غرباء، وأما المسيحية فقد جاء بها ـ كذلك ـ رومان غرباء!! . .

والكاتب الصليبي الذي سوَّد صحائفه بأحقاده على العرب الفاتحين لا يمكنه تجاهل هذه الحقيقة، بل إنه يعترف بها على رغمه، قال في ص١١ : «ظلَّ الشعب القبطي بعد انتشار المسيحية على أيدي الرومان والبيزنطيين يعبد بحرارةٍ آلهته الفرعونية، ويكرم آثار ماضيه التليد، وكان يرفض أن يقدِّم أيَّ قربان لآلهة اليونان والرومان، كما أنه لم يقبل المسيحية إلا بتحفظ شديد لأنها جاءته من

الخارج، وكان الشعب يريد بذلك إقناع نفسه أنه لم يخضع لاحتلال الغزاة مادام يقاوم شعائرهم وعقائدهم».

ويقول في الصفحة نفسها: «ترك مسيحيو مصر ديانة أجدادهم مُكرهين (كذا) لأن ديانة الفراعنة ومعابد الفراعنة وآلهة الفراعنة كانت تذكرهم بمجد مصر في مختلف عهودها، فلا غرابة إذا ظلت معتقداتهم الأولى راسخة في نفوسهم، رابضة في قلوبهم، بعد اعتناقهم المسيحية.

ونضرب مثلاً لهذا التشبُّث ـ يعني تشبُّث المصريين بوثنيتهم القديمة ـ من قراءة (السيناكسار) أي تاريخ القديسين.

وماذا يقول (السينا كسار) هذا؟.

يقول ـ كما ترجم الكاتب من مرجع فرنسي ـ: «في معبد قيصرون الذي شيَّدته الملكة (كيلوبطرة)، كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه (عطارد)، وكان يحتفل سنوياً بعيده، وتقدم له الذبائح، وقد ظلَّت هذه التقاليد معمولاً بها إلى أيام حكومة الأب (إسكندر) ـ أي لمدة تزيد عن ثلاثمئة عام ـ فلما نصب (إسكندر) بطريركاً، قرر تحطيم هذا الصنم، بيد أن شعب الإسكندرية ثار قائلاً: لقد اعتدنا إحياء هذا الصنم، ولقد تربَّع على هذا الكرسي اثنا عشر بطريركاً، ولم يجرؤ أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العادة».

أرأيت أيها القارئ؟ ذلك هو تصرف الأمناء على ديانة نزلت من السماء بإزاء التقاليد الوثنية التي رفض العامة من المصريين أن يدعوها.

والغريب أن هذا الكاتب يقول قبل ذلك بسطور: «إننا لن نناقش النتائج التي خرج بها بعض المستشرقين أمثال (لوفيفر) و(شميدت) و(شولتز)، فقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين، كما ادعوا أن نجاح العرب يرجع بصفة عامة إلى أن الإسلام اجتذب أقباط مصر، الذين تعبوا من تزمُّت كنائسهم وتضييقها عليهم».

ونحن نعرف أن أهل مصر الأوائل كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم. وقد

قرأنا ـ كذلك ـ في (تاريخ القديسين) كيف احترم البطارقة هذه الوثنية وسايروها، فلمَ غضب المصريون آخر الأمر من كنائسهم؟.

إن هذا الغضب لا يتصل بأمور خدشت تقاليد المصريين العتيقة، وإنما يعود إلى الاضطرابات العنيفة التي تخلَّفت عن انقسام الكنائس في فهم حقيقة المسيح، وقد تكون له أسباب أخرى نفسية واقتصادية، أما المصريون أنفسهم فقد نجحوا ـ كوثنيين ـ في فرض أفكارهم وعاداتهم على المسيحية نفسها.

يقول (هـ. ج. ويلز) في كتابه ملخص التاريخ: «إن السيد المسيح أُغميَ عليه حين حمل على صليبه، لأنه كان ضعيف البنية، وإنه توفي قبل أن يتوفى المصلوبان إلى جانبه، وأن السيد المسيح لم يبشِّر بالديانة المسيحية المعروفة اليوم».

يقول ويلز: «لأن هذه التعاليم إنما أحدثها الرسول (بولس) المتعلم بالإسكندرية، وأن (بولس) أخذ تعاليمه من وثنية الإسكندرية».

ثم يقول ويلز: «إن خيوط الثالوث المقدَّس حيكت في الإسكندرية، وإن آلهة قدماء المصريين الثلاثة (إيزيس) و(حورس) و(سيرابيس) قد استحالت عند (بولس) إلى الآب والابن والروح القدس».

وكلام (ويلز) يتضمن حقائق كثيرة، وقد أيَّده الكاتب الصليبي من حيث لا يدري، إذ قال في ص١٢: «لم يستطع المصريون تلافي المسيحية فحاولوا ـ حسب تعبير (جان ماسبيرو) الموفق ـ مصادرتها لمصلحتهم، وقرروا أن كل ما كان جميلاً وعظيماً في المسيحية إنما هو مصري، ومن ذلك الحين مال الإكليروس والشعب إلى القبض على زمام الحكم، ثم إلى الانفصال عن حكم (بيزنطة)، وقد تجلى هذا الميل بوضوح بعد مجمع (نيقية) حيث بزغ نجم كنيسة الإسكندرية ولمع».

ومجمع (نيقية) هذا، هو الذي قرر مطاردة الموحِّدين وإحراق كتبهم بعد أن اعتبر عيسى إلـٰهاً مع الله!! فلا غرو أن يبزغ نجم كنيسة الإسكندرية ويلمع!

أليس هذا نصراً ضخماً تحرزه الوثنية المصرية يحدِّد ديانة الفراعنة الأقدمين ويعيد الحياة إلى رفاتهم البالي؟ .

لو أن عيسى عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقيم لدينه دولة تحمي قواعده الحقة ما استطاعت الوثنيات القديمة أن تفتك به هذا الفتك الذريع، ولكن عيسى ذهب، والنصرانية تدور بها دوامة عاصفة من أحقاد الوثنية التي تملك الدولة والصولة، ولم يكن الرومان وحدهم عباد أصنام، بل كان اليونان والفرس والمصريون والهنود وسائر البشر، ماعدا فلولاً من اليهود لا يقام لهم وزن.

وددنا لو قرأنا تعاليم عيسى علي الصلاة والسلام نفسه بلغته العبرانية، أو لو قرأنا رسائل حوارييه الكرام بهذه اللغة نفسها، فهي اللغة التي دوَّنوا بها عقائدهم وبشَّروا بها أممهم، غير أنه ـ من المؤسف ـ ألا نجد إلا تراجم يونانية أو لاتينية لهذه الكتب المفقودة، وهؤلاء الذين كتبت تعاليم المسيح بلغتهم هم سدنة الوثنية القديمة وأشياعها، والمدهش أن المترجمين أنفسهم أشخاص مجهولون، فبأي وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى عليه الصلاة والسلام من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف الأولى التي أُنزلت عليه، وبعد ضياع الأسفار التي كتبها عنه تلامذته، وحلَّت محلَّها تراجم لا تعرف قيمتها العلمية ولا أمانة ذويها؟

ونحن نجزم بأن تغييرات هامة جداً طرأت على أصل النصرانية مالت بها إلى تعدد الآلهة! ونحَتْ بها نحو الوثنية السائدة في فكرة الفداء والقرابين.

وقد عاداها المصريون أولاً بالنظر إلى أصلها السماوي، حتى إذا حوَّروها كما يشتهون دخلوا فيها، أو بالأحرى لم يستطيعوا الانتقال إليها فنقلوها إليهم . .

ولما كان المفروض أن الإنجيل ملحق بالتوراة، وأنه يعتمد أحكامها، وأن النصراني مكلَّف بالعهدين القديم والجديد معاً، فإن عبث الوثنية لم يلحق الإنجيل فحسب، بل تعدَّاه إلى التوراة نفسها.

وقد لاحظ الباحثون دلائل ذلك فيما يلي:

١ ـ برز حقد الوثنيين على رسل الله عليهم الصلاة والسلام، فنسبوا إليهم

أعمالاً شائنة، فجاء في هذه الكتب المقدسة!! أن نبياً شرب الخمر ثم زنى بابنتيه، وأن آخر سكر حتى تعرّى، وانكشفت سوأته لأحد ولديه، فغضب على الآخر لغير جريرة، وأن أحدهم رفض دعوة النبوة من ربه، وأن آخر ارتدَّ وعصى الله وعبد الأصنام، وأن آخر صنع عجلاً لقومه، وآخر شبَّه الناس جميعاً بالكلاب ماعدا بني إسرائيل، وأن نبياً طمع في امرأة فأرسل بزوجها إلى الميدان، وأوصى بقتله حتى يخلو الجو له معها. . !! وأنَّ. . . وأنَّ. . . إلخ.

والذي يقرأ (نشيد الإنشاد) في العهد القديم، ويقرأ صور الغزل المفضوح فيه، يوقن بأن ما حوى من مباذل وليد طبيعة مهتاجةٍ بالشهوة البهيمية، لا يمكن صدوره أبداً عن ربِّ العالمين.

قال (جان ملز كانلك) في كتابه المطبوع سنة ١٨٤٣: «اتفق أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر (بختنصر)، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة (عزرا) ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة «أنيكوسي» فلما ضاعت صحائف الوحي المنزَّل من السماء حلَّت مكانها هذه الأباطيل.

٢ ـ لا يعرف بتةً أثرٌ لإنجيل عيسى الذي نزل عليه من ربه.

والمسيحيون اليوم يزعمون أنه ليس لعيسى إنجيل، مع أن ذكر هذا الإنجيل جاء في رسالة (بولس) إلى أهل (غلاطية) ١: ٦ ـ ٧. وقد أيَّد فقدان هذا الإنجيل (طامسن أنكلسي) في كتابه (مرآة الصدق).

٣ ـ إن جملة الرسائل التي تؤلِّف ما يسمى الآن العهد الجديد لا تنهض على أسانيد تعطيها قوة تاريخية معتبرة، فهي غريبة عن لغة المسيح، بعيدة عن عصره، ويمكن القول بأن هذا العهد ما صنفه المسيح ولا الحواريون، بل صنَّفه رجال مجهولو الاسم، ثم نُسب إلى الحواريين ورفقائهم.

وكتب (إستادلن) يقول: «إن كافة إنجيل (يوحنا) تصنيف طالب من جامعة

(الإسكندرية)، ووافقه (برطشنيد) وزاد على ذلك أيضاً رسائل (يوحنا). ومع ذلك فإن العهدين القائمين ذُكرت بهما أسماء نحو خمسة وعشرين سفراً لا وجود لها!!.

* * *

ونحن ـ المسلمين ـ لا نزعم أن ما ورد في أسفار العهدين القديم والجديد باطلٌ محض، ففيهما مزيج غامض مبهم من الخطأ والصواب. وقدْ وردت فيهما كلمات تخلع وصف الألوهية على أناس أطبق أهل الأديان أجمعون على عدِّهم بشراً فحسب.

جاء في الإصحاح السابع من سِفْر الخروج: «فقال الربُّ لموسى: انظر، أنا جعلتك إلـٰهاً لفرعون، وهارون يكون نبيك».

وجاء في الإصحاح الرابع من السِّفْر المذكور: «هو يكلِّم الشعب عنك، ويكون لك فماً، وأنت تكون له إلـٰهاً».

وهذا التهوُّر في إطلاق الألوهية على الأناسي إما أن يكون عجزاً شائناً في الترجمة عن الأصل، فأُبدلت كلمة السيد مثلاً بالإلـه. وإما أن يكون مسلكاً مغرضاً قُصد به تضليل العامة عن سوء نية... وكلا الأمرين استُغلَّ ـ كما رأيت ـ في تأليه عيسى عليه الصلاة والسلام لما كثرت هذه الإطلاقات عليه.

ولكن لماذا لم يؤلَّه موسى عليه الصلاة والسلام كذلك؟؟.

وقد ذكرت كلمة (ابن الله) كذلك على غير عيسى عليه الصلاة والسلام، فأطلقت على آدم (ابني آدم ابن الله) لوقا (٣: ٣٨).

وقال في غيره عن يعقوب عليه الصلاة والسلام: «هكذا يقول الرب: إسرائيل ابني البكر».

وأطلقت على داود عليه الصلاة والسلام، كما في المزمور (٨٩): «هو يدعوني أبي، أنا أيضاً أجعله ابني».

وعلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام، كما ورد في أخبار الأيام الأولى: «يكون لي ابناً وأنا له أباً».

وعلى جميع بني إسرائيل كما في الإصحاح (١٤) من سِفْر التثنية: «أنتم أولاد الربِّ إلـٰهكم».

وأطلقت على جميع الناس. كما في الإصحاح السادس من سفر التكوين: «الناس أبناء الله».

وعلى المؤمنين فقط، كما في الإصحاح الخامس من إنجيل متى: «لتكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات».

وكما في متى (٢٣): «لا تدعوا لكم أباً على الأرض، لأن أباكم واحد، الذي في السماوات».

وعلى المصلين. كما في الإصحاح السادس من متى: «فصلُّوا أنتم هكذا، أبانا الذي في السماوات، ليقدس اسمك».

وعلى صانعي السلام، كما في الإصحاح الخامس من متى: «طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله».

وعلى الملائكة كما في لوقا (٢٠): «لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله».

وعلى من لم يفعل خطيئة، كما في الإصحاح الثالث من رسالة (يوحنا) الأولى: «كل من هو مولود من الله لا يفعل الخطيئة».

وعلى تلاميذ المسيح عليه الصلاة والسلام: «لتكونوا أبناء الله»... إلخ.

هذي التعابير لا تعني أكثر من إظهار عطف الله وبركته على من ينسبهم إليه، ولا ندري كيف تحوَّل هذا المجاز اللطيف إلى ادعاء مخيف، عندما أصبح الكلام وصفاً لعيسى عليه السلام؟.

إن المجامع التي انعقدت بعد في تاريخ المسيحية ساقت هذه الجمل سَوْقاً إلى ما توارثت من أهواء وجهالات.

فما إن دخل الرومان واليونان والمصريون في النصرانية حتى فرضوا عليها معتقداتهم الأولى فشقَّقوا مبدأ التوحيد، وجعلوا الله أباً، والمسيح ابناً له، وضمُّوا لهما إلـٰهاً ثالثاً على مرِّ الأيام . .

* * *

نعتذر لهذا الاستطراد، لقد تمشَّينا مع الحديث رغبة منا في كشف كثير من الأحداث التي اكتنفت تاريخ النصرانية الأول، ومدى تأثر الديانة المستضعفة بها، والدور الذي لعبته مصر مع غيرها من دول العالم الوثني في توليد مسيحية جديدة يزدوج فيها مبدأ التوحيد والتعدد.

ونستخلص من هذا السرد المجمل : أن مصر كانت وثنية في أغلب عصور الفراعنة، وأن النصرانية التي أُرسل بها عيسى عليه الصلاة والسلام كالإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، ديانة وافدة من الخارج، وهذه أو ذاك لا يقدح فيهما، ولا يزكيهما وصفٌ بالغربة أو الألفة، فإن الدين كالعلم لا وطن له، وأن المسيحية التي انتشرت بعد في مصر لقيت حمايتها ورواجها على أيدي الرومانيين المحتلين للبلاد، وكان جمهور المصريين ينظر إليها على أنها بعض مظاهر السيادة الأجنبية، وأن عبادة الأصنام ظلَّت متغلغلةً في مصر قرابة ثلاثة قرون لم يرَ فيها بطاركة الكنيسة ما يزعج مسيحيتهم، وأن المصريين لما استبان لهم أن الثالوث المسيحي تجديد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحتة، وليست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم.

وهذه الخلاصات يمكننا أن نستدل عليها جميعاً من النقول والتعليقات التي ذكرها المؤلف الصليبي في الباب الأول من كتابه.

وثمة أمر آخر عُنيَ الكاتب بإبرازه، وهو أن الكنيسة المصرية شقَّت عصا الطاعة على كنيسة رومة لأسباب سياسية مجردة «فالانشقاق القبطي هو ديني من حيث الحجة فقط» كما يقول المؤلف في ص١٣ . وعلته الدفينة حبُّ البطريرك المصري للانفراد بسيادة بلاده، إذ كان يصرِّح : «إن البلاد لي أكثر مما هي للأباطرة،

وإني أطالب بالسيادة على مصر . . . ». وفي سبيل هذه السيادة صنعت الكنيسة المصرية أمراً بالغ الغرابة . .

لقد وافق بطريرك (القسطنطينية) على حرمان الراهب الذي ابتدع المذهب الأرثوذكسي. ولكن بطريرك مصر حقد على زميله هذا السلطان الواسع، فأعلن اعتناقه لهذا المذهب الجديد، مخالفاً آراء زملائه من رجال الإكليروس، فقد وضعهم ـ كما يقول المؤلف الصليبي ـ في مركز حرج . . ذلك لأن الأساقفة المصريين أدانوا (أوتيشيش) الراهب المحروم، دون أن يبدي البطريرك ـ وهو صاحب الرأي الأخير ـ أية معارضة، فكيف يستطيعون بعد ذلك أن ينقضوا حكمهم دون أن يعرِّضوا أنفسهم للسخرية؟ .

وبينما كان الأساقفة حائرين مترددين أمام هذا الموقف الشاذ، إذ بـ(ديسفور) ـ البطريرك المصري ـ يأمرهم بأن يتضافروا معه، ويؤيِّدوه في موقفه. ولم يكن في استطاعة الأساقفة إلا الإذعان لأمر رئيسهم!! (ص: ١٤).

ويقول الكاتب أيضاً في الصفحة نفسها: «أما الشعب المصري فلم يتردَّد لحظة واحدة في مناصرة بطريركه، لاعتقاده أن جرأة رئيسه الديني قد حققت أمانيه الغالية المنشودة».

فلم يكن الأمر إذن بحثاً عن الحقيقة، ولم يكن الخلاف على فهم طبيعة المسيح سعياً منزَّهاً لمعرفة الصواب، إن معنى ذلك ـ كما يصوِّر الكاتب الصليبي ـ أن المذهب الأرثوذكسي وليد عناد دفع إليه الطموح، وأن المسائل الدينية الكبرى تحرِّكها من وراء ستار نزعات دنيوية محضة.

وإذا كان هذا الكاتب صادقاً في تصويره للوقائع التي تمخَّضت عن المذهب الجديد، فإن ذلك تسجيل حاسم للريب التي تحيط بجملة العقائد المسيحية، لا الواردة في العهدين فحسب، بل الناشئة عن قرارات المجامع المختلفة! .

وأيّاً كان الأمر فقد اضطربت الصلات بين مصر وروما، واتَّسعت الفجوة بين الكاثوليك والأرثوذكس، حتى إن المصريين فضَّلوا أن يحكمهم مجوس فارس عن أن يظلوا خاضعين للمسيحيين الرومان!! إنهم كانوا يريدون البقاء على

مذهبهم الديني آمنين، وهذا ما كان الرومان يضنُّون به. . . زدْ على ذلك أثقال الضرائب التي فرضها الحكام المتعسِّفون.

إن مصر المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية ظلت تنوء بما تحمل حتى خارت قواها، وتحوَّلت على مرِّ الليالي السود إلى مستعمرة تزدحم بالرعاء والعبيد.

الإسلام يدخل مصر:

تختلف نشأة الإسلام اختلافاً كبيراً عن نشأة النصرانية، فإن الإسلام يمتاز بأنه تحوَّل على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب، كان النبي ﷺ رئيسها الأعلى، وكان القرآن الكريم ـ وهو دستورها الأصيل ـ محفوظاً بعناية رائعة، وعته صدور القرَّاء، الذين استظهروه كلمة كلمة، والذين بلغ من كثرتهم أن تكوَّنت منهم فرق مقاتلة، كان لها أثر عميق في حرب الردَّة، ووعته كذلك صحائف الكَتَبَة، الذين سَطَروا آي الوحي في أوراقهم، لم يمت النبي ﷺ إلا والكتاب السماوي يُكتب ويُقرأ في نطاق بعيد المدى، ولا شكَّ أن حظَّ القرآن من ذلك لا يذكر إلى جانبه أبداً حظُّ الإنجيل.

وقد حاولت الوثنية العربية أن تحتل الدين الجديد، وأن تتسرَّب إليه عن طريق مهادنته، فعرض عبدة الأوثان على النبي ﷺ أن يعبدون إلـهه فترةً، وأن يعبد آلهتهم أخرى، فنزل الوحي:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

وحاولت إحدى القبائل أن تدخل في الإسلام شريطة أن تستمتع بعبادة صنمها سنة ثم يهدم بعدها! فأبى النبي ﷺ إلا هدمه في الحال.

وذلك مسلك يناقض مسلك النصرانية، التي سمحت للمصريين أن يكونوا

مسيحيين وعبّاد أصنام في وقت واحد، كما ذكر ذلك الكاتب الصليبي نفسه في (ص١٢) من كتابه.

وقد يتوهَّم أحد المغفَّلين أن مسلك الإسلام ينطوي على صلابة وتزمُّت، وأن مسلك النصرانية في مهادنة الوثنية، أو مداهنتها، أو الامتزاج بها، كان ينطوي على اعتدال ومرونة.

إن هذا غلطٌ فاحش، فإنصاف الحقيقة، وحماية جوهرها شيء، وحمل الناس عليها بالإكراه شيء آخر.

دخل الإسلام فارس فبقي التوحيد توحيداً، وبقيت المجوسية مجوسية، فمن شاء البقاء على مجوسيته بقي آمناً، ومن شاء دخل في الإسلام فأحلَّ حلاله وحرَّم حرامه، ونزل على أحكامه كلها.

أما اختلاق مركَّبٍ جديد من الديانة المحلية والديانة الجديدة فعبثٌ يجب أن يقاوم بالسيف، لأن التمشي معه إيذانٌ بضياع الحق إلى الأبد، وذلك ما فعلته الوثنيات القديمة بدين عيسى عليه الصلاة والسلام.

فلا جرم أن يرفض الإسلام أية مساومةٍ على منحه حق البقاء، وأن يمضي في طريقه مستنداً إلى مبادئه وحدها وتضحيات المؤمنين بها، فما إن استقرَّ له الأمر حتى بدأ يجلي جيوش الروم والفرس عن الأقطار الفسيحة التي احتلت رقعتها، واستهلكت أهلها.. على ما قصصنا عليك.

وكانت مصر قبيل الفتح الإسلامي يتنازع احتلالها الفريقان معاً، حتى انهزم الفرس آخر الأمر أمام خصومهم، فتوطَّد ملك الروم بها، وأضحت ـ بموقعها ومواردها ـ معواناً قوياً للروم في القتال الذي دار بينهم وبين المسلمين.

جيش عمرو:

قرر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح مصر، وسار إليها الجيش الزاحف بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه، فأخذ طريقه إلى حصن

بابليون حيث التقى بهم جيش الروم وفيه الجاثليق أبو مريم، ومعه الأُسقف الذي أرسله المقوقس.

وقبل أن تشتبك القوى المتأهِّبة للنزال قال عمرو لقادة الروم: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم! وليبرز إلي الجاثليق والأسقف، فخرجا إليه، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر، لأن هاجر أم إسماعيل جدُّ النبي ﷺ من مصر.

روى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمَّةً ورحماً» أو «ذمَّة وصهراً».

فقالا: قرابة بعيدة، لايصل مثلها إلا الأنبياء.

ثم قالا لعمرو: آمِنَّا حتى نرجع إليك. فقال لهما: مثلي لا يُخدع، ولكني أؤجلكما ثلاثاً لتنظرا.

فقالا: زدنا... فزادهما يوماً.

فرجعا إلى المقوقس بطريرك الأقباط، وإلى (أرطبون) الوالي الروماني فأخبراهما خبر المسلمين.

ويبدو أن البطريرك القبطي كان زاهداً في قتال العرب، وما الذي يستثير حماسته ضدهم؟ وصلة مصر بالروم على ما علمنا من ضعف بل من مقت!!.

أما الحاكم الروماني فقد قرر المقاومة، ورفض ما عرض عليه، واستعدَّ للقتال، بل بادر المسلمين بالهجوم فعلاً إلا أنه انهزم وارتدَّ إلى الإسكندرية. فتعقَّبه العرب في مهربه، ووزَّع عمرو فرقه على جبهات عدَّة استطاع أن يحرز فيها جميعاً النصر بعد أن حاصر الروم في مواقعهم أياماً طويلة.

وقد أرسل أهل البلاد إلى عمرو يعلنون رضاهم بالصلح، وقبولهم دفع الجزية على أن تردَّ لهم السبايا.

فأرسل ابن العاص إلى أمير المؤمنين بذلك، فأجاب مطالبهم.

وأمضى عمرو بن العاص معاهدة الصلح مع المصريين، وهذا نصها على ما رواه الطبري:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم، وملّتهم، وأموالهم، وكنائسهم وصلبهم، وبرِّهم وبحرهم، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب.

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية ـ إن اجتمعوا على هذا الصلح، وانتهت زيادة نهرهم ـ خمسين ألف درهم، وعليهم ممن جنى نصرتهم.

فإن أبى أحد منهم أن يجيب، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة.

وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى، رُفع عنهم بقدر ذلك. .

ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، أو يخرج من سلطاننا. عليهم ما عليهم أثلاثاً، في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. . .

على ما في هذا الكتاب عهد الله، وذمة رسوله، وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين.

وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً، وكذا وكذا فرساً، على أن لا يغزوا، ولا يمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة. . .

شهد الزبير، وعبد الله، ومحمد ابناه، وكتب وردان وحضر. . ».

* * *

إن المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعدُّ صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى. وهي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي طردوا الفرس والرومان منها.

ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعروض عليهم، ويمضونه راضين.

١ ـ فقد استردت البلاد حريتها الدينية كاملةً، ونالت ضماناً واضحاً أن تبقى للمعابد قداستها فلا يقتحمها أحد، ولا تخدش شعائرها، وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في أثناء حكم الرومان، لاختلاف المذهب الديني، وإن انتمى الفريقان للنصرانية! .

٢ ـ خفَّ حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للحكومة الإسلامية، فإن تعداد مصر على عهد الفتح الإسلامي بلغ عشرة ملايين ساكن، وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليوناً من الدراهم، أي متوسط ما يؤديه الفرد للحكومة خمسة دراهم في العام (نحو عشرة قروش) مع أن الرومان كانوا يستكرهون المصريين على دفع جملة أنواع من الضرائب الباهظة.

٣ ـ يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعاً لهبوط الفيضان، ولكنها لا تزيد عن النسبة المقررة، كما أنها تؤدَّى أقساطاً ثلاثة على مدى السنة.

٤ ـ هذه المعاهدة معقودة مع المصريين الذين هم أصحاب البلاد، فإذا رغب روماني أو نوبي الدخول فيها، فله حق المعاملة بالمثل، وإلا فعلى العرب أن يصونوا دمه وحقوقه كلها حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه، أو ينقطع عنده سلطانهم.

٥ ـ لا يجوز للمسلمين أن يمنعوا تجارةً صادرةً ولا واردة.

٦ ـ ويجب عليهم ـ لقاء الضريبة التي يحصِّلونها ـ أن يمنعوا أي غزوٍ لمصر.

وقد أخلص الطرفان في تنفيذ المعاهدة.

ولما طارد العرب فلول الرومان المنهزمين، واستولوا على ما بأيديهم من أموال جاء كثير من الأقباط يشكون أن هذه الأموال لهم، أخذها منهم الرومان قهراً، فردَّ العرب عليهم ما أقاموا البيِّنة على أنه ملكهم.

وبقي المقوقس على رئاسته للبلاد، يتردَّد بين منف والإسكندرية، وبلغ من توثيق الصلات بين المسلمين والبطريرك أنهم كانوا يستشيرونه فيما ينزل بهم من مهمات حتى توفي.

* * *

قال الكاتب الصليبي: «على الرغم من أن النبي لم يزر مصر قط، فإنه كان يكنُّ للأقباط عطفاً ملحوظاً»، وهذا اعتراف مُسْتَغْرَب، لأن المماراة في الحقائق طبيعة هذا الكاتب الحقود على الإسلام وتاريخه!

أفتحسب أنه تخلَّص من لوثات ضغنه البادي على الإسلام في كل سطر خطه؟ كلا.

إنه بعد أن نقل عدَّة آثار تشهد لهذا العطف، وتدل على أن النبي السمح ﷺ كان يوقن بأن دعوته ستمتد إلى مصر، وأن أهلها سوف يرتضون الإسلام ديناً لهم، قال معلِّقاً على النبوءة الصادقة وما تضمَّنت من وصايا: «لا يخفى أن كلاماً يقوله النبي بهذه الدقة عن شعب لا يعرفه ولم يفكر في غزوه لمدعاة إلى الدهشة. . إننا نستطيع الجزم بأن صاحب الدعوة الإسلامية كان يضمر الخير لسكان مصر الأصليين.

ونتسائل الآن: هل كان لمارية القبطية تأثيرٌ حسن على شعور النبي؟.

هل أحيط النبي علماً بعداء الأقباط لحكامهم البيزنطيين؟.

هل استنتج من هذه العداوة ميل الأقباط إلى التعاون مع الفاتح المسلم؟ . . . »إلخ، ص٢٠.

فالأمر في وهم هذا الكاتب لا يرجع إلى الإسلام لأنه دين عدل، ولا إلى صاحبه لأنه نبي سمح! لا. إن أحقاده لا تطوِّع له أن يتصوَّر هذا العرض القريب المتمشي مع مسلك المسلمين في البلدان المفتوحة كافة. فتراه يرد ما يرى من عاطفة نبيلة إلى أسباب ما يليق إسنادها لنبي أرسله رب العالمين. .

على أن الكاتب خبط في جمع الشواهد التي تدل على رعاية النبي ﷺ لأهل مصر، فهناك أحاديث صحيحة لم يذكرها، وهناك أحاديث مكذوبة وقع عليها في كتب الأخبار وجاء بها إلى كتابه المشحون بالمفتريات، كأنما يأبى طبعه ـ وهو يستدل لغرض صحيح ـ أن يأتي بحديث صحيح! .

من ذلك ما نسبه إلى النبي ﷺ ـ وهو باطل ـ: «لو بقي إبراهيم ما تركت قبطياً إلا وضعت عنه الجزية».

فإن بقاء إبراهيم ومماته سواء بالنسبة إلى أحكام الشريعة، وما يملك أبوه نقض حكمٍ أبرمه الله، والجزية يضعها عن نفسه من يمتنع عن محاربة الإسلام، فأما من حاربه أو أعان من يحاربه فمن حق المسلمين أن يجرِّدوه من سلاحه، على أن هذا التجريد لن يغري أحداً بالعدوان عليه، فإن المسلمين أنفسهم سيتولون حمايته بنفقة مشتركة بينهم وبينه.

ومن الأكاذيب التي رواها الكاتب منسوبةً إلى النبي ﷺ أنه قال للمسلمين: «يكفونكم ـ يعني الأقباط ـ أعمال الدنيا، وتفرغون للعبادة».

وهذا لغوٌ سخيف، فإن التفرُّغ للعبادة في نظر الإسلام معصية، والمسلم الذي يقعد عن شؤون الدنيا منتظراً من الآخرين أن يكفوه همومها، ويكفوه جهودها رجل متسوِّل تافه، وأية عبادة يتقرَّب بها لله يرمى بها في وجهه.

ولعل هذا المسلم الجهول بشؤون الدنيا هو أمل أعداء الإسلام ممن يتمنون للمسلمين الهون. .

أما المسلم الحق فهو كما قال الشاعر:

فـلا هُـوَ فِـي الـدُّنْيَـا مُضِيْـع نَصِيْبَـهُ ... ولا عَرَضُ الدُّنْيا عَنِ الدِّيْنِ شَاغِلُهُ!

وكذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته ومن تبعهم بإحسان. .

* * *

إن النبي ﷺ لم يوص أن يعامل أهل مصر بأسلوب ينفردون به دون أهل

الكتاب أجمعين، صحيح أنه أظهر لهم فضل حفاوة وعزازة، بَيْد أن العهد الذي عقد معهم لا يمتاز عن سائر العهود التي تمَّت مع النصارى من أهل اليمن والشام والعراق، وقد أثبتنا فيما سبق نسقاً لما تضمنته هذه المعاهدات.

ثم روى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي أمامة قال: إني لتحت راحلة رسول الله ﷺ يوم الفتح إذ قال قولاً حسناً جميلاً، وكان فيما قال: «مَنْ أسلمَ من أهل الكتابين فله أجره مرتين. وله ما لنا وعليه ما علينا».

والحديث يطابق الآيات النازلة في إسلام اليهود أو النصارى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [القصص: ٥٢ـ٥٤].

وقد كانت حفاوة الإسلام نظرياً وعملياً بالأقباط وغيرهم من النصارى سبباً في تهافتهم على اعتناق الدين الجديد، وتحوّل كثرتهم عن أديانهم الأولى.

* * *

هل أضرت بالمسلمين سماحتهم ؟

بلغت الكنيسة أهدافها المنشودة من حملة التضليل التي شنَّتها على الإسلام، فنسجت على العيون غشاواتٍ حالكة أعمتها عن رؤية الحق، ووقرت في أذهان السذَّج صور مزوَّرة شائهة، تصرف النفوس صرفاً عن هذا الدين الكريم.

وجريمة الكنيسة في حق العالم كله مضاعفة الإثم لهذا الموقف النابي، فهي - بمفترياتها - أضلَّت الناس عن الإسلام.

فهل أحسنت هي نفسها إلى الناس، فأغنتهم بإحسانها بعد إذ حرمتهم من غيرها..؟.

إن تاريخ النصرانية في كبْت الحريات، وخنق الآراء، وتجديف العلماء، وقتل الفلاسفة، جعل الذين نكبوا بها يثورون عليها ثورة ماحقة.

فما إن انبثق فجر النهضة الحديثة حتى أُسقطت عن عرشها القديم، ولكن بعد أن خلَّفت كرهاً عميقاً للأديان كلها.. إذ إن الظنَّ بغير المسيحية سيِّئ، والتجارب مع المسيحية أسوأ.

ومن ثَمَّ ولدت الحركة العلمية في جوٍّ مفعم بالشك، وقد أتاح هذا الجو الجديد للنقاد الأحرار أن يدرسوا الإسلام دراسة أبعد عن الهوى، وأدنى إلى التمحيص، بعد أن فقدت الكنيسة سلطانها في التوجيه، أو بالأحرى قدرتها على الانفراد بالتضليل والتزوير.

وقد ظهر في مواطن المسيحية نفسها كُتَّاب كثيرون، أخذوا يزيحون عن أعينهم الحجب التي صنعتها الأوهام الأولى.

وسنستعرض هنا ملاحظات قيمة سجلها (كونت هنري دي كاستري) في مؤلف عن الإسلام، قارن فيه بين موقف النصرانية من خصومها، وموقف الإسلام من خصومه، مستشهداً بنصوص ووقائع من التاريخ العام.

يقول الكونت الباحث: «إن فينا من يستغرب أخذ الإسلام للوثنية بالشدة آخر الأمر، وكيف طاردها الإسلام حتى قضى عليها في جزيرة العرب».

ثم يقول: «لكنا نقرأ في الكتاب الخامس من الزبور أمراً بالتشدُّد في معاملة الوثنيين:

«إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أباد أمماً كثيرة من قبلك، فقاتلهم حتى تفنيهم عن آخرهم، ولا تعطهم عهداً، ولا تأخذنَّك بهم شفقة أبداً»!.

كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدائن التي اختص بها قومه، ولم يرض بالشفقة إلا بالمدن البعيدة، التي لا تصل عدواها إليه..!!

وكتب القديس (أوغسطين) إلى الكونت بونيفاس يشير عليه باستعمال القوة لردع أهل البدع، وردهم إلى النصرانية.

وقد اعتبر المنشقين على الكنيسة كالبغال التي تعضُّ وترفس قوماً يعالجونها مما أصابها، وهم مكرهون على تعذيبها ليتمكنوا من تضميد جراحها.

قال الكونت هنري: ويحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبي بكر في حروب الردة، وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانيين.

قال: «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فأعرض عليها الأمان، فإن قبلته فقد سلم كل من فيها، وإن أبت وبادأتك بالعدوان، فشدِّد الحصار عليها.

ومتى وفقك الله للظفر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحدِّ الحسام».

* * *

ولاحظ الكونت أن المسلمين فرّقوا لأول يوم من قيام أمرهم بين عبَّاد الأصنام وبين اليهود والنصارى، ورسموا لكلٍّ منهما معاملة خاصة.

كما قرر أن الدولة الرومانية أساءت السيرة داخل حدودها وخارجها.

فكان المسلمون أجدر بسيادة العالم منها.

وقد أقرَّ الأب (بروغلي) بعظمة محمد ﷺ وفضل أصحابه وقال:

«إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوماً صادقين، ذوي دراية وذكاء، منهم أبو بكر وعمر، رجلان توليا زمام دولة فسيحة الأرجاء، فأحسنا سياستها، وكانا ذوي ثبات وعدل، وقناعة وفضل، وكانا أرفع قدراً، وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما».

وقال: «وذهب معاصرو الفتح الإسلامي من المؤرخين النصارى، إلى أن سرعة تقدم الإسلام راجعة إلى ما استحقه المسيحيون من غضب الله، فأراد أن يعاقبهم على زيغهم.

وقد انتشر جماعات من المتعبدين تقرع الآذان بهذه الحجة، وتحرِّض الناس على التوبة.

وشددوا النكير على النصارى، حتى أفهموهم أن جيوش الإسلام هي الآلة التي استعملها القدر للانتقام من انقسام الكنائس بعضها على البعض، وتفرق النصارى شيعاً متنابذة».

ولكن الكونت هنري يرفض هذه العلل المنتحلة لانتشار الإسلام.

فيرجع إلى الماضي القريب من بعثة محمد ﷺ ليرينا كيف دعا (آريوس) إلى توحيد الله، وكيف وقف معارضاً فكرة التثليث حتى ارتجَّت له أركان الكنيسة، وكاد اليأس يستولي على المؤمنين بفكرتها، وصار القديس (جيروم) يتنفس الصعداء قائلاً:

«لقد اندهش الكون من تحوِّل الناس كفاراً لايعتقدون بتجسد الأب في الابن»!

قال: «ومع أن النصارى أتباع (نيس) تمكنوا من التغلب على (آريوس) ومذهبه في توحيد الله إلا أنه نتج عن ذلك انشقاق عظيم في كنائس إفريقية وآسية».

فما ظهر الإسلام يخطو خطاه الواسعة ، لم يرَ فيه المتنافسون ديناً غريباً ، بل قبلوه كأنه مذهب مسيحي !! .

وذاك سرُّ المقاومة التافهة التي أبدتها الشعوب ضد الإسلام ، وسر انكماش النصرانية المثلثة أمامه على عجل . . .

وثَمَّ سبب آخر لانتشار الإسلام وامتداد سلطانه وإقبال الجماهير على اعتناقه ، ذلكم هو استبداد الرومان الذي بلغ منتهى العسف .

لقد وصل جَوْر الحكام إلى درجة أزهقت النفوس .

فلما جاء الإسلام تراموا إليه هرباً من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال .

فكلما أسلمت عشيرة رفعت عنها أثقال المغارم التي بُليت بها ، ورُدَّ إليها حقها المسلوب ، وبذلك أمنوا في ظل الدين الجديد ، ولم يتعرض أحد لعقائدهم .

ولم يفرِّق الإسلام بين أصلي في الكنيسة أو منشق عليها ، يعني الكاثوليك والأرثوذكس .

وسمَّى هؤلاء جميعاً ذميين ، ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة (ذمي) في معنى الخسَّة والهواء ، لأن معناها الحق (مؤمن) .

ثم قال الكونت (هنري دي كاستري) :

«إن الدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق لم تعارض المسيحية أن تضع أمام بنيها عائقاً .

فظلت (رومة) حرة في مراسلاتها مع الأساقفة الخاضعين لحكم المسلمين .

وفي سنة ١٠٥٣م كتب (البابا ليون التاسع) إلى نصارى أفريقية توصية باعتبار أسقف قرطاجنة مطراناً عاماً .

وكان الوئام مستحكماً بين المسلمين والنصارى حتى إن الباب (غريغوريوس السابع) كتب يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام المسلمين سنة ١٠٧٣م .

ومع التسامح المطلق الذي أبداه المسلمون مع النصرانية فقد ضعفت جداً حتى زالت من شمال أفريقية .

ولنذكر أن الإسلام لم يكن له موظفون مختصون بالدعوة إليه والتبشير بمبادئه، ولو كان له أناس قائمون بهذه الوظيفة لسهل علينا تفسير امتداده وانكماشها .

ألم ترَ الملك (شارلمان) كيف يستصحب معه على الدوام قافلة من القسس والرهبان يباشرون فتح الضمائر والقلوب بعد أن يتم هو فتح المدائن والأقاليم، وبعد أن يسلِّط على الأمم المغلوبة حروباً تجعل الولدان شيباً؟ .

أما الإسلام فلا نعرف له مجامع دينية، ولا أحباراً يحترفون المسير وراء الجيوش الغالبة لإكراه الشعوب على الإيمان .

أجل قد اعتنق الإسلام قومٌ يمشون وراء منافعهم، بَيْد أنهم قلة لا تذكر بجانب من أسلموا عن عقيدة صادقة وإرادة خالصة .

ولم يُعرف ـ بعد استقرار الحكم الإسلامي ـ أن عشائر من النصارى تركوا دينهم جملة واحدة .

بل على العكس صار الدخول في الإسلام يحتاج إلى (محضر) يُثبت أمام القاضي، ويوضح فيه أن المسيحي الذي اعتنق الإسلام دخل فيه عن اقتناع تام غير خائف ولا مكره! .

وأكثر من ذلك إن بعض خلفاء بني أمية ـ هكذا يقول الكونت هنري دي كاسترى ـ لم ينظروا بعين الرضا إلى كثرة دخول المسيحيين في الإسلام! وذلك لانخفاض الضرائب المجبية نتيجة نقص الجزية، فقد هبطت الضرائب أيام معاوية إلى النصف عما كانت عليه أيام عثمان رضي الله عنه لتزاحم الأقباط على دخول الإسلام .

ومن أجل ذلك ضيَّق بعض الخلفاء باب الدخول في الدين الجديد، فلم يعفوا الراغبين فيه من أداء الجزية .

يدلُّنا على هذا ما كتبه حيَّان إلى عمر بن عبد العزيز إذ قال له:

«إذا دامت الحال في مصر على ما هي عليه الآن أصبح مسيحيو البلاد كلهم مسلمين، وخسرت الخلافة ما تجبيه من أموال!!..

فأرسل إليه عمر بن عبد العزيز: «**ويحك إن الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً**».

* * *

ونحن لا يفنى عجبنا من سفاهة بعض الخلفاء الأمويين من هذا المسلك قبح الله صنيعهم!!.

كيف يصدُّون عن الإسلام من تنشرح صدورهم به حرصاً على دريهمات ينفقونها في ملذاتهم؟.

إن هذا إن دلَّ على شيء فعلى مبلغ ما عانى هذا الدين الكريم من سفالة بعض ملوكه الأولين، وحكامه المستبدين.

ثم تحدث الكونت عن الحكم الإسلامي في الأندلس، فأبان تسامح المسلمين العظيم مع الأسبان، وكيف حاسنوهم حتى صاروا في ظلهم أهنأ عيشاً مما كانوا عليه أيام خضوعهم لحكامهم القدماء من (القوط).

يقول (دوزي): «إن الدولة الإسلامية أبقت السكان المسيحيين على دينهم وشرعهم وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف»، حتى إن أحدهم تولى قيادة الجيوش مثل (سيد)، ونتج عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأسبان إلى المسلمين، وحصل بينهم تزاوج كثير، واندماج ظاهر.

فكان القسس يلومون النصارى على هذا الانعطاف ويحضُّونهم على العودة إلى أحضان الكنيسة...

ولما وقع الاضطهاد الأوروبي على اليهود، وفرَّ هؤلاء المنكوبون إلى الأندلس وجدوا في رحابها الأمان والسعة!!.

ونحن نعلم أن النصارى ما دخلوا بلداً في إبان الحروب الصليبية إلا أعملوا السيف في يهودها ومسلميها على سواء . . . !!

وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن ، فإنَّ مردَّ ذلك إلى قيام الدولة الإسلامية في العصور الوسطى .

ولو بقي النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاءً مبرماً .

قال الكونت : «ولقد درست تاريخ النصارى في بلاد الإسلام فخرجت منه بحقيقة مشرقة .

هي أن معاملة المسلمين للنصارى تدل على لطف في المعاشرة ، وترفُّع عن الغلظة ، وعلى حسن مسايرة ، ورقَّة مجاملة ، وهذا إحساسٌ لم يُؤثر عن غير المسلمين .

فإن الشفقة والحنان كانا يعتبران ـ لدى الأوروبيين ـ عنواناً على الضعف ، وهذه ملاحظة لا أرى وجهاً للطعن فيها .

ولا يفوتني أن أذكر حادثاً عرض للكنيسة الأندلسية سنة ٨٥١ ، فقد تخيَّل رجالها أنهم مضطهدون! .

على حين كان المسيحيون عامة يقيمون شعائر دينهم في (قرطبة) ولا يشكون من حكم الإسلام شيئاً .

وغاية ما هنالك أن فريقاً من القسس والرهبان الذين يتميَّزون غيظاً من انتشار الإسلام ، قام فيهم قس متحمس يدعى (إيلوغوا) وكان شاباً احتاج في كسر ثورة نفسه إلى قهرها بالصوم والسهر .

ثم ظل يعقد الاجتماعات بمبغضي الإسلام حتى أهاج ثائرتهم بقوة بيانه ، فقاموا جميعاً يطلبون الموت فداءً لدينهم . . . !!

فبينما كان القاضي المسلم في مجلسه بقرطبة ، إذ دخل عليه راهب اسمه

(إسحاق) يعمل كاتباً لأحد أمراء العرب، وكانت تبدو على الراهب سمات التهيُّج العقلي، فلما اقترب من القاضي قال له: حضرت لأعتنق الإسلام.

فأمره القاضي أن ينطق بالشهادتين، فاندفع الراهب يسبُّ النبي والدين سباً شنيعاً!.

فظنه القاضي سكران أو أحمق، وتردَّد في الحكم بإعدامه. . .

إلا أن إسحاق بعد أن ظفر بنجاته لم يقلع عن عمله الطائش، بل عـاود الرجوع إلى القاضي وتكرار شتائمه القبيحة مما اضطر القاضي أن يحكم عليه بالموت في ٥ يونيه سنة ٨٥١ فقُتل وهو يسبُّ صاحب الرسالة. . !!

والغريب أن طلاب التطهر ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية لم يجدوا باباً لإرضاء المسيح ونيل غفرانه إلا بهذه الطريقة البذيئة.

فقتل أحد عشـر شخصاً في شهرين بهذه الجريمة، مع أن القضاة كانـوا يصمُّون آذانهم حتى لا يحكموا على أحد.

وطالما أوعزوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء.

وقد ندَّد عقلاء النصارى بهذا المسلك، ورأوه انتحاراً شائناً.

غير أن (إيلوغوا) ورفقاءَه من القساوسة الحاقدين على الإسلام حسبوا ذلك انتصاراً لدعوتهم وتدعيماً لكنيستهم، ورموا مخالفيهم بخيانة المسيحية، وألحوا على رعاياهم بضرورة سبِّ محمد ودينه، حتى أشاعوا الهياج في كنائس الأندلس كلها.

فاستولى القلق على حاشية الخليفة، وطلب عبد الرحمن الثاني الاجتماع برؤساء القسس كي يستفتيهم فيما هو حاصل من أتباعهم! فسكتوا عما وقع في الماضي، وتعهدوا بالكفِّ عن مثله في المستقبل!.

ورأى الخليفة ألا يحضر أمام القاضي مسيحي في مثل هذه الأحوال إلا إذا رُفع أمره إليـه ليبتَّ فيه بنفسـه، رغبة منه في حقن دماء المخبولين من أولئـك النصارى المتعصبين.

ومع هذا النبل الرائع فقد ظلت خواطر النصارى مهتاجة حتى سنة ٨٥٩.

هذه هي فتنة (أيلوغوا).

* * *

إنَّ الذين يدبِّرون الجريمة لا يعجزون عن تبريرها، وعن تحميل الآخرين تبعتها، وهذا ما فعله الراهب السقيم (أيلوغوا) إذ سمى الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث عصر الاضطهاد في قرطبة(!).

وتبعه في هذه التسمية الوقحة بعض المؤرِّخين الصليبيين...

وأحبُّ من القارئ أن يلقي باله إلى هذه الحادثة وأمثالها، فإن الكاتب الصليبي الذي ألفنا كتابنا هذا لدحض مزاعمه حكى بعض حوادث الشغب في القاهرة من وجهة النظر التي تسيطر عليه، فأظهر المسلمين فيها كأنهم معتدون على حرية الدين، ساخطون على القلة التي تعيش بينهم من المسيحيين.

وسنرى في ضوء البحث المنزَّه: مَنِ الحقود المعتدي؟ ومَنِ السَّمح الكريم؟.

قال الكونت هنري: «إنَّ القصة كلها لا تعني أكثر من أن قوماً خاطروا بأنفسهم سُدًى فذهبوا ضحية الأوهام.

أما المسلمون فلم يقع منهم أي اضطهاد، وأدلتنا على ذلك من كتب (أيلوغوا) نفسه، وكتب من جاء بعده.

وهي جميعاً صريحة في أن المسلمين لم يبدؤوا بشر.

بل إن ثورة المسيحيين وتعديهم هما السبب فيما نزل بهم من قصاص».

قال: «وحدثت بعد ذلك بثلاثة قرون ثورة دينية تشبه هذه الفتنة المنقضية، كان مسرحها مدينة (إشبيلية).

ذلك أن القديس (فرانسوا داسيز) أرسل ثلاثة نفر من أشياعه لنشر النصرانية

في بلاد المغرب، فكان أول عمل أتاه أولئك المرسلون النجباء أن دخلوا مسجداً في (أشبيلية) والمسلمون يصلّون، فجعلوا ينشرون الإنجيل، ويعظون الناس بعقائده! فطردهم المصلّون من المسجد.

فخرج الوفد المطرود منطلقاً إلى قصر الملك، وهناك أخذ يطعن في القرآن الكريم!.

فحكم عليهم بالسجن في منارةٍ خاصة، فكانوا يعلونها، ويدعون المارَّة إلى عبادة المسيح!.

فلم يـر السلطان بداً من نفيهم، فأُرسـلوا إلى مراكش، فعاودوا اقتراف مآثمهم من طعن وسبٍّ في الإسلام ونبيه.

فأمر السـلطان بقتلهم جميعاً، ولـم تجدهم شفاعة (دون بيترو) مع علـو مكانته، عند السلطان ولقوا جزاءهم سنة ١٢٢٠م».

* * *

وحماقـة هؤلاء المبشـرين لا تقف عند حد، ألم يدخل أحدهم[١] الجامع الأزهر في العصر الأخير ليدعو فيه إلى النصرانية؟.

إن ذلك ينبئ عن مشـاعر المقت التي طغت على عواطف أولئـك الناس، فأفقدتهم اتزانهم، وأركستهم في أعمال ينفر منها الصبية.

لكنَّ الحقد لا عقل له ولا ضمير...

قال (ميشو) في تاريخ الحروب الصليبية:

«لما استولى عمر بن الخطاب على بيت المقدس لم يلحق النصارى ضرراً ما، فلما استعاده النصارى قتلوا المسلمين قتلاً، وأحرقوا اليهود حرقاً»!.

---

(١) هو سيئ الذكر القس زويمر، وهذا القس استدعى عند موته حاخاماً، وطلب منه أن يدفنه على الطريقة اليهودية، وفي مقابر اليهود!! (الناشر)

وقال الحبر (ميشو) أيضاً:

«مما يؤسف له جداً بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسالمة وشرف المعاملة من المسلمين . . ».

قال الكونت هنري دي كاستري: «إن مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم.

إذ أتاحت للمتعصبين أن يجمعوا أمرهم على العصيان، وأن يستغلّوا الفرص للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة . . . وحرية التدين.

ولو أن المسلمين عاملوا الأسبان مثل ما عامل المسيحيون الأمم الساكسونية لأخلدوا إلى الإسلام واستقروا عليه» . .

ثم قال الكونت المنصف:

«إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المغرضون.

بل الأقرب إلى الصواب أن يقال: إن مسالمة المسلمين ولين جانبهم كانا السبب في سقوط دولتهم».

* * *

هذه كلمة حق من مسيحي فرنسي.

ونحن لا نندم على فضيلة اتصف بها آباؤنا، لكن من حق الكريم إذا أعطى أن يُبصر أين تقع منحته؟ فلعله يرسل هديته لمن يستعجل منيَّته!.

وقد أصبحنا لا نستغرب ممن يتعصَّب ضدنا أن يرمينا بالتعصُّب!!.

فهل نتوقع من مرتكب الجريمة إلا أن يكذب؟.

وقد يكون من المناسب أن نذكر موقفين لأحمد بن طولون، تظهر فيهما جوانب من سماحة الإسلام وتسامح المسلمين:

الأول: ما رواه رهبان دير القصير عن ابن طولون قالوا:

«كان كثيراً ما يطرقنا الأمير أحمد بن طولون . . فشكونا إليه يوماً أمر ابن مدبِّر صاحب الخراج بمصر . وقلنا له : إنه يطالبنا بجزية رؤوسنا ، وقد أُسقطت عن أمثالنا على مرِّ السنين .

فوقَّع إليه بخطه توقيعاً وقال لنا : احذروا أن تجعلوا توقيعي هذا كالسيف الذي يصول به صاحبه ، ولكن استعملوا الاستكانة عند إيصالكم إياه إليه ، والمسألةَ وحسن التلطف ، فعجبنا من قوله ، وصرنا إلى ابن مدبر ، وإذا هو قد بلغه خبر التوقيع .

واستعملنا ما أمرنا به الأمير ، فأخذ التوقيع منا ، وبلغ بنا فوق ما نحبه ! ! .

والثاني : أن ابن طولون أرسل أحد قواده ليجمع الخراج ، فاغتصب القائد من راهب خمسمئة دينار ، إذ قيل : إن هذا الراهب يملك كنزاً ، فبكى الراهب وحزن ، فأُشير عليه بأن يذهب إلى الفسطاط ، ويكتب قصته ويقدمها لابن طولون ، فإنه (أميرٌ عادل منصف) ففعل الراهب ذلك .

فرآه حاجب ابن طولون ، وكان الحاجب صديقاً للقائد الظالم . فسأل الحاجبُ الراهبَ عن حاجته فقصَّ عليه القصة ، فخشي الحاجب من تأديب ابن طولون لصاحبه ؛ فدفع للراهب خمسمئة دينار بدلاً عن القائد ، واسترضاه فرضي وعاد إلى بلده .

وعلم بالحادثة بعض الناس ، فأبلغوها إلى ابن طولون . فأحضر القائدَ والحاجبَ والراهبَ .

ثم قال للراهب : كان سبيلك ـ ويلك ـ أن تدَّعي عليه ـ أي على القائد ـ بثلاثة آلاف دينار ، حتى آخذها لك منه ، وأجعل ذلك تأديباً له ولغيره .

ثم قال للحاجب : والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها ، وجميل رغبت فيه ، وقد قال الله عزَّ وجلّ : ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] ، لعمرت بك المطبق (سجن ابن طولون) . ولكن احذر أن تعود لمثلها ، ولا تستبدنَّ بأمر تأتيه دون أن تعرِّفنا به ، ولا تطوِعنا خبراً ولا سرّاً ولا قصةً ترفع .

فقال له الحاجب: أقلني أيها الأمير أقالك الله، فوالله لا أعود لمثلها أبداً.

قال: فانصرف إلى موضعك!.

ثم التفت ابن طولون إلى القائد وقال له: أفي رزقك تقصيرٌ عن مؤونتك؟ قال: لا.

قال: فأُخِّر عنك استحقاقك حتى يضطرك إلى ما أتيته؟ قال: لا.

قال: فبأي حال استحللت أن تأخذ من هذا البائس الضعيف ما تقطع به قلبه، وتبكي عينه، وتفقره وأهله؟ ألك حاجة أوجبت ذلك عليك، أو ضرورة دعتك إليه؟.. المطبق!.. وأمر بسجنه!.

وهكذا حُبِس القائدُ الكبير في قبطيٍّ مظلوم!.

* * *

ومن قرون فقد المسلمون سبقهم الأدبي والمادي فقداناً أزرى بأمتهم الكبرى، وألحق بهم هزائم شنيعة.

ومردُّ ذلك إلى الفتوق التي أصابتهم من داخل بلادهم نفسها، والفتن المترادفة التي التوت بمناهجهم وأهدافهم.

وفي إبّان الخلل الذي أصاب الإسلام دعوة ودولة، استطاع المعسكر الآخر أن يثب إلى الإمام وثباً، وأن يحرز سبقاً بعيداً في ميادين الحياة العامة.

فلمّا زحفت الحضارة الحديثة إلى العالم، استطاعت طائفة من المبشرين بالنصرانية أن يتسللوا في ركابها، وأن يهبطوا إلى بلاد التوحيد، محوّلين استغلال الهزيمة العسكرية لردِّ المسلمين عن إيمانهم العميق، ومحاولين انتهاز الأزمات القاسية التي أجاعت وعرّت وأمرضت الشعوب المغلوبة كيما يعلقوا القلوب بالنصرانية التي تساوم على تقديم المعاونات لتفريج هذه الأزمات.

ولكن المدهش أن الدعاة إلى النصرانية عجزوا أفضح العجز عن إدراك هدف قريب أو بعيد من أهدافهم.

فما تنصَّر مسلمٌ، بل على العكس مازال الإسلام المهزوم عسكرياً يفتح آلاف القلوب، ويترك فيها غرس الحقيقة السمحة، لتزدهر بعد وتثمر.

قال الكونت هنري: «من الصعب أن نتصور حالة مسلم، يريد مبشِّر مجتهد أن يدخله في النصرانية، إننا لو شبَّهنا حالته بمسيحي مستنير يريد وثني أن يميلَ به إلى عبادة الأصنام لكان التشبيه ناقصاً.

والسرُّ في استعصاء المسلم على التديُّن بالنصرانية استعصاءً قوياً هو استهجانه الشديد لمبدأ التثليث، واستغرابه لوجود عقول تُسيغه، وإعجابه الإعجاب كله بعقيدة التوحيد، وإحساسه باتِّساقها مع البداهة، والمسلم يعتقد أن دينه يفضل النصرانية درجات، وأنّ من المستحيل على المسيحيين أن يرتابوا ـ عقلياً ـ في سلامة الإسلام».

ثم يقول الكونت: «إنهم ـ أي المسلمين ـ يتخذون مسالمتنا لهم، حين نعزف عن مجادلتهم، اعترافاً ضمنياً بأن دينهم أقوى سناداً، وأصح اعتقاداً.

إنهم يعبدون الله تعبداً ذهنياً، وليس لدينهم من علامات أو وسائل خارج النفس.

وهم يرون في احتفالات النصارى ضرباً من الوثنية.

وهم ـ وإن سموا أرباب الإنجيل أهل كتاب ـ لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي المسلمين.

بل ربما مقتوهم لأنهم غيَّروا ما أنزل الله عليهم من الدين»!!.

ونحن ننبه مرة أخرى إلى أن الكاتب مسيحي فرنسي، وأنه يقول هذا في صدد التحدث عما تعانيه فرنسة من صعوبة في تنصير الجزائريين[1].

ولعلك تفهم بعدئذ بقية كلامه حين يقول:

«إن أعظم عامل في انتشار الإسلام ـ خصوصاً بين الزنوج ـ هو بساطة

---

(١) كتب هذا الكتاب إبّان الاحتلال الفرنسي الغاشم الظالم للجزائر العزيزة. (الناشر)

مذهبه وسذاجة تعاليمه، كما يبدو ذلك جليّاً في آيات القرآن، فهو أكثر ملاءمة لطبائع الهمج الذين لم يعرفوا ديناً من قبل (كذا)، وكلما وجد الرجل الجاهل دينين متّحدين في تقريرهما لوحدانية الله وخلود الروح، كالإسلام والنصرانية تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئاً عن هاتين الحقيقتين، فيعتنق الإسلامَ لا محالة، وهذه مزيّة يفضل بها الإسلام غيره في حسن التلقي وسرعة الانتشار، وهي مزية عرفت من القرن السابع عشر».

قال القس (ماراشي) في كتابه (الرد على القرآن):

«ولا يغيبنَّ عن ذهن القارئ أن هذه الطائفة الشريرة، أو المخرِّفة، أو ما تشاء لها من أسماء ـ يعني المسلمين ـ لا تزال حافظةً لكل ما في النصرانية من أمور ظاهرة الوضوح قريبة التصديق، يضاف إليها ما يوافق نظام الكون وقانون نشأة الدنيا.

وقد أبعد الإسلام عنه أحاجي الإنجيل، التي تخالها أول الأمر غير صحيحة، أو بعيدة عن المعقول، كما أنه جرَّد تعاليمه من كل قاعدة يشدُّ بها الخناق على البشر.

وبذلك أزاح من طريقه العقبتين اللتين يحسُّ الواحد منا بأنها الحاجز بينه وبين الدين الحق (يعني النصرانية).

ومن ثَمَّ كان الوثنيون الذين يريدون ترك دينهم في أيامنا هذه يؤثرون الإسلام على المسيحية».

والمرء لا يدري، أيضحك عجباً أم سخريةً من هذا الكلام؟.

الإسلام لا يصلح إلا للأمم الساذجة، لأن غباوتها تعجزها عن فهم الثلاثة واحداً..!!!

والإسلام لا يصلح إلا للأمم الساذجة، لأنها لا تستطيع أن تفهم كيف يُذنب قومٌ ويعاقب آخر فداءً لهم..!

أما الأمم الذكية فهي ـ بعبقريتها ـ تستطيع حلَّ هذه الألغاز.

ومن ثم فبساطة الإسلام تجعله دين السود، ومن في مرتبتهم، لأن أفكارهم لا تطيق فهم المعميات التي شحنت بها الديانات الأخرى . . .

إذا مَحَاسِنِي اللاَّتِي أُدِلُّ بِهَا   كَانَتْ ذُنُوباً فَقُلْ لِي: كَيْفَ أَعْتَذِرُ؟[1]

* * *

فلندع حديث العقل في العقيدة، والعدل في الجزاء، لمن تطيق عبقرياتهم فهم العقيدة بلا عقل والجزاء بلا عدل.

ولننقل فقرات من الكتاب المقدس ـ وهو الكتاب المفروض أنه نزل بوحي من الله هدايةً للناس إلى الطريق المستقيم ـ.

ونحن نختار هذه الفقرات من ثمانية إصحاحات بدأت من ص٩٨٥ إلى ص٩٩١ (نشيد الإنشاد) الذي ينسبونه لسليمان:

«ليقبِّلني بقبلات فمه. فإنَّ حبَّك أطيب من الخمر، أطيابُك طيبةُ الرائحة، واسمك طيبٌ مُراق، فلذلك أحبَّتْك العذارى، اجذبني وراءك فنجري . . .

أخبرني يامن تحبُّه نفسي، أين ترعى، وأين تُرْبِضُ عند الظهيرة؟؟.

حبيبي صُرَّةُ مُرٍّ لي بين ثديي يبيتْ.

كالتفاحة بين شجر الغابة، كذلك حبيبي بين البنين، في ظله اشتهيت أن أجلس، وثمره حلو في حلقي، أدخلني بيتَ الخمر، وعلمه فوقي محبة.

أسندوني بأقراصٍ من الزبيب، أنعشوني بالتفاح، فإني مريضةٌ جداً.

شماله تحت رأسي، ويمينه تعانقني.

أستحلفُكُنَّ يابنات أورشليم بالظباء، وبأيائل الحقول ألا توقظن، ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء . . .

هو ذا واقف وراء حائطنا، يتطلَّع من الكوى، يوصوص من الشبابيك.

---

(١) البيت للبحتري. (الناشر)

أجاب حبيبي، وقال لي: قومي ياحبيبتي، ياجميلتي وتعالي.

في الليل على فراشي طلبتُ من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته، إني أقوم وأطوف في المدينة، في الأسواق، وفي الشوارع أطلب من تحبُّه نفسي.

طلبته فما وجدته، وجدني الحرس الطائف في المدينة، فقلت: أرأيتم من تحبُّه نفسي؟.

فما إن تجاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدتُ من تحبُّه نفسي فأمسكته، ولم أُرْخِه حتى أدخلتُه بيتَ أمي، وحجرة من حَبِلت بي.

أستحلفُكُنَّ يابناتِ أورشليم بالظباء، وبأيائل الحقول ألا توقظن ولا تنبهنَّ الحبيب حتى يشاء.

ها أنت جميلة يا حبيبتي، عيناك حمامتان من تحت نقابك... شفتاك كخيط من القرمز، وفمك حلو، خدُّك كفَلْقَةِ رمَّانة تحت نقابك، ثَدْياكِ كحشفة ظبية، كلك جميل ياحبيبتي ليس فيك عيب، هلمّي معي من لبنان، يا عروس معي من لبنان، قد سلبت قلبي ياأختي العروس، كم محبتك أطيب من الخمر، وكم رائحة أدهانك أطيب من كل الأطياب، شفتاك ياعروس تقطران شَهْداً، تحت لسانك عسل ولبن، ورائحة ثيابك كرائحة لبنان، ليأتِ حبيبي إلى جنته، ويأكل ثمره النفيس.

كلوا أيها الأصحاب واشربوا، واسكروا أيها الأحياء.

أنا نائمة وقلبي مستيقظ، وصوتُ حبيبي قارعاً: افتحي ياأختي، ياحبيبتي، ياحمامتي.

وقد خلعتُ ثوبي فكيف ألبسه، وقد غسلت رِجلي فكيف أوسخها، حبيبي مدَّ يدَهُ من الكُوَّة فتحرَّكت له أحشائي.

حبيبي أبيض وأحمر.. خصائله مسترسلة حالكةٌ كالغُراب.. خدَّاه كخميلة الطيب، شفتاه سوسن. يداه حلقتا ذهب.. بطنه عاج أبيض مغلَّف بالياقوت الأزرق، ساقاه عمودا الرخام.. فتى كالأرزة، حلقه حلاوة وكله مشهيات، هذا

حبيبي وخليلي يابناتِ أورشليم.

ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة بالذات، قامتك هذه شبيهة بالنخلة، وثدياك بالعناقيد، قلت: إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها، وتكون ثدياك كعناقيد الكرم، ورائحة أنفك كالتفاح، ووصلك كأجود الخمر.

أنا لحبيبي وإليَّ اشتياقه، تعال ياحبيبي لنخرج إلى الحقل، ولنبيت في العراء هنالك أعطيك حبي.

ليتك كأخ لي الراضع ثدي أمي، فأجدك في الخارج، وأقبلك ولا يخزونني، وأقودك وأدخل بك بيت أمي. . فأسقيك من الخمر الممزوجة من سلاف رمّاني، شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني.

أستحلفكنَّ يا بنات أورشليم ألا توقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء.

* * *

خطب المطران مبارك(١) أمام الشيخ بشارة الخوري رئيس جمهورية لبنان، وأمام رياض الصلح رئيس الوزارة فقال: «إن الكتاب المقدس من سِفْر التكوين إلى رؤيا يوحنا اللاهوتي كتاب سماوي ووحي رباني».

فهل سمعت هذه الآيات البيِّنات من الكتاب المقدس؟.

أخشى أن تكون شاباً مستطار الشهوة، فتعصفُ صورها الحمراء بضميرك.

ما هذا؟ سليمان النبي يرسل هذا الشواظ من فمه، ليحرق به بقايا ما استقرَّ في الفِطَر من عفاف. . ؟؟

ياعجباً لهذه الآيات التي ينساب فيها أفعى الغرام متلوياً مهتاجاً كأنما يرقص على أنغام موسيقى دنسة. . ولكن لماذا نعترض؟.

---

(١) هو أغناطيوس مبارك أسقف بيروت للموارنة من أنصار الصهيونية. انظر كتاب (عدو عدوي الصلاة الصهيونية اللبنانية)، تأليف لورا زيترين إيزنبرغ ط. شركة المطبوعات للتوزيع، بيروت ـ لبنان، ص١٧٧. (الناشر)

إنَّ المسلمين أغبياء لأنهم لم يرتفعوا إلى المستوى الذي يفهمون فيه كيف أن الثلاثة واحد.

وهم أغبياء كذلك لأنهم لا يريدون أن يفهموا كيف يُقتل امرؤ بخطايا آخرين.

وهم أشدُّ غباوةً، لأنهم لا يفهمون من الآيات السابقة في نشيد سليمان أنها دعوة إلى الأدب العالي وتهذيبٌ للشهوة الحيوانية الطاغية.. !!

لستُ أشك في أن الألوف المؤلفة من المسيحيين لم يقرؤوا هذه (الآيات) الملتاعة!!

إنهم ورثوا الدين كما يرث المرء لقب أسرته.

فهو يتعصَّب له لأنه لقب أسرته فحسب.

ومن يدري؟ ربما كنا كذلك لو لم نستمع إلى القرآن الكريم، ونتعرَّف الحق من نصوصه التي لا يرقى إليها شك.

ومن خلال الوحي المحكم الذي نتلوه ونتدبَّره عرفنا أن الله واحد.

وأن كل امرئ رهينٌ بما كسب.

وأن الرسل جميعاً متفقون على تعليم البشر هذه الحقائق السهلة.

وأن هؤلاء المرسلين كانوا معلمين أخياراً، وكانوا جميعاً على طراز عالٍ من الخلق الزكي والمسلك الطهور..

وعرفنا أيضاً من قرآننا أن النصرانية الأصيلة لم تخرج قط عن هذا النطاق الواضح، وكذلك اليهودية..

لكن طوارئ الفساد التي غلبت على تراث موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أتاحت للوثنية الأولى أن تفرض نفسها على تعاليم الديانتين.

وأبرز مظاهر الوثنية، هو تعدُّد الآلهة، وتقديم القربان كفارة الخطايا،

وإسقاط كرامة الأنبياء جميعاً حتى لا تكون بهم أسوة حسنة.

وقد جعل دور عيسى ابن مريم عليهما السلام مشتركاً في هذه النواحي كلها.

فهو إلـه مع الله، وهو قربان تكفر به الذنوب.

وهو الذي يقول عن الرسل السابقين، كما جاء في الإصحاح العاشر من إنجيل يوحنا: «جميع الذين أتوا قبلي هم سُرَّاقٌ ولصوص».

ولا غروَ، فالذي أجرى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام هذه الكلمة هو الذي أجرى على لسان سليمان عليه الصلاة والسلام ثورة الحب والهيام التي قرأتها في نشيد الإنشاد!!!.

* * *

ومع ذلك يتساءل كثير من النصارى عن سرِّ انتشار الإسلام.

فمن قائل: انتشر بقوة السلاح.

ومن قائل: اعتنقته الأمم الغبية.

ومن قائل: دخل فيه طلاب الشهوات.

ومن قائل... إلخ.

وأبى أولئك الأذكياء أن يفكِّروا في العلَّة الأولى لدخول الجماهير الهائلة في الإسلام.

هذه العلة الأولى هي ما لديهم هم من تعاليم لا يصدقها عاقل، ولا تطيب بها نفس امرئ حصيف!..

أيّاً ما كان الأمر فقد بسط الإسلام جناحيه على العالم قديماً، وترك الحرية لأتباع الديانات الأخرى أن يصرُّوا على موروثاتهم أو يهجروها إلى شريعته الجديدة، ونتج عن ذلك أن دخل فيه ألوف.

ثم بقيت فئات من الناس داخل الرقعة التي ملكها، مستمسكة بأديانها،

ولا حرج في ذلك عليها.

لكنها ـ مع الأسف ـ تكره الإسلام، وتحسُّ كأنما كان تقدمه على حسابها.

فهي تودُّ العَنَت، وتنتظر له الخَبَال. . .

وليس أدلّ على ذلك من أن بطريرك المارون أنطون عريضة[1]، والمطران أغناطيوس مبارك كانا حرباً على الجامعة العربية، لتوهمهما أنها مقدِّمة جامعة إسلامية! وكانا عوناً لليهود على عرب فلسطين لأنه حبيبٌ إلى قلوبهم أن يكون اليهود مواطنين، وأن يكون المسلمون مشرَّدين!.

وذلك شكر اليد التي قدَّمها الإسلام في العصور الوسطى يوم كان قادراً على إفناء هذه الطوائف، ثم تنزَّه عن الإساءة إليها، أو سلبها حرية عبادتها.

لأنه لا إكراه في الدين. .

* * *

لقد شعر الدعاة إلى النصرانية أن إدخال المسلمين في ديانتهم مستحيل.

فماذا يصنعون لهدم الإسلام الذي يمقتونه أشدَّ المقت؟.

قرروا أن يفسدوا أبناءَه بتسليط الشهوات عليهم، وإشاعة الإلحاد الأعمى بينهم.

سئل رئيس مدرسة تبشيرية في فلسطين: كم نصَّرت من أبناء المسلمين؟ فكتب إلى سادته الذين أرسلوه، لا تسألوني كم مسلماً نصَّرته، ولكن سلوني كم معولاً صنعته من هؤلاء الأبناء لهدم الإسلام نفسه!!!.

ومناهج الدراسة التي تخرِّج اليوم أبناء الإسلام مفروضٌ فيها أن تقطع صلتهم بدينهم، فلا يتعلمون منه حكماً، ولا يتربون منه على فضيلة.

---

(١) من أنصار الصهيونية استلم البطركية عام ١٩٣٢م خلفاً لحويك. انظر المصدر السابق، ص٧٦. (الناشر)

وبذلك تشُبُّ الأجيال الجديدة غريبة عن الإسلام، بل عدوةً لتقاليده وشرائعه.

فإذا كانت هذه الناشئة المقطوعة عن دينها هي التي تلي الوظائف الصغرى، والمناصب الكبرى، فلن يُنتظر منها إلا أن تصنع بدينها الموروث مثل أو أشد مما يصنعه به خصومه الناقمون عليه...

وذلك ما يثلج صدور الصليبيين في حملتهم الحديثة على الإسلام.

إن الحضارة المادية الأخيرة تهاجم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر.

وإذا أفلحت في غزو مسلم فأفسدت قلبه، وشكَّكته في ربه، فإنه سيترك قيود إسلامه لينطلق مع حياة الإلحاد المطلق.

ويستحيل أن يترك الإسلام إلى النصرانية.

لأنه إن رأى الإسلام خطأ في فهم الحياة فسيرى النصرانية جنوناً مطبقاً وحماقة كبرى!!.

والذي يستبعد من طريقه إيماناً قائماً على قواعد المنطق لن يلتفت أبداً إلى إيمانٍ معزول عن العقل والعدل.

ورجال الكنيسة الكارهون للإسلام يعرفون هذا حق المعرفة.

بَيْد أنهم يرون شيوع الإباحة والإلحاد في الدنيا كلها أدنى إلى عواطفهم من بقاء الإسلام في بلد استقرَّ فيه دهراً طويلاً.

ولقد تظاهر الغزو الصليبي والاحتلال الأجنبي على بلوغ هذه الغاية الخسيسة، كلاهما يريد القضاء على الإسلام، والإجهاز على روح المقاومة فيه.

فأما الاحتلال العسكري، فهو يرى في بقاء الإسلام خطراً على كيانه.

إذ سيظل المسلمون المخلصون يقاتلون عدوَّهم، ويستمسكون بحقوقهم، وينتهزون كل فرصة لرده من حيث جاء.

وأما الهجوم الصليبي فقوامه الغل الذي يتوارثه رجال الكنيسة على الإسلام وأهله، ولو مكَّنتهم أيديهم من إشباع رغائبهم لملؤوا بلادنا بالمذابح التي تُوارينا على عجل تحت أطباق الثرى!.

ما سرُّ هذا الغضب الهائل على الإسلام وأهله؟.

أهي كراهية المريب لمن يعرف حقيقته ويكشف خبيئته؟.

فالكنيسة يهيجها من الإسلام أنه يلفت الأنظار بقوة إلى ما في مبادئ التثليث والفداء من تناقض وغرابة!!.

أم هي الرغبة في الانفراد بالبقاء؟.

إذ الكنيسة تعلم أنه في سوق التنافس الحر بين الأفكار والأديان لن تلقى بضاعتها رواجاً، فهي تلجأ إلى وسائل الدسِّ أو العنف لتطرد السلع الأخرى من السوق، وتمنعها من التداول...

المهم أن الحضارة المادية الحاكمة في الغرب، والكنيسة المسيحية المحكومة هناك قد اتفقت مصالحهما في القضاء على الإسلام، وإظلام حاضره ومستقبله.. وأنهما رأتا الطريقة المثلى لتحقيق مآربهما هي إفساد التعليم بإقصاء الدين عنه، وبذلك يتخرَّج الوزير الكبير، والضابط الكبير، والطبيب الكبير، والمهندس الكبير... إلخ. وكل أحد منهم لا يفهم من دينه حرفاً، بل لعله يعرف عن دينه ما يزهِّده فيه، وبذلك يتمُّ الارتداد عن الإسلام في صمتٍ وأمان...!!!

ويصل الصليبيون الجدد إلى ما عجز أجدادهم عن الاقتراب منه في العصور الوسطى بعد حرب دامت أجيالاً!!.

وقد شعر المسلمون المخلصون بخطورة المصير المرسوم لدينهم، فهبُّوا يصرخون محذِّرين من عواقبه، حتى بُحَّت أصواتُهم وليس من مجيب!!.

وآخر ما قرأناه في ذلك نداء وجهته جبهة علماء الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء قالت فيه:

«إن الشعب المصري من أقوم الشعوب علماً بشريعة الإسلام، وتمسُّكاً بـأحكامه وآدابه، وحفظاً لكتابه وسنته، وكان لتعليم الدين المكـان الأول في مدارسه، لأنه عرف أن طلب العلم الديني فريضة على كل مسلم ومسلمة.

وبهذا حافظ المصريون على شعائره وتقاليده، وأقاموا أحكامه وحدوده، فعزُّوا وتزعموا غيرهم من الأمم.

وإن جبهة علماء الأزهر ـ وواجبها الأول هو المحافظة على تعاليم الإسلام والعناية بنشرها بين جماعات الأمة ـ ليؤسفها أشدَّ الأسف أن ترى موجةً عاتية من الجهل بأحكام الدين قد عمَّت قلوب الناشئة، فشوَّهت عقائدهم وتقاليدهم، ومسـخت أخلاقهم وأفكارهم، فأصبحنـا نرى المبادئ الفاسـدة، والأخلاق المرذولة تسودُ حياة الشعوب.

وتوالت العلل على مجتمعنـا المتديِّن، فتنكرت الناشئة للمثل العليـا، وكادت موازين الأخلاق الكريمة والأدب الرفيع تنهار.

فمن تبرّجٍ وصل إلى حد العُري، إلى ميوعةٍ في المعاملة، إلى إعراضٍ عن عبادة الله، ووزنٌ كل شيء في الحياة بميزان المادة.

وهذا لأن وزارة المعارف فهمت أن حياة الأمة الرشيدة ليست بحاجة ماسَّة إلى تعليم الدين، بل يكفي أن تقوم على ثقافة مجرَّدة قوامها التوسُّع في الرياضيات واللغات والمعلومات العامة، ولهذا لم تخصِّص للدين إلا دروساً تافهة.

ومع هذا جعلت تعلمه اختيارياً، ولم تعممه في مراحل التعليم كلها، حتى أصبحت دروس الدين لا يأبه لها أحد، لا التلميذ ولا المدرس، لأن التلميذ إنما يحفل بالمواد التي سيترتَّب على حذقها نجاحه آخر العام.

إن مدارس الأمة هي القوَّامة على تهذيب النشء وتثقيفه، وغرس الفضائل وتقوى الله في النفوس؛ والتعريف بأحكام الإسلام وعقائده على وجهٍ صحيح، حتى يستطيعوا أن يسيروا في الناس سيرةً مؤدَّبة نبيلة؛ وأن يردوا عن قلوبهم

الأفكار السقيمة التي تنشرها مجلات مريضة، وكتبٌ مسمومة.

هذا هو الواجب الأول للمدارس والجامعات.

ولن يستطاع القيام به إلا بالتوسع في دراسة الدين، وإلزام الطلاب به في جميع مراحل التعليم.

إن دُور العلم ينفق عليها ربع مال الأمة، فيجب أن تكون أداةً تصوغ لمصر جيلاً جديداً يعرف حقوق ربه، وحقوق الناس، يميز الخبيث من الطيب، والحلال من الحرام، يتذوّق طعمَ الحياة الكريمة المحافظة، فيؤثر التمسُّك بها، وذلك لا يوجد إلا في تعاليم الدين، فالضمائر لا يوقظها ولا يهذبها إلا خوفُ الله . . .

ومن المفارقات الغريبة أنَّ نقص نصف درجة في الموسيقى أو الرسم يرسب به الطالب، وأن جهله بالدين كله لا يضرُّه شيئاً.

إن ذلك جعلنا نجني أمرَّ الثمرات، ونشاهد في ناشئتنا مظاهرَ التمرُّد والاستخفاف بكل فضيلة، والخروج عن كل معنًى كريم . . ».

* * *

لكنَّ هذه الشناعات التي يجأر العلماء من فشوِّها، هي بعض ما تجتهد أوروبة الصليبية لإشاعته بيننا، إن الفساد الذي عرا الأخلاق، والتصدُّع الذي أصاب الجماعات خيرٌ في نظر رجال الكنيسة من إشراف الإسلام على التوجيه العام لسياسة التعليم والتنظيم!!.

وإنك لتدرك حقيقة الشعور الكنسي نحو الإسلام من القصة التالية:

منذ عشرين عاماً وفد قسيس مسيحي إلى القدس كيما يشتغل بالدعاية إلى النصرانية، وبدأ هذا القسيس ـ واسمه ألفريد نيلسون ـ يراسل نفراً من المفكرين المسلمين، يناقشهم في بعض حقائق الدين! ويوزِّع عليهم نشرات تتضمن أفكاره!.

وقد فنَّد العلماء الذين عنوا به جميع ما أورد من شبهات .

لحق أن الرجل كان محامياً مخلصاً في الدفاع عن ديانته، وما أزرى به أمام مجادليه إلا موضوع قضيته .

فإن القضية الظاهرة العوار لا ينفعها المحامي البليغ مهما أوتي من اقتدار .

ومن الرسائل التي استوقفتني في هذه المساجلة نصيحة أسداها الأستاذ عيسى نبيل المحامي بشرق الأردن إلى هذا القسيس المجتهد قال فيها :

« . . . لستُ أدري ما الذي يحملكم على تبشير المسلمين؟ خصوصاً والعالم لا يزال مليئاً بعبدة الأوثان! .

ولو ضُوعف عدد المبشِّرين في العالم ما كفوا لتبشير أهل الصين وحدهم .

ثم لا يخفى أن هناك كثيرين يعبدون الشيطان وغيره في أفريقية .

لماذا لا توجهون جهودكم إليهم؟ حتى إذا انتهيتم من عملكم هذا استطعتم أن تبشروا بين المسلمين . . . لاسيما وليس هناك كبير اختلاف بينكم وبينهم، هم يعبدون الله الواحد، ويقرُّون بالسيد المسيح نبياً ورسولاً! .

ثم هناك أمةٌ مسيحية يجب إنقاذها قبل المسلمين، فالمسيحيون المرتدون أقرب إليكم من غيرهم، فيجب ـ فيما أعتقد ـ توجيه الجهود لإنقاذهم، وأعني بهؤلاء: الشيوعيون فعندي أن المسيحيين يجب ألا يقرَّ لهم قرار، حتى يبشِّروا إخوانهم الروس ويردُّوهم إلى حظيرة المسيحية .

الحق يقال: إن المبشرين المسيحيين يجب أن يبادروا إلى العمل في المجاهل التي لا تعرف شيئاً عن واجب الوجود ـ سبحانه ـ إلخ» .

أتعرف ما كان جواب القسيس الذكي على هذا النصح الواضح؟ .

قال: « . . لا يجوز لنا أن نترك المسلمين دون تبشير بالإنجيل .

نعم إن المسلمين يعتقدون بالتوحيد، وهم يحترمون عيسى ابن مريم، ولكن مجرَّد الاعتقاد والاحترام لا يجدي نفعاً .

وبحسب تعاليم الإنجيل سيُطرد في يوم الحساب كثير من المستندين على اسم أو على اعتقاد؛ ولو كان صحيحاً».

قال القسيس: «لأن أهم نقطة في الدين عمل المسيح للناس كالوسيط بينهم وبين الله تعالى، حتى يؤكِّد لهم مغفرة خطاياهم، ويدخلهم في حالة أولاد الله! فيبعدنا عن سلطة المجرب! ويقوينا لحياة صالحة!.

ومع احترام المسلمين للمسيح فإنهم لا يجدون فيه شيئاً من ذلك.

إنَّ اعتقادهم في المسيح أعلى جداً من عقائد الأمم الأخرى، ولكن لا نقدر إلا أن نبشِّرهم بتلك البشارة...».

وكلام هذا المبشِّر المسكين يشير إلى أن إيمان المسلمين بالله الأحد، ويقينهم في يوم الحساب لا قيمة له، لماذا؟.

لأن الشيء الأول والأخير في الدين أن تعتقد بأن عيسى قُتل فداءً لخطاياك وخطايا آبائك وأبنائك (كذا).

فإذا قلت أيها المسلم: إن ثوابي أو عقابي ليس إلا نتيجة عادلة لخطئي أو صوابي، ولا مَدْخَل لأحدٍ أبداً في حسابي.

قال لك هذا المبشر المسكين: إنك كفرتَ وطُردتَ، ولا قيمة لإيمانك بالله وإجلالك لعيسى ابن مريم..

ولما كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو التراث الباقي لدى النصرانية من وحي السماء، وكانت فكرة القُربان فداء الخطيئة هي العنصر الدخيل من الوثنية الأرضية، كان معنى ذلك أنَّ مسلك المبشِّرين النصارى يقوم على تحقير الصلة الوحيدة التي تربطهم بالسماء، وتضخيم الخرافة الكبيرة التي تلصقهم بالأرض.

ولو كان لدى هؤلاء القساوسة نصيبٌ من سَداد، لجعلوا الإيمان بالله ركناً قائماً، لا مسألةً تافهة، ولجعلوا الصلب نافلة ثانوية لا دعامةً خطيرة!.

ولكنَّ حظ الشيطان غلب.

ولا أدلَّ على غلبة حظ الشيطان من أنَّ الكنيسة رتبت أعداءها الألداء، فكان الإسلام أول أولئك الأعداء.

في سبيل القضاء عليه، حالفت المجوسية، ولو كانت كفراً بالله.

وفي سبيل القضاء عليه، حالفت اليهودية، ولو كانت تحقيراً لعيسى..

فكانت بعض المؤسسات المسيحية في الولايات المتحدة تكتب بأضواء الكهرباء:

«ادفع دولاراً واحداً تقتل عربياً» في فلسطين.

وفي سبيل القضاء على الإسلام حالفت الإباحية التي جعلت الأعراض كلأً مباحاً، تركتها تنتشر في الغرب، ثم تنتقل إلى الشرق.

ولكنَّ الخطايا ليست أمراً جللاً، فإن صلب عيسى غفرها لأتباعه سلفاً!!.

إن الأمر الجلل هو بقاء الإسلام.

تلكم صورةٌ عاريةٌ لشعور الكنائس المختلفة نحو الإسلام وأهله.

وهي صورة ينقبض لها فؤاد المسلم الذي يودُّ لو يلقى الناس كلهم بوجه ضحوك وقلب تقي.

وقد تحدَّث بعض خبثاء المستشرقين مبرِّراً ضغائن قومه على الإسلام، فزعم أن الإسلام هو الذي بدَّل موقفه، إذ بدأ أول أمره مسالماً مُوادّاً، فلمّا استشعر القوة وملك السلطان تنكَّر لأهل الكتاب.

أما أنَّ الإسلام بدأ أول أمره مسالماً موادِداً فهذا حق.

وأما أنه وجد من أهل الكتاب ـ يهوداً أو نصارى ـ تقديراً لهذه المسألة أو احتراماً لهذه الموادة فذاك باطل.

ليدلنا من شاء على موقف واحد في التاريخ وقفه رجال اليهودية أو النصرانية فيه مؤازرة للإسلام وهو يكافح الوثنية، أو فيه حِياد مُشْرَبٌ بعطف، أو حياد

مجرَّد، أو امتناع فحسب عن مساعدة عباد الأصنام.

ليدلونا ـ إن استطاعوا ـ على موقف واحد.

هادنت فيه الكنائس المسيحية خصومها في الرأي أو العقيدة، ومكنت فيه أعداءها من إقامة شعائرهم التي يقدسونها.

لقد بدأ الإسلام فصرَّح:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١٥].

فكأن أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا يحتكرون ربَّ العالمين لأديانهم، برغم ما خالطها من تشويه، وشابَ تاريخها من إجحاف.

فهم يثبون على الإسلام ودعاته من كل جانب، يريدون إخراس ألسنتهم، بل يريدون انتزاع أرواحهم من جسومهم.

فأيُّ عاقل يلقى هذا التنكر والصدود بالراح العزلاء..؟

وأيُّ كريم يبذل ودَّه لمن يرفض وده ويبغي قتله؟.

إن الإسلام مازال على موقفه الأول لو لقي من اليهود والنصارى عرفاناً بالحقائق، واحتراماً لذويها، والتزاماً بالحدود الصحيحة في شتى المعاملات.

* * *

ويوجد من أهل الكنائس أناسٌ أوتوا حظاً من السماحة والبصر، عاملوا المسلمين بكرم ونبل، فبادلهم المسلمون التحية بخيرٍ منها وحافظوا أتمَّ المحافظة على مشاعرهم ومناسكهم[1].

وكم نرجو لو يكثر هؤلاء المنصفون، وكم نرجو لو ملكوا زمام قومهم

---

(١) مثل فارس الخوري رئيس وزراء سورية ورئيس برلمانها. (الناشر)

فعاشوا وعشنا معهم في وئام وطمأنينة . .

لكن هؤلاء المعتدلين لا يجدون استجابة من قومهم .

فإنَّ روح الحقد المتأصل على الإسلام تدمِّر ما أمامها، وتجابه المسلمين بأوضاع محرجة . .

وقد لاحظنا ذلك حتى في الأقليات الدينية التي تخلفت بهذه الديار بعد انتشار الإسلام فيها .

إن هذه الأقليات تأبى الاعتراف بأن ديناً جديداً قد ألقى رحاله هنا، وأن كثرةً كبيرة قد آمنت به ! ! .

ويبدو هذا الإباء في محاولاتها المتعمدة أن تفرض وجودها بالعنف أو اللطف على كل شيء، ولو على حساب الكثرة الطيبة المهادنة .

فإذا كان في بلد ما مئة أسرة، تسعون منها مسلمة، تصلي في أربعة مساجد فإنَّ الأسر العشر الباقية تحاول أن يكون لها أربع كنائس أو خمس ! ! .

ولماذا تبذل هذه المحاولات؟ .

إنها رغبة من القلة المتوجِّسة في إثبات بقائها، وتدعيم كيانها، وإبراز طابعها على الأرض التي تحيا فيها . . عليها كلها ! ! .

وربما أحسَّت الكثرة بهذه النيات، فوضعت قيوداً على بناء الكنائس، محافظةً منها كذلك على أن يكون مظهر البلاد إسلامياً مادامت كثرة السكان مسلمين .

والنزاع بين القلّة والكثرة هنا ليس نزاعاً على حرية العبادة، فهي ليست موضع جدل . بل نزاع على أيِّ الفريقين يترك طابعه على البلاد .

الكثرة المسالمة أم القلة المتحدية؟ ! ! .

القلة التي تريد أن تبني في كل قرية متداعية البنيان كنائس سامقة الجدران ـ للإعلان لا للعبادة ـ والتي تتخيَّر الأحياء الحسَّاسة في المدائن الكبرى لتدفع

بأبراجها في الفضاء، كأنما تقول للكثرة المسلمة:

إنّكم هنا غرباء طارئون!! وإنّ دينكم في عواصمه الكبرى لا ينبغي أن يحتلّ إلا منزلة مهينة.

وقد امتدَّ هذا التحدي من ناحية العقائد إلى الناحية العمرانية العامة.

فإنَّ الأقليات المتحفِّزة للسيطرة على البلاد، الحالمة بعودة الحكم المطلق إليها، تعمل ـ جاهدةً ـ على استغلال كل نفوذ تحرزه في الإدارة والوظائف، لخدمة مصالحها الخاصة.

وعندما تولَّى (بطرس غالي باشا) رئاسة الوزارة في القرن السابق تمكن من أن يبيع للأقباط من أملاك الحكومة أرضاً شاسعة في الصعيد بأثمان سمحة.

وذلك سرُّ الثروات الضخمة التي تكوَّنت لهم هناك.

على حين يعيش أكثر المسلمين فقراء مضيَّعين.

ولست أبخس الأقباط حقهم باعتبارهم طائفة نشيطة تستحق حياةً حسنة.

فمعاذَ الله أن أجنحَ إلى ظلم.

بل غاية ما أريده أن أضع حدوداً واضحةً بين ما يحصل المرء عليه بجده، وما يكسبه بوسائل ملتوية، أهمها استغفال الكثرة، وانتهاز سماحتها لإضاعة حقها، ثم الطعن عليها بعدئذٍ، واتهامها بالتعصب الأعمى!!.

وهكذا ينقلب الظالم مظلوماً.

* * *

إنني أكره التعصُّب، وأحسُّ المرارة التي ذاقها المستقدمون والمستأخرون من لوثاته..

وكيف لا نكره التعصُّب، ونحن ـ المسلمين ـ أشد الأمم تعرُّضاً لآثامه وآلامه؟!.

إلا أننا ـ وإن كرهنا التعصب ـ ننبه إلى منقصةٍ شر منه.

ونعني بها: جحود السماحة، واستضعاف صاحبها الكريم السهل...

أليس مما يغصُّ الإنسان به أن ثلاثمئة وألف من السنين تمرُّ على الأقلية اليهودية في بلاد الإسلام، فلا تضار في مالٍ أو ولد، ويمرُّ عليها هذا الدهر الطويل في بلاد النصرانية وهي تطارد من بلد إلى بلد.. ثم ماذا تكون العقبى؟؟.

أما جزاء المطاردين فقد ترك اليهود بلادهم هاربين.

وأما جزاء السمحاء الأخيار فقد أقبل اليهود على بلادهم هاجمين.

كأن جزاء التعصب أن يسلم أصحابه من العدوان، وجزاء الاعتدال أن يتحمَّل أصحابه الهوان...

* * *

افتراء .. من الألف إلى الياء

دخل الإسلام مصر بعدما تمكنت قواته من طرد الرومان المحتلين، وتعقب فلولهم المدحورة حتى اضطرتهم إلى الجلاء عن البلاد كلها.

وقد أحسَّ المصريون على عجل بأنهم ليسوا أمام فاتح تُغريه نشوة النصر بالبغي والاستعلاء.. بل أمام رجال تحكمهم أخلاق فاضلة، وتضبط سلوكهم شريعة واضحة، وأن البَوْن بعيد بين كبرياء الرومان وبساطة المسلمين[1].

ومع كثرة مؤرخي النصرانية الحاقدين على الإسلام، فإن أحداً منهم لم يجرؤ على اتهام العرب بأنهم أكرهوا قبطياً على ترك دينه، أو حرَّضوه على دخول الإسلام بأساليب تجافي المنطق الحكيم.

ومع ذلك فإنه لم يمض نصف قرن على دخول الإسلام في مصر حتى تحوَّل إليه أكثر النصارى، كما يتحوَّل الناخبون في البلاد الحرة من حزب إلى حزب، وكما يؤثرون منهاجاً على منهاج.

وما هي إلا أيام حتى أصبحت النصرانية دين قلَّة محدودة، تعتمد في بقاء موروثاتها وطقوسها.. على سماحة الإسلام وأهله فحسب.

والحق أن هناك ألوفاً مؤلَّفة من النصارى تستبطن الريبة في عقيدتي الثالوث والفداء، أو تستشعر التبرُّم الخفي بهما.

وتود لو تخلَّصت منهما كما يتخلص الحمَّال المثقَل من عبء أثقل كاهله.

---

(١) انظر قصة (اليمامتان) لإمام البيان وفيلسوف القرآن مصطفى صادق الرافعي رحمه الله تعالى في كتابه الخالد (وحي القلم): ١/ ١٧. (الناشر)

فإذا واتت فرصٌ مناسبة للدخول في عقيدة أخرى دون غضاضة تلحق النفس من الانخلاع عن عقيدتها الأولى، كان ذلك إيذاناً بتحول واسع النطاق.

وذاك سرُّ انتشار الإسلام لا في مصر وحدها، بل في الرقعة الفسيحة التي أبعد عنها سلطان الضغط والقسر...

إن جماهير الأقباط - الذين أسلموا عن رغبة - لم يتركوا نصرانيتهم الأولى إلا بعد اقتراب نفسي وعقلي من تعاليم الدين الجديد.

وقد كان الحكام المسلمون في العصر الأول يرقبون هذا التطور في صفوف الشعب وهم في موقف الحياد الدقيق.

بل ربما كان مسلك بعضهم أقرب إلى الصدِّ عن الإسلام من تحبيب الناس فيه، وإغرائهم باعتناقه[1].

ولا ريب أن في الأقباط رجالاً كرهوا هذا الأمر، وراعهم الانتقاض المفاجئ على الكنيسة.

وربما اعتبروا إقبال إخوانهم على الإسلام خيانة لتراث النصرانية، وموالاةً للدولة المقبلة، وربما هاج ذلك ضغائنهم على الدين الجديد، فأضمروا لأهله الشر.

بَيْد أن ذلك كله لم يجعل الحكومة في يد الإسلام سَوْط عذاب على المخالفين.

فبقيت الديانات الأخرى لمن رضي بها لا تلقى من أحدٍ عَنَتاً، ولا يجد أهلها في الاستمساك بها حرجاً.

وقد أثبت التاريخ حقيقة رائعة، أن المسيحية أو اليهودية تستطيع أن تعيش في ظل الإسلام - إذا حكم - معيشة طيبة.

لكن كلتا الديانتين إذا حكمت لا تسمح للإسلام أن يعيش في ظلها.

---

(١) كما كان الحال من بعض الولاة الأمويين. (الناشر)

وتلك علّة بقاء الأقليات الدينية في الشرق الإسلامي، وفناؤها في أوروبة المسيحية.

ولو قارنا بين الفتح الإسلامي للبلاد المسيحية، والفتح المسيحي للبلاد الإسلامية لاسودَّت وجوه الأدعياء المفترين.

وسنفرد باباً خاصاً بإفناء المسلمين في إسبانية، والمراسيم والقوانين التي أصدرها البابا والملوك النصارى لتنظيم هذا الإفناء الذريع[1].

إن المسلمين لا تتحرك في ضمائرهم نوايا الغدر والفتك بمن يخالفونهم في الدين.

وقد مضت قرون طوال على انفراد الإسلام بالسلطة المطلقة في العالم أجمع، لو شاء المسلمون خلالها أن يبيدوا خصومهم لفعلوا، لكن الذي حدث أن المسلمين كفلوا حياة خصومهم، ودافعوا عنها كما يدافعون عن دمائهم وأموالهم.

فلما انتقل زمام القوة من أيديهم تحيَّن اليهود والنصارى كل فرصة للإيقاع بهم، فاستُؤصل المسلمون من بقاعٍ شتى.

ورأينا اليهود الذين سمح المسلمون ببقائهم في فلسطين يتحوَّلون إلى دولة لا تعيش إلا على أنقاض المسلمين.

ورأينا الحبشة ـ التي سمح حكامها المسلمون ببقاء الأقباط فيها ـ تتحوَّل إلى دولة صليبية هدفها إفناء الإسلام وأهله.

ونصارى الحبشة هم القلة الحاكمة، ومسلموها هم الكثرة المحكومة.

كأن أسلافنا احترموا حق الحياة لأولئك جميعاً كيما يرتدوا على ذراريهم يسلبونهم حق الحياة، ويستنكرون عليهم أن يبقوا بإسلامهم، أو يبقى بهم إسلام!

---

(١) انظر ص (٣٠١) من هذا كتاب.

أُرِيـدُ حَيـاتَـهُ ويُـرِيْـدُ قَتْلـي . . !! عـذيـرُكَ مِـنْ خَلِيْلِـكَ مِـنْ مُـرادِ

* * *

ثم جاء أخيراً هذا الكاتب الناقم على الإسلام، فرأى أن يعلن عليه حرباً أخرى تقوم على سلسلة من الأكاذيب الضخمة.

وهداه حقده إلى الاتجاه إلى أقباط مصر، ينبئهم بما لا يعلمون هم ولا آباؤهم، ويلقي في روْعهم أنهم عاشوا في البلاد غرضاً لحملات متتابعة من التعصب المقيت (كذا) . . . تعصب من؟ تعصب المسلمين ضد النصارى!!.

وعمي الكاتب الكاثوليكي عن تاريخ كنيسته المفضوح في ماضي الحياة وحاضرها، ونسي أنه هو نفسه موظف مسيحي يأخذ مرتباً سخيّاً من حكومة مسلمة، ويجلس على كرسيه الوثير ليصدر الأوامر إلى جملة من الموظفين المسلمين تحت يده . . !!

لقد عَمِيَ عن هذا، ونسي ذاك، وجحد النعمة الدافقة التي يعيش فيها هو وألوف من أمثاله في بلاد الإسلام . . .

ثم أمسك بقلمه يكتب أنَّ الإسلام دين تعصب، وأن حكامه وشعوبه قوم متعصبون ضد الأديان الأخرى!!.

والدليل على ذلك أنه منح في بلاد الإسلام ما يعزُّ عليه مناله في بلاد النصرانية نفسها . . .

* * *

من الأمراض التي تلحق النفس الإنسانية ما يسميه العلماء (بالإسقاط).

فقد تكمن في طوايا المرء رذيلة معينة أو شهوة جامحة، تلوِّن الحياة أمام ناظريه بصورة لا تمتُّ إلى الواقع بصلة، لأنها فيض من نفس الناظر الذي تخيَّل فخال!.

وقد روى الأستاذ القوصي في كتابه (الصحة النفسية) قصة فتاة عانس طال

عليها الحرمان، وأدبرت عنها الحياة، ولكن تشبثها العاطفي بصحبة رجل، ورغبتها الشديدة في أن تسمع ألفاظ التدليل والإعزاز أخرجاها عن طورها، فكتبت يوماً إلى النيابة العامة تتهم رجلاً شريفاً أنه أساء الأدب معها، وتجرَّأ على مغازلتها!!.

وجيءَ بالرجل الذي اندهش لتهمة لم تخطر بباله! وحقق مع العانس، فتبيَّن أن أشواقها الكامنة خيَّلت إليها ما لم يكن، فاتَّهمت الرجل بما تود لو وقع منه! لأنه حاجة نفسها المكبوتة!!.

وإنك لتجد كثيراً من الناس يعيبون غيرهم برذائل هي فيهم، وليست في غيرهم.

لا تدري: أيحسبون غيرهم مثلهم؟ أم أن أنفسهم قد رشحت بما اكتظت به؟ فهي تسقط رشحها هذا على الآخرين!!.

إن الكاتب الصليبي الذي سوَّد صحائفه بأشنع التهم ضد الإسلام كان لا شك يعاني حالة مرضية من هذا النوع الشاذ.

فالتعصب الكَنَسي الذي يجرُّ وراءه مخازي قرون طوال أوهمه أن الحياة كلها لا تدور إلا على محور من التعصب الأعمى.

فإذا المؤلف يفعل فعلة الفتاة العانس السابقة، فيطلب محاكمة الإسلام بتهم هو منها براء.

لأنها فيه وفي قومه داء عياء..

وحدِّث عن رجل يريد أن يشوِّه حقائق دين وتاريخ أمة!.

ماذا يصنع في أربعة عشر قرناً كانت الأقليات الدينية فيها مروعة في كل مكان إلا في أرض الإسلام؟.

إنه يكذب ويكذب، لعله يستطيع أن ينفث من دخان قلبه المحترق ما يعكر به الأفق النقي الذي امتازت به بلادنا.

على حين كانت (أوروبة) ترغي وتزبد، وتضطرم أجواؤها بنيران العداوة

والبغضاء بين مذاهب النصرانية المتناحرة، أو بين النصارى واليهود التائهين في كل مكان . .

إنَّ هذا الكاتب ماروني كاثوليكي[1]، وقد جاء يستجيش أحقاد القلة من أقباط مصر على الكثرة الغامرة من سكانها، مُدَّعياً أن المسلمين أساؤوا إلى الأقباط! وأن تاريخ العلاقات بين الفريقين يشهد بذلك! .

كأن الكاثوليك حُرَّاس العدالة في الأرض .

أو كأنهم ليسوا آخر من يتكلم في هذا الموضوع! .

إن الكاثوليك حكموا الأقباط قبل المسلمين، فأذاقوهم ألوان العذاب .

ولو أن أولئك الكاثوليك أخذوا الأقباط معهم إلى فرنسة مثلاً، أفيكون حظهم أفضل من حظ البروتستانت الذين تعرضوا لمذابح شنعاء؟ .

وحفظ التاريخ أخسَّ ضروب الغدر لما أوقعه بهم أولئك الكاثوليك الأشراف، لكن (إذا لم تستح فاصنع ما شئت) .

لقد جاء هذا الكاتب إلى تاريخنا يرمينا بدائه، فاستعرض حال الأقباط، فما وجد من خير واستطاع أن يدفنه سكت عنه سكوت القبر، وما بهره على مرِّ القرون من إحسان في المعاملة، ادعى ـ في صفاقة نادرة ـ أن له أسباباً أخرى غير الإسلام وسماحته! .

فإذا وقع على خطأ تافه بالغ في وصفه، وإذا لم يجد ما ينشده من أخطاء،

---

(١) عجب أمر هؤلاء، ففي عهد العثمانيين، كانوا دعاة للعروبة والعربية، فصنعوا معاجم ونشروا كتباً من التراث العربي، ورصعوا القصائد بتمجيد قحطان!! فلما انقضى العهد العثماني، وجاءت الحملة الصليبية الفرنسية بقيادة غورو، أخذوا يرطنون بالفرنسية ويمجّدون المحتل، وكأنهم جزء لا يتجزّأ منه، وناصبوا العرب والعربية العداء لأنهما حصنا الإسلام، وعندما دفع المسلمون ثمن الاستقلال من دمائهم وأرواحهم وأموالهم جاء هؤلاء يزعمون أنهم شركاء! فهل نقرأ تاريخنا قراءةً صحيحةً نميز الغثّ من السمين، والشمال من اليمين . (الناشر)

ففي الكذب متَّسع لمن يريد المشي بالنميمة، والتماس العيوب للأبرياء!.

وعلى هذا النحو ألَّف كتابه.

والغريب أن من الأقباط من تلقَّفه، ثم بدأ يتحدث عن هذا الاضطهاد الموهوم، ويشكو من وقعه!!.

ونحن نعرف أن سعي المسلمين لطرد الصليبيين المستعمرين لأوطانهم هو سرُّ تلك المزاعم المفتعلة، وأن تأليب الأقباط على الكثرة التي حاسنتهم دهوراً لن يبطل حقوق المسلمين، كما أنه لن يجرَّ أي نفع للأقباط.

وإذا أصررنا على تحرير بلادنا من الإنكليز وغيرهم، وتطلعنا إلى حكم إسلامي نظيف يصون أخلاقنا وعباداتنا فنحن مرتقبون من الأقباط أن يكونوا إلى جوارنا في كفاحنا، ومقدِّرون أنهم لن ينسوا النعماء التي يمرحون في بحبوحتها منذ دخل الإسلام مصر، ومنتظرون أن يضربوا على أيدي السفهاء الذين ينالون من الإسلام، ويفترون على تعاليمه الزور، وعلى أهله البهتان.

نعم إن هناك قوماً باعوا ضمائرهم للإنكليز، واشتغلوا بخدمة مصالحهم في طول الوادي وعرضه.

لكن هذه القلة من الخونة لن يفوتها جزاؤها العدل ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

* * *

إننا قبل أن نشرح ملابسات الحوادث التي شوَّهها هذا الكاتب نحب أن نؤكد مرة أخرى هذه الحقيقة:

إن أرض الإسلام لم تشهد البتة لوناً من الاضطهاد الديني الذي عرفته أرض المسيحية.

وإن التعاليم المقررة التي سوَّت بين الكثرة والقلة في الحقوق والواجبات، كفلت الحرية الدينية والمدنية، على نحو لم يعرف في أرقى بلاد أوروبة وأمريكة.

وإنه إذا كانت هناك أحداث مؤسفة شابت علائق القلة المسيحية بالكثرة المسلمة فهي ـ في معرض المقارنة ـ توافه لا تذكر بالنسبة للشناعات القبيحة التي فعلها المسيحيون بغيرهم.

ثم هي ـ في أسبابها الأصيلة ـ تعود إلى شذوذ نفرٍ من المتعصبين النصارى يريدون تحقير الإسلام والإساءة إلى أمته.

وينتهزون مرونة الكثرة الطيبة لتمكين طائفتهم من الامتداد والتغلغل على حساب الجمهور المسلم.

ولنعد إلى مناقشة الكاتب الصليبي.

وصف هذا الرجل في خمسين صحيفة (٦٠ ـ ١١١) (أحوال الأقباط الحقيقية تحت حكم الولاة العرب).

ولم ينسلخ عن طبيعته الملتوية في غمز المسلمين، والتنديد بهم، لكي يظهر الأقباط وكأنهم فريسة سهلة لاحتلالٍ جشع مريب.

وهذا الباب الذي عقده الكاتب تحت عنوانه السالف لا يتفق مع موضوعه، فقد وصف أحوال مصر من (٢٠) إلى (٢٥٢) للهجرة (أي من الفتح إلى قيام دولة ابن طولون).

ومصر في هذه الفترة كانت إسلامية لا قبطية.

فإنه لم يمض نصف قرن على الفتح، حتى كانت النصرانية دين طائفة قليلة في البلاد.

ولقد بلغ من قوة المسلمين المصريين بعد عشرة أعوام من الفتح أن وفودهم شاركت في الفتن الكبرى من مقتل عثمان فما بعده.

وقد اختار الخليفة الأموي المطارد مروان بن محمد مصر ليجد فيها ملجأً من بطش العباسيين الغالبين.

ولكي تدرك مدى انتشار الإسلام في البلاد المفتوحة يكفي أن ترى (دمشق)

بعد إجلاء الرومان عنها قد تحولت إلى عاصمة للمسلمين جميعاً، ولم يستغرق ذلك أكثر من ربع قرن.

ولو أن معاوية كان والياً لمصر، لجعل الفسطاط عاصمة المسلمين بدل دمشق فإن ظلال النصرانية كانت قد تقلصت فعلاً عنها.

ولو سلَّمنا جدلاً مع الكاتب الصليبي أن الاضطراب ساد العلاقات بين الولاة والشعوب، وأن العرب كانوا بحاجة إلى سياسة ثابتة... إلخ.

فما صلة هذا بالأقباط، وما موضع القول بأنهم تحمَّلوا أوزار الفتن والاضطرابات السائدة؟؟.

يقول الكاتب: «أهملت الإصلاحات العامة إهمالاً تاماً.

ولكن لما كان من اللازم الاستفادة من مياه النيل الغنية بالطمي الخصب، لاسيما أثناء الفيضان، فقد كان الحكام يسخِّرون السكان لتطهير القنوات، وإعادة بناء الطرق والجسور مقابل إعفائهم من قسط من الضرائب يتناسب مع المهمة التي قاموا بها» ص٦٣.

ونظام السخرة الذي أشار إليه الكاتب كان معروفاً في مصر حتى سنة ١٩٣٦م.

وكان المسلمون ـ بحكم كثرتهم ـ يحملون أعباءه ومغارمه.

فكيف يعتبر هذا تعصباً ضد الأقباط؟.

ويمضي الكاتب في كلامه قائلاً:

«لا نجد أي أثر لنشر التعليم حتى بعد إنشاء المستعمرات العربية في الدلتا بوقت طويل.

ومن جهة أخرى أنشأ العرب نظاماً للضرائب.. ولكنَّهم لم يفكروا في تنظيم إدارة للحسابات في المدينة المنورة».

لنفرض أن العرب لم يعلموا أولادهم، فهل هذا يعد تعصباً ضد الأقباط؟.

ثم من الذي وصف المسلمين في هذه العصور بالتخلف العقلي وضعف العناية بالعلوم؟ .

ويتساءل الكاتب عن عدم وجود إدارة حسابات بالمدينة .

إن المدينة بعد فتح مصر بأعوام قلائل لم تصبح عاصمة الإسلام .

فما معنى هذا التساؤل؟ وما وجه التعصب فيه ضد النصرانية؟ .

ويستطرد الكاتب في لغوه قائلاً :

«ثم بينما كان بناء الكنائس محظوراً في المدن التي أنشأها العرب سمح عبد العزيز بن مروان ببناء كنيسة في حلوان» .

ويعلل هذا التساهل بوجود بعض النصارى الملكيين في خدمة الوالي .

ولم تختلف سياسة المأمون عند إقامته بمصر ، واستخدم النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء ، فسمح لهم بذلك .

وهذا الأسلوب الملتوي في عرض الأمور ناضح بنيَّة صاحبه .

إن مصر المسلمة في عهد المأمون ، ومن قبل ومن بعد ، لم تحجر على حرية العبادة ، ولم تحظر بناء الكنائس على الأقباط الذين يحتاجون إلى كنائس .

ولكن إذا حدث أن بنى المسلمون مدينة لهم ، وكانوا فيها الكثرة الساحقة ، ولم يكن النصارى فيها عدداً يذكر فما معنى بناء الكنائس فيها؟ .

فإذا بلغ النصارى عدداً يحتاج إلى معبد خاص فإن أحداً لن يقف في طريق رغبتهم ، وهذا ما فعله ابن مروان والمأمون .

لم يكن السبب في سماحهم ببناء الكنائس أن أحداً من الأقباط كان موظفاً لديهم ، فأذنوا بذلك من أجله .

كلا ، إن الأمر قائم على سياسة بيِّنة ، غير أنه يحدث أحياناً أن نفراً يعدون على الأصابع يريدون مراغمة المسلمين وتحدي مشاعرهم ، فيحاولون بناء كنيسة

على كل شبر من الأرض يقع لهم .

وهذا يسبِّب مناوشات خفيفة ما إن تنشب حتى تهدأ، إذ يلزم الأقباط حدود الاعتدال، وينسى المسلمون كل ما حدث، ويستأنف الفريقان حياتهما المعتادة . .

ومسلك المسلمين مع الأقباط في هذا الشأن أنظف وأعف من مسلك الكاثوليك معهم .

وإن كان هذا الكاتب ـ لنقمته على الإسلام ـ يكره أن ينسب إليه ذرة من خير .

فهو يقول في ص٧٢ : «نفذ عمرو بن العاص أوامر الخليفة (عمر) لأنها كانت تتفق ومطامعه الشخصية، فكان تسامحه مع مصر أثناء ولايته مثار دهشة المصريين وإعجابهم»، فتسامح الفاتح سببه الطمع لا الدين (!) .

ثم يقول الكاتب ناقلاً عن حنا النقيوس :

«لم يستولِ عمرو على ممتلكات الكنيسة، ولم يرتكب أعمال السرقة والنهب» .

وهذه الكلمة إشارة لما كان يفعله الرومان الكاثوليك مع الأقباط المصريين .

ومضى الكاتب يسرد وقائع التاريخ من الزاوية التي يراها فقال نقلاً عن (ساويرس) :

«أدرك عمرو منزلة البطريرك اليعقوبي (بنيامين) في نفوس الشعب، فسارع إلى استقطار أخباره من أفواه الناس ليعرف المكان الذي لجأ إليه البطريرك هرباً من اضطهاد (قيرس) ـ ممثل الروم الكاثوليك في مصر ـ» .

وقال عمرو في هذا الصدد: له العهد والأمان والسلامة من الله! فليحضر آمناً مطمئناً، وليدبِّر حال بيعته وسياسة طائفته .

ولما سمع القديس (بنيامين) هذا، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين (لهرقل) الرومي الكافر، وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الإسكندرية ـ كما في النص ـ لابساً إكليل الصبر والجهاد،

الذي كان الشعب الأرثوذكسي قد استحقه من اضطهاد المخالفين.

فلما ظهر فرح الشعب والمدينة كلها لمجيئه، أمر عمرو بن العاص بإحضاره بكرامة وإعزاز ومحبة.

فلما رآه أكرمه، وقال لأصحابه وخواصه: «إن جميع الكور التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجلاً ـ لله ـ يشبه هذا».

وكان (بنيامين) حسن المنظر جداً، جيد الكلام بسكون ووقار.

ثم التفت عمرو إليه وقال له: «جميع بيعك ورجالك، اضبطها ودبِّر أحوالها.

وإذا أنت صبرت علي حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر، وأعود إليك سالماً، فعلت لك كل ما تطلبه مني».

فدعا له القديس (بنيامين) وأورد له كلاماً حسناً أعجبه هو والحاضرين، وفيه وعظ وربح كثير لمن يسمعه، وأوصى إليه بأشياء، وانصرف من عنده مكرماً مبجَّلاً».

واستطرد الكاتب يقول: «ثم إن اهتمام عمرو باليعاقبة ـ الأقباط ـ جعلهم يبنون الآمال الكبار على المستقبل مما حدا بالأسقف المؤرخ (ساويرس ابن المقفع) أن يصف شعورهم هذا بقوله:

«كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حُلَّ رباطها، وأطلقت على ألبان أمهاتها» قال:

وكان (ساويرس) على حق في وصفه ذلك، لأن الأقباط لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد.

أضف إلى هذا أن العرب ـ أثناء ولاية عمرو ـ لم يحاولوا الضغط على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم» ص ٧٢ ـ ٧٣.

وهذا اعتراف يأبى الكاتب أن يسوقه خالصاً لوجه الحق، فهو يلبسه ـ على عادته ـ بما يشاء من باطل.

فإنَّ المسلمين على عهد (عمرو)، ومن بعد (عمرو) لم يكرهوا قبطياً على الدخول في الإسلام، ولم يضطهدوا مخالفيهم في الدين، إلا أن يعتدى عليهم فيردوا العدوان . . .

ونحن لا نأبه كثيراً للعبارات التي ذكرها (ساويرس) وإن تك شهادة حسنة للفاتحين، وقد أصلحنا من ركاكتها واضطرابها ليصح إثباتها! .

دلائل فارغة ونقول باطلة:

والكاتب الذي انتصب لوصف العلاقات بين المسلمين والأقباط، لو كانت لديه أثارة من إنصاف للجأ ـ ولو من باب التعمية ـ إلى الموازنة بين النصوص المتضاربة، وترجيح بعضها على الآخر، وتمحيص الآثار المروية بغية الكشف عن حقيقتها باعتبارها وثائق تاريخية محترمة، ولحكى أقوال الجانب الآخر، وتعرَّض لها بالنقد أو بالرد . . . إلى آخر ما يلتزمه المؤرخ النزيه .

بيد أن هذا الكاتب تنكَّب الجادة في بحثه كله، من ألفه إلى يائه، فقد زحم كتابه بحشود مترادفة من النقول المفتعلة، تتساوى جميعاً لغرض خسيس .

ويذكرني أسلوب هذا الكاتب بصحافي إنكليزي ألَّف سِفْراً ضخماً عن الهند ـ في أثناء ثورتها على إنكلترة طالبة استقلالها ـ وشحن كتابه بالعادات والتقاليد الهندية السيئة، فلما نشره على الناس ليطعن في جدارة الهند بالحرية قال غاندي تعليقاً على الكتاب :

«إن هذا المؤلف يشبه بعض موظفي المجالس البلدية المشتغلين بجمع القمامة، لا تقع عيونهم إلى على الأقذار!!» .

والفارق بين الكاتب الإنكليزي والكاتب الصليبي، أن الأول حبس عينيه على الأوساخ والأرواث الساقطة في عرض الطريق، وذهل عما يقع بجانبيه من قصور وبساتين .

أما الأخير فقد جاء إلى الطريق النظيف، وأراد ـ عامداً ـ أن يلوثه .

وقد اعتمد الكاتب الصليبي في تأريخه للأحداث على نقول كثيرة جداً من ثلاثة مصادر بينة :

١ ـ **المصدر القبطي** : ونحن نلاحظ أن المؤرخين الأقباط لما وجدوا دائرة الإسلام تتسع ، وتشمل الجماهير الغفيرة ، وقفوا جهدهم كله على إثبات النصرانية ، وإظهار ما تحمّله الشعب من اضطهادات قديمة وهو ثابت عليها ، وليس يعنيهم في ذلك أن يخلقوا الخرافات ويسجلوا الأوهام ! ! .

من ذلك ما رواه الأسقف (ساويرس) في تاريخ البطاركة أنه لما هبط مستوى النيل عام ١٣٦ قام المسلمون يتضرعون في صلاتهم إلى الله أن يزيد في مياه النهر حتى تفيض، ثم تبعهم اليهود، ولكن بدون جدوى، ولم تحدث المعجزة إلا عندما بدأ النصارى في الصلاة، فقرّر (باعون) نائب الوالي أن يكافئهم، فخفَّض الجزية، وأمّنهم على حياتهم في القطر المصري كله ! ! . .

ومن هذا القبيل ما ذكره أيضاً مؤرخنا الدقيق (!) عن (ابن كلّس) وزير المعز لدين الله قال :

«أراد هذا الرجل أن يقلّل من شأن الديانة المسيحية في نظر الخليفة ، فطلب أن تجري أمامه مناقشات دينية، وسمع الخليفة أثناء هذه المناقشات أن الرجل المؤمن يستطيع بإيمانه أن يزحزح الجبال .

فأرسل في طلب البطريرك (أفرام) وسأله فيما إذا كان الإنجيل يحوي مثل هذا الكلام ! .

فردَّ البطريرك بالإيجاب .

فما كان من الخليفة إلا أن أمره بالقيام بمهمة نقل الجبال، وإلا محا من الأرض اسم النصرانية ! ! . .

ذهل الرهبان الأقباط عندما أخبروا بأوامر الخليفة، فأخذوا يصلُّون ويبتهلون في كنيسة المعلقة .

وبعد مضي ثلاثة أيام رأى البطريرك في منامه السيدة العذراء تطمئنه، فتوجه بسرعة يحيط به عدد كبير من النصارى يحملون الصلبان والأناجيل إلى المكان الذي عُيِّن له، حيث كان الخليفة ورجال حاشيته في انتظاره.

ويؤكد المؤرخون النصارى أن المعجزة حدثت بالفعل، وأن الخليفة أبدى دهشته، وأمر بإعادة بناء جميع الكنائس المخربة، ثم أرسل في طلب كبار الأقباط والعلماء المسلمين، وأمر بقراءة القرآن والإنجيل أمامه.

ولما استمع إلى النصين ما كان منه إلا أن أمر بهدم المسجد القائم أمام كنيسة (أبي شنودة) وبناء كنيسة مكانه!.

* * *

ويقول الكاتب الصليبي تعليقاً على هذه الخرافات:

«إن (ساويرس بن المقفع) كان يشترك في هذه المناقشات، كما يزعم أن (مارك بول البندقي) عاد إلى بلاده، ومعه بعض التفاصيل المتعلقة بهذا الحادث».

ثم يقول: «يدَّعي كل من اليعاقبة والملكيين أنهم أصحاب هذه المعجزة».

والرواية التي تتضمن هذه المساخر عن (المؤرخ أبو صالح الأرمني) وقد تنزلنا إلى كتابة هذا السخف مُرغَمين..

والمسألة كلها تضع يدك على قيمة المصادر القبطية التي اعتمد عليها هذا الكاتب في تهجُّمه على الإسلام وافترائه على تاريخه.

وقد ذكر الأستاذ (محمد عبد الله عَنَّان) هذه الأسطورة، وحكاية تنصُّر (المعز لدين الله) وما يهرف به الأقباط في هذا الشأن، ثم قال معقِّباً على تلك المزاعم:

«كيف يقال: إن تردد هذه الأسطورة على ألسنة القسس وخدم الكنيسة دليل يصح أن يطرح في ميدان البحث؟.

فمتى كان خدم الكنائس مؤرخين يرجع إليهم؟ .

ومتى كانوا ـ بالأخص ـ مؤرخين للإسلام والمسلمين؟ .

على أننا نذكرَ بهذه المناسبة أن أساطير هؤلاء القسس قد زعزعت الإيمان في كثير من مواقف التاريخ المسيحي ذاته .

ويكفي أنها أسدلت حجاباً كثيفاً من الريب على تاريخ قبر المسيح ، وجعلت منه أسطورة كنسية .

وانتهى البحث ببعض أقطاب المؤرخين النصارى مثل (جورج فنلي) إلى إنكار وجود هذا القبر الذي أنشئ بعد وفاة صاحبه بنحو ثلاثمائة عام ليكون مبعثاً لأساطير القسس .

وأضحى القبر المقدَّس رمزاً لا حقيقة .

ولكن القسس مازالوا إلى اليوم يعيِّنون لك في كنيسة القيامة ببيت المقدس وكنيسة بيت لحم مواضع بعينها شهدها المسيح صبياً ونبياً، وآثاراً ارتبطت بتاريخه أو بصلبه ، كما يزعمون .

بَيْد أنك لم تجد مؤرخاً بمعنى الكلمة بل فرداً سليم التفكير يقف عند شيء من هذه الأساطير رغم ما يسبغ عليها من لون الرسمية والقدسية .

على أن الأستاذ (بتلر) ـ وقد أصغى إلى أساطير القسس في الكنائس القبطية التي زارها وخصَّها بمؤلفه ـ قد أصدر حكمه في مقدمة كتابه على قيمة هذه الأساطير وقيمة رواتها في تلك الكلمة القوية :

«الواقع أن قليلاً جداً من الأقباط يعرفون شيئاً عن تاريخهم أو رسوم دينهم ، أو يستطيعون تعليل الأمور التي يشاهدونها في طقوسهم اليومية .

فإذا سُئلوا عن نقطة تتعلق بالطقوس أجابوا عادة بهزِّ الرأس ، أو بجواب ظاهر الخطأ ينمُّ عن الجهل» .

قال الأستاذ (عنان) : «ويكفينا حكم هذا العلاَّمة خاتمة للبحث» .

٢ ـ آراء المستشرقين: وتلك هي المصدر الثاني لجملة الأكاذيب التي شنَّها الكاتب على الإسلام.

والمستشرقون طائفة من مفكري أوروبة الأذكياء، اشتغلوا بالبحث في التراث الشرقي في العقائد والعلوم في العصر الذي انهارت فيه قوى الشرق، وانفتحت مغاليقه أمام الغزاة المستعمرين من دول الغرب الطامحة.

كانت الدنيا قد أدبرت عن الإسلام، والدنيا كما يقال: إذا أقبلت على أحد أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه.

ولو كان المستشرقون الذين اشتغلوا بفهم الإسلام وتاريخه على غرار الرجال الذين قادوا أوروبة عصر النهضة، لكانت لبحوثهم منزلة كبرى ولأفاد العالم منها أجل الثمرات.

إن العلماء والمفكرين الذين قادوا عصر النهضة كانوا رجالاً على قدر كبير من حرية العقل والضمير، وكانت حماستهم في إطلاق البشر من أغلال الكهنوت، وجرأتهم على اكتشاف المجاهيل، وإجلالهم للمنطق المجرَّد والتفكير المنزَّه، كان ذلك كله أساس التقدُّم العام الذي ظفرت به الحياة أخيراً في ميادين شتى.

أما المستشرقون فإنهم ـ إلا قليلاً ـ درسوا الإسلام وفي أنفسهم رواسب من أحقاد الكنيسة عليه.

واتصلوا بأهله، وهم ـ مع الأسف البالغ ـ خدمٌ للاستعمار الغربي[1]، الذي لم يعرف للشرف قدراً منذ وطئت أقدامه بلاد الإسلام!!..

ولعل ضعف المسلمين المزري هو الذي وجَّه أولئك المستشرقين هذه الوجهة الجائرة، فإن الضعف يخلع على صاحبه مهانة تحجب حقيقته، وترد العيون عنه.

---

(١) عمل (ماسينيون) مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية في سورية، وكذلك عمل (مرغوليوث) مستشاراً لوزارة المستعمرات البريطانية في العراق. (الناشر)

والحق أن المستشرقين لم يكونوا بصدد الكلام عن أمم حية - يوم وظفهم المستعمرون للكلام عنها، بل كانوا بصدد تشريح جثث ميتة!!.

ومهما انتحلنا لهؤلاء القوم من أعذار في ضلالهم عن تصور الحق وتصويره لشعوبهم التي ندبتهم، فإننا نحملهم اللائمة لفقدانهم الأمانة العلمية والنزاهة النفسية فيما كتبوا عن القرآن، وعن النبي ﷺ، وعن الإسلام وتاريخه.

إنني أفهم أن يدخل الباحث الحر ميدان الكشف عن قيم الديانات كلها، وهو خلو من كل غرض بعيد عن أي تحيُّز، ثم يستعرض القرآن والإنجيل، والإسلام والمسيحية، ويوازن موازنةً مطلقةً بين ما فيها من عقائد وتعاليم، ثم يرجح أيها شاء.

أما أن يأتي مستشرق يدَّعي حرية الرأي، فيتناول التراث الإسلامي كله، وهو ينوء تحت وِقْر من الترَّهات التي ورثها عن الكنيسة، فلا يفهم عن النبي ﷺ إلا أنه بشر دَعِي، وعن القرآن إلا أنه كتاب مفترى، وعن الإسلام إلا أنه جملة أوهام، وعن الفتوح الكبرى إلا أنها غارة بعيدة المدى... إلخ.

ثم يزعم هذا المخبول أنه أتى ببحث حر بعد دراسة طويلة على هذا الأساس فذلك ما ننظر إليه بعين الازدراء والسخرية..

تصوَّر مستشرقاً كبيراً مثل (جولد زيهر) اليهودي المجري يقول(١):

«ومن العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهباً في العقيدة موحداً متجانساً خالياً من التناقضات».

فالتوحيد مذهب ينطوي على النقائض العسيرة الفهم (كذا).

أما التثليث فمذهبٌ واضح في فهم الألوهية!!.

ونحن أمام هذا الارتكاس الذهني نردد مع ابن حزم قوله:

---

(١) من كتاب (العقيدة والشريعة في الإسلام)، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، ط. دار الكاتب المصري؟!!.

«يجب ألا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بالخرافات! .

انظر إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذي يعرف عددهم، ومن بينهم أنـاس على قدر كبير من الفطنة، وأمراء على قدر كبير من الشرف، ومع ذلك فإنهم يعتقدون أن ثلاثة واحد، وواحد ثلاثة! وأحد الثلاثة هو الأب، والآخر الابن، والآخر الروح والأب هو، وليس هو الابن!! .

والرجل هو، وليس هو الله!! والمسيح هو الله في كل شيء، ومع ذلك فهو ليس مثل الله! والموجود الدائم مخلوق. . . !

بل إن إحدى فرقهم (اليعاقبة) التي يبلغ عددها مئات الألوف تعتقد أن الخالق نفسه عُذِّب، وصلب، وقتل، حتى إن العالم ظل بدون سيده ثلاثة أيام!» .

عقيدة التثليث هذه سهلة عذبة سائغة للشاربين! .

أما قول القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات : ٤ ـ ٥]، فهو كلام متناقض مبهم.

وهذه هي نزاهة القصد وحَصَافة الفكر عند المستشرقين.

أما فهمهم للرسالة وصاحبها فأبعد ما يكون عن الإقرار بالنبوة والوحي.

والأمر ـ في نظرهم ـ لا يعدو مهارةَ رجلٍ استفاد من الآراء والنحل السابقة في اصطناع ديانة جديدة.

وهم يرددون ـ بهذا الكلام ـ تهم الأقدمين.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الفرقان ٤ ـ ٥].

هذا الاتهام بنصه وروحه هو ما بنى عليه المستشرق الكبير (جولد زيهر) فهمه الحر (!) للإسلام ونبي الإسلام عندما قال :

« . . . إن نمو الإسلام مصطبغ نوعاً بالأفكار والآراء الهلينستية. ونظامه الفقهي الدقيق يشعر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي ـ كما تكوَّن في عصر الخلفاء العباسيين ـ يدل على عمل الأفكار والنظريات السياسية الفارسية، وتصوفه ليس إلا تمثلاً لتيارات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة.

على أن من الحق أن نقرر أن الإسلام ـ في كل هذه الميادين ـ قد أكد استعداده وقدرته على امتصاص هذه الآراء وتمثيلها، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية في بوتقة واحدة، فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حللت تحليلاً عميقاً وبحثت بحثاً دقيقاً. . .

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مطبوعاً على جبهته منذ ولادته.

فـ (محمد) ﷺ مؤسِّسه، لم يبشر بجديد من الأفكار، كما لم يمدنا أيضاً بجديد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره، وباللانهاية.

لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية».

لو أن هذا المستشرق أراد أن يتحدث عن الإسرائيليات والنصرانيات والإغريقيات التي التصقت بجوهر الإسلام بعد انتشاره في الأرض لكان حديثه هذا موضع نظر.

أما وهو يريد إيهام الناس أن محمداً الأمي ﷺ الذي لم يعرف أول عمره شيئاً عن الكتاب والإيمان، ولم يقرأ حرفاً عن ثقافة فارس والروم والهند، ولم يلق بالاً إلى فلسفات أفلاطون لا قديمها ولا جديدها، وأنّ هذا الرجل الناشئ في صحراء مقفرة من العلوم والمعارف إقفارها من الزرع والضرع، وأنّ هذا الرجل الذي ظهر في بلد لم يتصل يوماً بحضارة أخرى، ولم ينخلع عن خصائص البداوة والسذاجة، قد وضع ديناً مستمداً من أفكار الهند والسند، واليونان والرومان!! فهذا موضع الغرابة.

إننا لنتلو في تزييف هذه الأضاليل، الآيات نفسها التي أجيب بها المعترضون القدامى، وهم يطلبون قرآناً آخر غير ما يسمعون:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ
هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ
أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[يونس ١٥ ـ ١٦].

إنهم لا يعقلون، لأن التعصب الأعمى يلفُّ في جاهليته الموحشة العامة من الأعراب، والخاصة من المستشرقين. . .

أما القول: بأن الإسلام لم يأت بجديد في صلة الناس بالكون ورب الكون، كما يزعم هذا المستشرق فهراء لا وزن له. . .

وقد يكون في المستشرقين من هو أجود فهماً، وأحسن حديثاً عن الإسلام من هذا الرجل.

ولكن جمهورهم ينطوي على غِلٍّ دفين ضد القرآن.

ولما كان أكثرهم يشتغل بخدمة الاستعمار الأوروبي قبل اشتغاله بخدمة الحقيقة العلمية فقد جاءت كتاباتهم عن الجهاد الإسلامي مزيجاً من الخلط والإفك.

ومن هذا المزيج المسموم استقى الكاتب الصليبي (وثائقه) عن علاقات مسلمي مصر بأقباطها. . .

والخطأ الذي يروِّج المستشرقون له، ويتواصون به أن الإسلام انتشر بالقوة، وأنه مذ حكم أهان الشعوب المغلوبة واضطرها إلى اعتناقه، وعلَّة هذا الخطأ أنهم يقيسون الإسلام على المسيحية التي لم يعرفوا في أوروبة غيرها.

والحق أن أوروبة المسيحية كانت وطناً للتزمُّت البالغ، والتعصُّب الشديد، ولم يعرف أهلها مذاقاً للحرية الدينية إلا بعد أن اصطلوا بجحيم التعصب في ظلال الكنيسة الحاكمة نحو خمسة عشر قرناً.

لكن قياس الإسلام عليها خطأ محض.

فالإسلام قرَّر الحرية الدينية من يوم ظهوره على ما أوضحنا آنفاً.

غير أن المستشرقين الذين لم يتعوَّدوا ذلك في تاريخ ديانتهم استبعدوا هذا الفرض أول الأمر من بحوثهم الحرة!!.

وللخفافيش إذا أسدلت جفونها في وضح النهار أن تتحدث عن الظلام الذي تعانيه، إنه ظلامُ أعينها الكليلة.

أما أن تزعم أن العالم مظلم معها، فذلك الكذب الصغير أو الغرور الكبير.

ليدلنا المستشرقون على أمر مثل هذا صدر عن حُكَّام الإسلام الأولين.

كتب ميخائيل السوري في تاريخه قال:

«رأى الإمبراطور هِرقل في منامه عِندما أخذ نجمه في الأفول، أن شعباً مختوناً سيثور عليه ويهزمه، ثم يحكم العالم كله، واعتقد هرقل أن هذا الشعب ما هو إلا اليهود.

فأصدر أمراً في الحال بتعميد جميع اليهود والسامريين الذين يقطنون مختلف ولايات الإمبراطورية».

أمر بتنصير اليهود والسامريين في جميع أنحاء البلاد!!.

إن الإمبراطور في هذا يقلِّد أسلافه الأمجاد في مصادرة العقائد، وإكراه الأمم على اعتناق نصرانيته!.

ولماذا؟ لوساوس نائم!!.

إن الحرية الدينية أبعد ما تكون عن وهم هذا الحاكم.

ومن يدري لعل المستشرقين الطاعنين على الإسلام، والأقباط الذين يصدقونهم في مطاعنهم، هم من نسل أولئك اليهود الذين اقتادهم عسكر (هرقل) إلى الكنائس حيث نصَّروهم برغم أنوفهم؟..

لو أن هذا الأمر المجنون هفوة حاكم فرد لما ساغ لنا أن نؤاخذ به تاريخ دين

ما، لكن هذا الأمر قد سبق إلى مثله، وقلد في فعله، باباوات وأباطرة وملوك، فإذا صدر، سيق الناس بالسياط إلى حيث يعمدون.

فإذا تجرَّأ أحد على عصيان أمر الدولة قُطِعَ عنقه.

وماذا يفعل الناس أمام هذا البطش؟؟.

إن عقباهم كما قال الشاعر:

تلوا باطلاً، وجلوا صارماً   وقالوا: صدقنا؟ فقلنا: نعم

وعلى هذا النحو هلك المسلمون في الأندلس، وهلك من بعدهم الموحِّدون في أوروبة.

والعجب أنّ الذين يهيلون التراب على هذه المآسي يجيئون من بعدُ إلى الإسلام النقي ليقولوا له: إنك انتشرت بالسيف!!.

٣ ـ **المراجع العربية**: وهي المصدر الثالث لمطاعن المؤلف على الإسلام وتاريخه.

وصنيع المؤلف بما يقتبسه من هذه المراجع مَثَلٌ صارخ لسوء النية، وشهوة التحامل، ومحاولة طمس الحقيقة، وسَوْق كل شيء ـ طوعاً أو كرهاً ـ لخدمة غرضٍ معيَّن.

ولو ذهبنا نفنِّد أكاذيب هذا المؤلف وتلبيساته، واحتياله على إبراز الزور في ثوب الحق لطال بنا الكلام.

فإنك لا تعدم في كل صفحةٍ من كتابه جريمة علمية وخلقية.

ذكر هذا الرجل اسم المدعو (ابن النقاش) وأجرى على لسانه كلاماً في أحكام الشريعة لا أصل له.

ثم بنى اتجاهه في كتابه على هذه الأحكام المختلفة بعد ما وصف ابن النقاش هذا بأنه فقيه من الدرجة الأولى!.

ونحن ـ المشتغلين بالثقافة الإسلامية منذ ثلاثين سنة ـ لم نعرف ابن النقاش هذا، ولم نقرأ له كتاباً، والكلام المنسوب إليه لا يقوله فقيهٌ من الدرجة الأولى أو الأخيرة.

ونحن لا ندري هل ابن النقاش هذا شخصٌ موهوم؟ أم أن المستشرقين افتعلوا الآراء المنسوبة إليه؟ ثم ترجمها المؤلف كما يقول؟ أم أنه اختلقها من عند نفسه؟.

ولا يستغربنَّ القارئ هذا.

فإننا لم نعرف جرأة في وضع الآراء، وإرسال الأحكام، وتزوير النصوص كما عرفنا في هذا المؤلف..

إنه ينسب إلى كثير من المؤرخين كلاماً لم يقولوه، أو ينقل عنهم كلاماً بعد مقدمات لم يعرفوها ليصل إلى نتائج خاصة.

وهذا ضَرْبٌ من التدليس العلمي لا يلجأ إليه مؤرخ يحترم نفسه.

لندع جميع الآراء المزيفة التي نسبها لابن النقَّاش، ونسب فيها للعمرين ـ ابن الخطاب وابن عبد العزيز ـ ما لم يعلما به! ثم لنتابع جرائم هذا المخلوق.

في (ص٦٩) ادعى أن (عمرو بن العاص) أسكت الزبير بن العوام عن معارضته في تنفيذ حكم أمير المؤمنين عمر الخاص بتوزيع الأرض على أصحابها، وأن سكوت الزبير كان نظير رشوة كبيرة أخذها (كذا).

أرأيت إلى أيِّ حدٍّ بلغ هذا الإسفاف؟.

إن المسلم قد يشعر بغضاضة من تطاول السفهاء على صحابة رسول الله ﷺ بهذه الجرأة، ولكن المسلم وغير المسلم يشعران بغضاضة أخرى من تناول الأمور بهذه الغباوة.

عمر القوي رئيس الدولة، يرسل إلى عمرو الأريب واليه على مصر أن ينفذ حكماً أجمع الصحابة في المدينة على المصير إليه، وسبق أن نُفِّذَ هذا الحكم في

أرض فارس والعراق والشام.. فيحتاج عمرو والي الإقليم إلى رشوة واحد من الناس مهما كان شأنه، لتنفيذ أمر الخليفة!!.

هذا هو ما استقرَّ في ذهن الكاتب الصليبي، ونفذ منه إلى اتهام حواري رسول الله ﷺ بأخذ رشوة!!.

إن القصة في عقل هذا الكاتب لا تقوم على تأريخ حقائق، بل على تجريح دين، وإهانة رجال. وهذا أسلوب قديم جديد في التبشير بالنصرانية..

وقد مضى الكاتب في سفهه يصوِّر الوقائع على هذا النحو.

فالمعروف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان شديداً في معاملة الولاة، يرسم لهم لوناً من الحياة الخشنة، لا يرتفعون به عن مستوى الجماهير.

وكان ـ رضي الله عنه ـ يخاف أن يتشبَّه حكام المسلمين بحكام الروم والفرس في حياطة سلطانهم بمظاهر من الوجاهة والتعالي.

فدعاه ذلك التوجُّس إلى الدقة في معاملة حكام الأمصار، ومصادرة ما يبدو في بيوتهم من شارات التوسُّع والجاه.

فعل ذلك مع أبي هريرة، ومع سعد بن أبي وقاص، ومع معاوية بن أبي سفيان وغيرهم.

ومن بين من نالتهم شدة عمر والي مصر عمرو بن العاص إذ كتب يقول له:

«إنه فَشَتْ لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن لك حين ولِّيت مصر».

فردَّ عليه عمرو بن العاص يقول:

«إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر، فنحن نصيب فضلاً ـ يعني زيادة ـ عما تحتاج إليه نفقتنا».

فكتب إليه عمر بن الخطاب يقول:

«إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى! وكتابك إليَّ كتاب من أقلقه الأخذ بالحق! وقد سئت بك ظناً، ووجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك، فأخرج إليه ما يطالبك به، وأعفه من الغليظة عليك، فإنه برح الخفاء. . . ».

وهذا الصنيع من عمر لم ينفرد به والي مصر، فقد طبقه عمر على أبنائه العائدين من الكوفة.

وفقه الموضوع لا يعدو أن عمر يريد جعل ولاته طرازاً من الحكام الزهَّاد، لا يتطلعون إلى متاع الحياة، ولا ينالون من زخارفها ما يلصق بالدين أنه يقوم على استغلال الشعوب أو هضم حقوقها.

أين هذا مما تدلى إليه الكاتب الصليبي إذ يقول عن عمرو بن العاص:

«إن الخليفة اتهمه صراحة بأنه اختلس مبالغ كبيرة من المال» ص٧٦. .

ثم يعقِّب على ذلك بقوله:

«ليس بمستغرب أن يغترف عمرو المال، وهو العربي البدوي الذي وجد نفسه بين عشية وضحاها أمام ثروة كبيرة. . ».

إن هذه الوضاعة في التفكير والتعقيب تجعلنا نتجاوز هذا الصغار كله.

فإن رجلاً يضطرب في أوحاله على السفوح الدانية، لا يعرف أحوال القمم التي تعمم الشمس هاماتها في الشروق وفي الغروب. .

لقد أرسل المقوقس بعض رجاله إلى جيش عمرو، يحملون رسالة إلى القائد الفاتح، فاحتجزهم عمرو يومين، ثم أعادهم المقوقس فقالوا ـ يصفون المسلمين ـ:

«رأينا قوماً، الموتُ أحبُّ إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحبُّ إلى أحدهم من الرِفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة. .

إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم. .

ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد . .

وإذا حضرت الصلاة لم يتخلَّف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم».

ومع ذلك يوغل هذا الكاتب في كذبه، فيزعم أن عمر بن الخطاب وضع الأساس في معاملة الأمم المفتوحة بقوله:

«يأكلهم المسلمون ماداموا أحياء، فإذا هلكنا وهلكوا، أكل أبناؤنا أبناءهم ما بقوا» ويروي ذلك عن أبي يوسف!!.

وهو في هذا النقل عدوٌّ مضلٌّ مبين. .

فإن المعاملة المقررة بين المسلمين وغيرهم لا تخفى قواعدها حتى يستجلب لها هذا الكذوب قواعد من عنده يفرغ فيها سمومه ضد الإسلام، ويحاول بها تحريض الأقباط على محادثه. .

إن التاريخ يعرف من الذي أكل الأمم المغلوبة!؟.

وهل خطا العالَم إلى الأمام إلا يوم تخلَّص من قيود الكنيسة المفروضة على الضمائر والأفكار؟.

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهو صاحب الكلمة التي لا تزال أضواؤها تشع من خلال القرون السحيقة:

«متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟؟».

فلينظر القارئ كيف يسوِّل الحقد لأصحابه جحود الحق المشرف، واختلاق الأكاذيب البعيدة، وتسمية هذا وذاك تأريخاً منزَّهاً!..

أرأيت مؤرخاً لفتح مصر يأبى كتابة المعاهدة التي تمَّت بين المسلمين والأقباط؟ أو يتابع ـ بأمانة ـ سير المفاوضات بين الفريقين؟.

أو يذكر تفاصيل الحوادث ذات الدلالة الخطيرة مع أنه يسوِّد بالتوافه الصفحات الطوال؟.

إنه رجل أراد أن يصور الإسلام، فلم يرجع إلى آيات القرآن، ولا إلى شروح المفسرين المعتمدين، بل عمد إلى ما تسرَّب إلى التفاسير من إسرائيليات ونصرانيات، وإلى ما شاع على ألسنة الجهَّال من أحاديث موضوعات، ثم أخذ من ذلك ما يلائم أهواءه، وأضاف إليه المزيد من عنده، وادَّعى ـ بعدُ ـ أنه أتى بصورة كاملة لتعاليم الإسلام. . . !!!

كذلك فعل هذا الكاتب في تصوير الروابط بين المسلمين والأقباط، ولقد استعرض من المراجع ما شاء، وذهل عن الوقائع الناصعة التي زخرت بها، ثم صدف عن كل ما أحاط به من شواهد رائعة، لأن عينه ـ كما قال غاندي في الكاتب الإنكليزي المتحامل على الهند ـ: «لا تقع إلا على الأقذار».

وتحدَّث الكاتب عن ثورة للأقباط بمصر، وهو كاذب كعادته. .

فقد حدثت بمصر ثورة حقاً، ولكنها ثورة عامة لأسباب سياسية أو اقتصادية.

كتب عنها المقريزي يقول:

«لما كان في جمادى الأولى عام ٢١٦ هـ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها، وأخرجوا العمال، وخلعوا الطاعة، لسوء سيرة عمال السلطان فيهم، وكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب».

فدور الأقباط في الثورة كان مؤازرة جمهور المسلمين الثائر، والمسلمون يومئذٍ هم كثرة السكان. .

وقد سبق لعرب الحجاز أن ثاروا، فأُطفأت ثورتهم، وهوجمت مكة وصُلب بها عبد الله بن الزبير. .

وهذه الثورات وأمثالها في تاريخ الإسلام لها طابعها المعروف. .

وإلباس الثورة في مصر ثوب الاضطهاد الديني محاولة فاشلة لجعل تاريخ الإسلام مشابهاً لتاريخ النصرانية في التعصب ضد الأقليات. .

وقد انتهزت هذه الثورة جماعة من اليونان المهاجرين يدعون (البياماي)

فعاثوا في الأرض فساداً وارتكبوا أعمالاً شائنة، إذ أحرقوا (رشيد)، وقتلوا سكانها المسلمين جميعاً. .

وقد أسرع الخليفة المأمون بالمجيء إلى مصر، مخافة أن تكون هذه الثورة طليعة هجوم يقوم به الأمويون بالأندلس، وأعلن عند قدومه عفواً عاماً عن الثائرين من مسلمين وأقباط بشريطة أن يلتزموا الهدوء. .

فأما المسلمون فقد خضعوا، وأما (البياماي) فقد أصروا على تمرُّدهم برغم أن الخليفة أرسل إليهم البطريرك القبطي يطلب منهم التسليم، فلما رفضوا اضطر إلى إخضاعهم.

وقد حقَّق المأمون في أسباب الثورة، فرأى الوالي عيسى بن منصور مسؤولاً عن إشعالها بسياسته الخاطئة فعزله عن العمل.

والمرء لا يسعه إلا أن يسخر من أوصاف المستشرقين لحركة (البياماي) هذه، وما نسجه الخيال الطلق حول المستنقعات التي يسكنون أطرافها، والأحراش التي يختبئون فيها، والدروب التي ينقضون منها، والهزائم التي أوقعوها بجيوش المسلمين براً وبحراً (!) كأنهم يصفون قطعة من منطقة الغابات، على شاطئ جزيرة في بحر الظلمات. . .

والأسطورة التي خلقت حول هذه القصة، وروَّج لها الكاتب الكاثوليكي هذا الترويج، إن دلَّت على شيء فعلى الرغبات المكبوتة لدى هؤلاء الناقمين.

إنهم يودون لو اندلعت في كل قطر من أقطار الإسلام ثورة جامحة من النصارى الذين يعيشون به.

وإن هذه الرغبة لتتجسم في مواقف القتال التي يتخيلونها، ولا مكان لها إلا في أوهامهم المريضة!!.

فإذا فتحوا أعينهم على الواقع الهادئ عادوا يبذلون جهوداً أخرى لتحريض الأقليات على التمرُّد والجحود.

فلجؤوا إلى خديعتها ـ بالكذب ـ بغية إحداث ما يرجون من شغب .

ولما كانت أرض الإسلام لا تعرف إلا مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات، مهما اختلفت أديانهم، فإن الخطة التي اتبعها هؤلاء لإدراك غايتهم تقوم على إيهام الأقليات بأنها مغبونة، وإغرائها بالتزيُّد قدر الاستطاعة من الحقوق، والتخفف قدر الاستطاعة من الواجبات.

ولن يتمَّ ذلك ـ حتماً ـ إلا على حساب الكثرة .

فإمَّا تحقَّق هذا الافتيات واستذل المسلمون فيها . . وإلا فإن شعور الأقليات ـ بعدم بلوغها ما تنشد ـ سيظل عامل قلق وغضب؟؟ .

وعندي أن الصليبية الغربية تحمل أوزار هذه الخطة الجائرة . .

وهي لا تزال تسخِّر عملاءها في الشرق لتجديدها كلَّما درست .

ونحن ـ بين الفَيْنة والفينة ـ نرى جهودَ هذه العصابة المأجورة موصولة العناء لإعنات المسلمين والأقباط على السواء .

* * *

حقائق لا مندوحة عن ذكرها

ويؤلمنا أنَّ نفراً من الأقباط قد اقتنع بالخطة الآنفة وقرَّر تنفيذها .

ونقول : نفراً منهم ، لأنّا نعرف كثيرين منهم على قسطٍ كبير من دماثة الخلق ، وعدالة الحكم ، ومعرفة الواجب .

أما النفر الآخر فهو يرجو للمسلمين العَنَت ، ولو استطاع لألحقَ بهم الأذى ، ومسلكه ـ إذا تولَّى وظيفة ـ هو علة الاضطراب الذي يعكر ما بين المسلمين والأقباط من علاقات .

وأظنُّ أنَّ واجب الأقباط ـ قبل المسلمين ـ يقتضي منهم إقصاء هذا الصنف الحقود من ميدان الحياة العامة ، فإنه لو ملكَ زمام طائفته جرَّ عليها الكوارث .

أما المسلمون ، فإنهم لم يكتفوا بالعدل حتى ضمُّوا إليه الفضل ، فكان إحسانهم إلى الأقباط سيلاً غدقاً .

والكاتب الكاثوليكي الذي تكلَّم عن أحوالهم منذ الفتح يذكر بجلاءٍ تام أنَّ الحكومة المسلمة وظفت الأقباط فيما يصلحون له من أعمال ، فكتب تحت عنوان (الأقباط يحتكرون الأعمال الإدارية) ص١٠٥ :

«إنَّ الأحداث التي ذكرناها لا تعني أنَّ الأقباط كانوا تعساء تحت حكم الولاة العرب ، بل إنهم كانوا أسعد كثيراً مما كانوا عليه أيام الرومان ، وبالرغم من جهود الخلفاء واهتمامهم بتطبيق تعاليم القرآن ، فإنَّ الأقباط لم يقتصروا على شغلهم الوظائف الإدارية فحسب ، بل كان لهم الأمر والنهي في بعض الأحيان ، وبقي نظام الضرائب والحسابات بين أيديهم مما أتاح لهم الفرصة لتحقيق مكاسب كبيرة .

وكذلك يمكننا أن نقول :

إنه فيما يتعلق بالأقباط ظلّت تعاليم القرآن غير معمولٍ بها (!) .

وقد أظهر الخلفاء مراراً رغبتهم في إبعاد الأقباط عن الوظائف الإدارية، كما أظهروا خيبة أملهم ـ شفهياً إن لم يكن كتابياً! ـ كلما وجدوهم في مناصبهم، ولكن دراية عمرو بن العاص السياسية تغلّبت على تزمُّت عمر الديني . . . » .

هذا الكلام الذي ذكره الكاتب، تلمح في ثناياه مشاعر الخسَّة، ونكران الجميل، والكراهية العميقة للإسلام وأهله .

فلو أنَّ لديه ذرةً من إنصافٍ لذكر الحقيقة مجردة، واعترف ـ راضياً أو ساخطاً ـ بآثارها البارزة .

إنَّ الأقباط وُظِّفوا في شتئ الأعمال وعلى مدئ القرون .

فأما أن يقال: إنَّ ذلك كان ضد تعاليم القرآن، وأنَّ الفضل فيه لعمرو ـ كأنَّ عمراً طال عمره ألفاً من السنين وثلاثمئة أخرى!! ـ فكلامٌ معروف أنَّ الطعن في الإسلام هو باعثه وغايته! .

لقد وظَّفت الحكومة الإسلامية الأقباط، لأنَّ الإسلام بريء من التعصب الأعمى .

وإلا فما الذي يضطرها إلى ذلك؟ .

إن احتاجت إليهم سنةً أمكنها الاستغناء عنهم في السنة التالية، بإخوانهم الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً .

وذلك كله على التسليم بأنَّ في الأقباط كفايةً إدارية وحسابية امتازوا بها على العالمين، كما يزعم هذا الكاتب المسكين . .

وإيغال هذا الكاتب في شططه يثير الاستنكار .

فهو لمَّا رأى الأقباط يوظَّفون في كل عهد، بدأ يعلل لكل عهد .

فالحاكم هنا يحتاج إليهم، وهنا نريد الاستقلال بمصر، وهنا كان له أستاذٌ قبطي، وهنا كانت له زوجةٌ قبطية، وهنا لأنه نصراني في السر! وهكذا، فإذا فُصِل الأقباط من عملٍ صاح: عاد الحكم إلى تعاليم القرآن.

ونحن لا نقف عند نقيصة شخصٍ كنود يجحد آلاء الإسلام عليه وعلى آله. ولكننا نجزع ونفزع عندما نرى هذه النعمة التي أسداها الإسلام قد كُفرت على نطاقٍ واسع، وأنَّ الموظفين الأقباط يعتبرون هذه السماحة المشكورة لوناً من الغفلة الكبيرة، تتيح لهم إيذاء المسلمين المسترسلين في نقاوة صدورهم وبساطة سلوكهم، وتمكُّنهم من إعلاء ديانتهم، وخدمة مآربهم!!.

وأنهم ـ كذا الكاتب ـ وهو موظفٌ يأخذ مرتبه من حكومةٍ مسلمة ـ لا يرون في الإسلام إلا خرافةً انتشرت بالعدوان، فيجب أن تسام أمته سوء العذاب.

نحن لا نرسل القول على عواهنه.

فهذا الكاتب نفسه يحكي من أحداث التاريخ السود ما يدمغ أمثاله بالخسَّة والجحود.

أليس يذكر أنَّ الخليفة أبا جعفر المنصور أصدر أوامر دقيقة بإبعاد الذميين من الوظائف؟ ولماذا؟ يقول في ص١٠٦:

«إنَّ هذا الإجراء لم يمهد له من قبل، بل كان وليد ساعته، فقد تقدَّم إلى الخليفة في أثناء فريضة الحج بعض المسلمين، والتمسوا أن يحميهم من جور النصارى».

ويقول في ص١٠٧: «الواقع أنَّ الذميين لم يقالوا من وظائفهم دفعةً واحدة.

فإنهم ـ في خلافة المهدي ـ أصبحوا أصحاب الأمر والنهي، وأظهروا كبرياءهم حتى سخط عليهم المسلمون، واحتجوا على ذلك».

ويقول بعد ذلك: «استمر النصارى يتمتعون بشغل الوظائف كما كانت حالهم في الماضي.

وأحسن دليلٍ على ذلك ما صرّح به المأمون لكاتم سرّه، لمّا كان في مصر، قال:

لقد سئمت من الشكايات التي أتلقاها ضد النصارى، بخصوص اضطهادهم للمسلمين، وعدم نزاهتهم في إدارة الشؤون المالية»[1].

إنَّ هذه الشكايات لم يختص بها عصرٌ بعينه، حتى نُعرض عنها باعتبارها حالةً شاذة، بل سبقت في العهد الأموي، واستمرت في العصر العباسي، وترددت في مصر أيام الفاطميين والمماليك والأتراك.

واطراد الشكوى على هذا النحو الدائم، قد يفسِّر لنا سلسلة الأوامر التي كانت تصدر بعزل الأقباط عن الأعمال العامة، وتنحيتهم عن المناصب التي يدفعهم التعصب الأعمى إلى ظلم الكثرة فيها.

على أنَّ الأقباط لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا إلى أعمالهم.

ولعل ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: أنَّ سماحة الإسلام تجعل الشعب سريع النسيان، قليل الاهتمام بملاحقة الفروق الدينية، ضعيف الأخذ لنفسه إذا وقع عليه عدوانٌ أساسه التعصب.

والآخر: أنَّ فساد الحكم داءٌ عضال في بلاد الإسلام، فكثيرٌ من الولاة يحبُّ السكر والعربدة والكبر، ولن يعينه على دناءته تلك إلا أحد رجلين: إما مسلمٌ لا دين له، وإما رجلٌ ليست له بالإسلام صلة، يهودياً كان أو نصرانياً، ومن ثم كانت حواشي الأمراء في أغلب العصور تضمُّ هذين الصنفين.

وقد أحسن الأقباط استغلال هذه الحال استغلالاً كبيراً لمصلحة طائفتهم الخاصة، ونالهم من ورائها مغانم جزلة.

والأقباط لا يلامون على هذا، إلا إذا كنا نكلفهم حراسة الإسلام إن نام

---

(١) هذه النقول ترجمها الكاتب عن الفرنسية. والعهدة في روايتها عليه.

أهله عنه! وإنما نحن نهزُّ رؤوسنا عجباً إذا سمعنا أحداً منهم يتَّهم المسلمين بالتعصُّب.

وكان أولىٰ به أن يتهمهم بالغباء.. إلا إن كان في اتهامه الأول ماكراً أو هازلاً.

* * *

وعندما اقتحم الإنكليز قناةَ السويس، وأذلُّوا الوادي سبعين عاماً، كان الإسلام مصاباً بطعناتٍ نافذة من حكامه الخونة.

ونظر الإنكليز إلى الدين الجريح وأهله المقهورين، ثم قرروا الإجهاز عليه وعليهم، فرأىٰ (اللورد كرومر) أن يحكم البلاد بنفرٍ يتخيَّرهم من الموظفين الأقباط، وقرَّر أن يستكثر منهم استكثاراً بالغاً في الدواوين والمصالح والمناصب الهامة، وأن يضيِّق الخناق على الأكثرية، متخذاً آلاف الحيل لحرمانها من حقها، وإن كان لابد من توظيف بعضهم في عملٍ ما، ففي أشغال الخدمة والدرجات الدنيا فحسب!!.

وهذه سياسةٌ صليبية قُصِدَ بها القضاء على الإسلام بأساليب (الدبلوماسية) الخبيثة التي بَرعَ الإنكليز فيها.

وكانت جرأة (كرومر) على وضع هذه الخطة وتنفيذها مستمدةً من جهل الحكام الكبار جهلاً مطبقاً بالإسلام وحقوق أهله، مما خيَّل إلى هذا الإنكليزي السليط: أنَّ في وسعه إعادة الحياة في مصر إلى ما قبل دخول عمرو بن العاص، فلما استفاق المسلمون من آثار النكبة التي صرعتهم، وقاموا يناوشون أعداءهم، ويغالون بحياتهم ودينهم، بدا كأنَّ الأقباط يريدون الاحتفاظ بمنهج[1] (كرومر) في سياسة التوظيف(!).

---

(١) اقرأ في كتابنا (من هنا نعلم) فصل بين الهلال والصليب.

وحمل لواء هذه الفكرة الخاطئة لفيفٌ من المهووسين الأغرار، في مقدمتهم الصحافي المعروف (سلامه موسى).

* * *

إنَّ قلة الإنصاف تمزِّق الأرحام القريبة.

أفتراها تبقي على عقدٍ بين شريكين، أو عهدٍ بين مواطنين؟؟.

وإذا كان القرآن قد أوصانا بالأقباط إقساطاً وبراً، ونبيُّ القرآن ﷺ عَهِدَ إلينا أن نسديَ إليهم إحساناً وخيراً، فهل مما يستزيد تلك المشاعر النبيلة ويستدرُّها أن تقسط فيقال: مضطرون! أو نحسن فيقال: مغرضون!.

فإنْ كنا أقوياء خودعنا، وإن عَرَض لنا ضعفٌ وجدنا الشماتة والتحدي.

ونحن لا نأسىٰ على ما دار من نزاع ـ طال أو قصر ـ حول سياسة التوظيف، بقدر ما نأسىٰ لمسْلك الموظفين الذين ائتمنتهم الكثرة على مصالح الدولة.

فإذا التعصب يسدل على أعينهم ليلاً طويلاً، لا يرون فيه إلا أشباحاً تخلقها الكراهية العميقة للإسلام وأهله.

ذكر القلقشندي في كتابه (صبح الأعشى) أنه في أيام (الآمر بأحكام الله الفاطمي) امتدت أيدي النصارى بالشر، وبسطوها بالخيانة، وتفننوا في أذى المسلمين، وقد استعمل منهم كاتبٌ يعرف (بالراهب) لُقِّبَ بالأب القديس، الروحاني النفيس، أبي الآباء وسيف الرؤساء، مقدَّم دين النصرانية، وسيد البطريركية، وصفيُّ الرب ومختاره، وثالث عشر الحواريين.

صادر هذا (القديس) عامةَ مَنْ في الديار المصرية من كاتبٍ وحاكم وجندي وتاجر.

وامتدت يداه إلى الناس على اختلاف طبقاتهم.. فخوَّفه بعض مشايخ الكُتَّاب بخالقه وباعثه ومحاسبه!.

وحذَّره من عواقب صنعه، وأشار عليه بترك ما سيكون سبباً في هلاكه،

وذلك بمحضرٍ من كُتَّاب مصر وقبطها .

فرفع عقيرته قائلاً : «نحن مُلاَّك هذه الديار حَرْثاً وخَراجاً ، مَلَكها المسلمون منا ، وتغلَّبوا عليها وغصبوها من أيدينا .

فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبةٌ إلى من قُتِلَ من رؤسائنا وملوكنا(!) في أيام الفتوح .

فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم حِلٌّ لنا ، وهو بعض ما نستحقه عليهم .

فإذا حملنا لهم مالاً كانت المنَّة لنا عليهم» .

فاستحسن الحاضرون من النصارئ والمنافقين ماسمعوه منه(!) واستعادوه

نقل الكاتب الصليبي هذه الرواية ، وكأنه يوعز إلى الموظفين الأقباط أن يعتنقوا أفكارها الباطلة ، ويسوسوا مصالح الدولة على هديها!! .

ولما كانت هذه المعاني التي هَرَف بها (الراهب) متوارثةً متداولة ، فإننا نستغرب شيوعها ، ونتساءل عن بواعث تكرارها؟ .

لقد دخل الإسلام مصر وهي مستعمرةٌ للرومان فحرَّرها . مما جعل أقباطها ينتعشون بعد هزالٍ وضعة .

ثم ارتضى القسم الأكبر من الأقباط أن يعتنق الإسلام ديناً ، وبقي الفريق الأول على نصرانيته .

ولم يستأثر من أسلم بوظائف الدولة كلها ، بل منح مواطنيه حظَّهم منها .

فهل يكون جزاء المسلمين على إنصافهم واعتدالهم أن يحاول الفريق الأقل انتهاب كل شيءٍ استغفالاً لرئيس الدولة ، واستهتاراً بجمهور الشعب على النحو الذي قرأتَ نبأه؟ .

لماذا تنبض القلوب بهذا الحقد الدفين على دينٍ آثر العفو على العقوبة؟ واختار الجود على الشح؟ .

إنَّ النصرانية استأصلت خصومها استئصالاً بشعاً.

فهل الإسلام - حين يستبقي خصومه، ويتلطَّف بهم - يلقىٰ منهم جزاء سنمار[1]؟.

لقد ضاق جمهور المسلمين بما وقع عليهم من عدوان الراهب ابن أبي النجاح المستولي على الخليفة الفاطمي، فقُتل الراهب والخليفة، ثم تعرَّض الأقباط بداهةً لبعض الإيذاء.

بَيْد أنَّ مسلك الموظفين الأقباط لم يطرأ عليه تغيُّرٌ كبير، فقد ظلُّوا على عبثهم بمال الدولة، وبقيت نظرتهم الضيقة العطنة إلى أنه حِلٌّ لهم، يعبُّون منه كيف شاؤوا، محتجين بأنه حقهم الذي اغتُصب منهم منذ الفتح! حتى جاء (نابليون بونابرت) إلىٰ هذه البلاد، ورأى في فترة الاحتلال الفرنسي وانقطاعه هو ورجاله عن وطنهم أن ينظِّم شؤونَ الإدارة والمال، **فهاله ما كان يصنع الأقباط بها**، وفطن إلى سيرتهم المريبة..

وإنك لتقرأ اعتراف الكاتب نفسه بهذه الحقيقة في قوله في ص٢١٣:

.. نعم إنه استعان بهم في جباية الضرائب كما فعل المماليك من قبل، لكنه اتخذ هذا الإجراء مرغماً، إذ كان يتحدث عنهم بقسوةٍ شديدة فيقول:

«إنهم لصوص مكروهون في البلاد، غير أنه تجب مراعاتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لإدارة البلاد دون سواهم».

لذلك عَيَّن المعلم (جرجس الجوهري) مباشراً عاماً، وخوَّله السلطة على سائر المباشرين، وعلى أن يكون معه موظفٌ فرنسي لمراقبته.

ثم لم يزل (بونابرت) منذ هذه اللحظة يترقَّب أول فرصة للتخلص من الجوهري، فلما ترك القائد الفرنسي مصر أرسل إلى الجنرال (كليبر) كتاباً مؤرخاً

---

(١) رجل بنى قصراً للنعمان بن امرئ القيس، فلمّا فرغ من بنائه، ألقاه النعمان من أعلاه لئلا يبني لغيره مثله، فضُرب مثلاً لمن يجزي الإحسانَ بالإساءة. (الناشر)

في (٢٢) أغسطس ١٧٩٩ يقول فيه بصراحة:

«. . . كنت مزمعاً ـ إنْ سارت الأمور سيرَها الطبيعي ـ أن أضع نظاماً شديداً للضرائب يجعلنا نستغني تقريباً عن خدمات الأقباط»[1].

وفي صفحة (٢١٩) يقول خلف (مينو) الجنرال (كليبر):

«ولما كان (مينو) رجلاً إدارياً فقد أظهر ريبته من المباشِر القبطي، الذي كان غير محبوب من الفرنسيين، وكان الفرنسيون يعاقبون ـ بقسوة ـ المباشرين الأقباط الذين اختلسوا الأموال.

وكانوا يتربَّصون الفرصة للاستغناء عن هؤلاء الموظفين الغير مخلصين (غير المخلصين).

وفي شهر (فاندميير) عام (٩) من الثورة اتهم (أستيف) الأقباط باختلاس (١٢٩٣١٤٣) جنيهاً على حساب دافعي الضرائب، فأمر (مينو) بالقبض على المباشِر (أبي طقية) وتغريمه (٧٥٠٠٠٠) جنيهاً لتعويض الخسائر».

ومسلك (مينو) في تغريم الأقباط هذه المبالغ الجسيمة يفسِّر لنا ما كان يصنعه الولاة من مصادراتٍ متكررة لما يتجمَّع في أيدي الأقباط الموظفين من أموال.

وكان الكاتب الصليبي يعتبر ذلك آية تعصب المسلمين، وافتئاتهم على الأقليات و. . و. . وليس استرداداً لما وقع من سرقات.

ويقول الكاتب نفسه: «نقرأ أيضاً في البند الرابع من الأمر المؤرخ (١٠) فاندميير عام (١٠) الخاص بإعادة تنظيم الدولة المصرية:

«إنَّ الأقباط ما هم في مصر إلا أقليةٌ مكروهة من المسلمين، **لأنهم يعملون على إثارة هذا الحقد عليهم**. إنه يجب أن نضمن لهم العدل والحرية، ولكنه ليس

---

(١) حصل الكاتب على نصوص هذه الوثائق من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة لجلالة الملك.

من الحكمة ـ بل من الخطر ـ أن نتحالف معهم، ونمنحهم امتيازات، لذلك سيحضر رؤساؤهم ورؤساء الأمتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على أن يكون رأيهم استشارياً فحسب».

وعمل (مينو) على تحقيق مشروع (بونابرت) الخاص بتجريد الموظفين الأقباط من امتيازاتهم.

فألغى ـ فعلاً ـ وظائف المباشِرين في النظام الإداري الجديد»، ص ٢٢٠.

إنَّ الحكومة لا تقوم على السرقة، وشؤون الدولة لا تصلح بالفوضى.

ومهما رَحَّب الأقباط بدخول الفرنسيين مصر، فإنَّ قواد الحملة لا يكترثون بهذا الترحيب إلا في حدود ما يضمن انتظام الأمور في أيديهم.

وقد انتفعوا بالأقباط ـ رجالاً ونساءً ـ على ما سنعلم بعد، انتفعوا بهم على الأسلوب الذي يتقنه المحتلُّون الأجانب دائماً، عندما يضربون كتلة الشعب ببعض الخونة.

فليسوا ـ في أيديهم ـ إلا أدوات تستعمل بقدر، ثم تُهمل إذا قلَّت جدواها.

وقد احتال (نابليون) لترضية المسلمين بكل ما لديه من وسائل. .

ولكن المسلمين أبوا إلا الثورة عليه، فما اعتبروه إلا مغامراً لإذلالهم واغتصاب بلادهم.

أما النصارى فقد انضمُّوا إليه قلباً وقالباً.

فكان هَمُّ نابليون الأول أن يعالج من استعصَوْا عليه بعد أن وضع في جيبه من استراحوا لمقدمه.

فكتب لقواده في مناسباتٍ عديدة يقول لهم:

«مهما فعلتم تأكَّدوا من أنَّ النصارى في صفِّكم، فلا تتردَّدوا إذن في تفضيل المسلمين على النصارى».

وكرَّر هذا القول على الجنرال (كليبر) قبل رحيله إلى فرنسة.

ولمَّا انتصر على القوات التركية في (أبي قير) وأراد أن يُطمئن الأعيان والعلماء فصَرَّح علانيةً:

«نعم إني أكره النصارى، لقد سحقت ديانتهم، وهدمت هياكلهم، وقتلت قساوستهم، وهشَّمت صلبانهم، وأنكرت إيمانهم، وعلى الرغم من ذلك. فإني أراهم يفرحون لفرحي، ويتألمون لألمي، فهل من المعقول أن أعتنق من جديد الدين المسيحي؟ وما هي الفائدة التي سأجنيها من هذا العمل؟».

وهذا التصريح يومئ إلى ما صنع (نابليون) في أوروبة عندما حمل روح الثورة الكبرى في فرنسة ثم طوَّف بها الآفاق، وأزاح العوائق التي وضعتها الكنيسة في طريقه.

وكانت الكنيسة يومئذٍ معقل الرجعية التي آزرت الملوك، وأهانت الشعوب، وقد جاء نابليون مصر بهذه الروح، فهو ابن الثورة التي كفرت بالنصرانية خادمة الاستبداد، وقاهرة العلماء، وقاتلة الحريات.

غير أنَّ أقباط مصر هَرَعوا لاستقباله، بوصف أنه رجلٌ مسيحي جاء ليحتل بجيشه بلاد الإسلام، **ولم يتردَّدوا في تكوين فرقةٍ مقاتلة تنضمُّ إلى عسكره برغم أنَّ هذا القائد لم يتناول الأمور بعاطفةٍ صليبية متعصبة.**

فهو ـ أولاً وآخراً ـ وليد ثورةٍ معروفة المبادئ والأهداف، لم تبالِ بتحطيم الكنيسة، وقتل قساوستها عندما وقفت ووقفوا في طريقها.

ونحن نكرر العجب من مسلك الأقباط بإزاء مَنْ عاشوا معهم عصوراً، وتركوا لهم الوظائف المالية يعبون منها كيف يشاؤون.

أجل نعجب!.

فما كذلك يُرَدُّ الجميل، ولا كذلك يُدافَع عن الوطن، الوطن الذي يزعمون أنفسَهم أصحابَه الأولين.

أيبلغ التعصب ضد الإسلام أن يرفض في ظله الأمان، وتقبل في ظلال غيره الدنيّة؟! ولكن.. إنَّ هذا هو الذي حدث.

بطر المدللين:

أجمع المؤرخون على أنَّ الأقباط كانوا مستذَلّين أيام احتلال الرومان لمصر، وأنَّ هذا الاستذلال بلغَ مداه قبيل الفتح الأعظم، فإنَّ الرومان، وإنْ كانوا نصارى يومئذٍ كأهل مصر، إلا أنَّ الاستعمار لا يعرف غير علاقة السيد بالعبيد.

يضاف إلى ذلك ما قررناه من اختلاف الآراء في فهم عقيدة التثليث، فإنَّ أقباط مصر كانوا يعاقبةً لهم في فهم هذه العقيدة مذهبٌ يخالف ما استقرَّ عليه الأمر عند الكاثوليك الرومان.

واختلافات النصارى الدينية تحمل طابعاً عنيفاً يصطبغ ـ غالباً ـ بلون الدم.

وقد انتهى أمر القبط إلى أن فقدوا حريتهم الدينية والمدنية فلم يرفعوا رؤوسهم إلا منذ تمكن المسلمون من سحق قوىٰ الرومان في عشرات الميادين التي احتدم فيها القتال من آسية إلى أفريقية.

* * *

استرد الأقباط حرياتهم المفقودة، فاسترجعوا الكنائس التي سُلبت منهم، وأحيوا فيها ما مات من شعائرهم، وأسهموا في حكم البلاد بعددٍ كبير من الموظفين، وانتهى إلىٰ الأبد عهد الفتن الذي كان يحرق بطارقتهم، ثم يرمى بهم في أعماق اليم.

ذلك أنَّ المسلمين لا يفقهون منطق الإكراه في العقيدة.

ولسنا نزعم أنهم لا يعرضون دينهم على الناس، كلا، إنهم يذكِّرون به، ويشرحون أصوله، ويبسطون دعوته، فمن آمن رحَّبوا به، ومن أعرض عنهم فهو على عقد الذمة، يعيش بين المسلمين كواحدٍ منهم، له ما لهم، وعليه ما عليهم.

ولا يوجد في الدنيا امرؤ ينقد هذه المعاملة المقسطة، إلا أنَّ الأقباط فوجئوا بأمرٍ لم يكن في حسبانهم.

هو أنَّ جمهوراً غفيراً منهم أخذ ينفضُّ من حول الكنيسة، ويدخل في الإسلام، وأنَّ هذا الجمهور يتضاعف عدده على مرِّ الأيام، وقد حزن البطارقة والقساوسة لهذا الحدث الجليل.

إنهم رَحَّبوا بدخول العرب محرِّرين، ولم يَدُرْ بخلدهم أن تتحوَّل رعيتهم ـ بين عشيةٍ وضحاها ـ إلى مسلمين!.

ولكن ماذا يصنع العرب؟.

أكانوا يصدُّون ـ بالقوة ـ من يدخل في دين الله بمحض مشيئته؟.

يبدو أن ذلك ما كانت ترقبه الكنيسة القبطية!!.

فلما تتابعت السنون والمسلمون يرحِّبون بمن ينضمُّ إليهم، والكنيسة ترى نفسها كجزءٍ انحصرت وراء فيضانٍ طامٍ من أتباع الدين الجديد، دبَّت إليها مشاعر الكراهية للإسلام، وشرعت تُظهر حيناً وتُضمر حيناً تبرُّمها به حكومةً وشعباً...

ونحن نفهم تشبُّث الكنيسة بالحياة، وسخطها من تحوُّل الشعب عنها، وقد نعذرها إذا احتدَّ غضبها..

بَيْد أنها ـ على تغيُّر الأحوال ـ ينبغي أن تدرك حقيقة وضعها، وأن تعترف بالتطور الواقع، فليس منه بد.

وإذا فكرت في وضع عقباتٍ دون تفلُّت أبنائها عنها ـ ومن حقها ذلك ـ فليكن تفكيرها في حدودٍ معقولة كريمة...

أعني أنه لا يجوز لها أن تجرح المسلمين في الداخل، ولا أن تتآمر على سلطانهم مع الخارج.

فإنَّ العهد الذي يحوطها بسياجٍ من الرعاية والحماية يفرض عليها ذلك.

فإذا حدث أن بذلت جهداً مدنياً أو عسكرياً لإسقاط الإسلام كدولةٍ حاكمة، فإنَّ هذا يَبُتُّ عهود الذمة المبرمة بينها وبينه. . .

ولاشك أنَّ رجال الكنيسة أحسُّوا هذه المعاني، وقد التزم الرجال الرسميون منهم بالمحافظة عليها. .

غير أنَّ أموراً أخرىٰ كانت تجري من وراء ستار، إذ اندفع الطائشون والناقمون يشنُّون على الإسلام حرباً من البغضاء والتربُّص. . .

ويجمعون فلولهم الباقية، ثم يُجمعون على سياسةٍ من الكيد والاحتيال لإلحاق الأذى بهذا الدين ووقف زحفه المتلاحق.

ولئن انكشف جزءٌ من هذه السياسة الخبيثة في مسلك الموظفين الأقباط ـ الذي أوضحناه ـ منذ الفتح، فإنَّ الجزء الأخطر يتعدى حدود العراك على المناصب الحكومية وإساءة استغلالها. . إلى سياسة الحكم الإسلامي في الميدان الدولي الكبير. وهنا الخطر كله!!. .

ذلك أنَّ صغار القسس والرهبان عقلوا قلوب رعاياهم بالنصرانية المتأهبة هناك خلف الحدود!.

إنَّ انتشار الإسلام بهذه السرعة الخاطفة جعلهم يَجْفلون منه على مصيرهم.

فتناسوا آلامهم الماضية، وأسَّسوا آمالاً جديدة في بقاء النصرانية الرومانية تقاوم الإسلام وتقاتل المسلمين. . .

وسَرَتْ هذه العواطف الجديدة في صفوف الأقباط، فأضحوا يتابعون أنباءَ الصراع بين المسلمين والرومان خارج الحدود باهتمامٍ بالغ.

فإن انتصرَ الرومان استبْشروا، وإن انهزموا وجموا. .

وكان المسلمون ـ مع هذه الحال المنكرة ـ لا يظلمون الأقباط ذرةً من حقوقهم العامة. ومع ذلك فإنَّ الأقباط ناقمون!!. .

﴿ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٤].

ولنعد إلى الماضي البعيد نَنْبُش دفائنه، ولنتدرج مع الحوادث حتى نصل إلى هذا العصر.

* * *

يقول ميخائيل السوري: «إنَّ عمر بن عبد العزيز أساءَ معاملة النصارى حين اضطرت جيوشه إلى رفع الحصار عن القسطنطينية بعدما تحمَّلت خسائر فادحة».

ونقول: إنَّ عمر بن عبد العزيز ليس الخليفة الذي يقترف المظالم ضد بشر، إنَّ الحكام المستبدِّين في بني أمية لم يتَّهموا بهذا، فكيف يُنسب إلى أعدل رجلٍ فيهم؟!.

غاية ما هنالك أنَّ النصارى أظهروا الشماتةَ لهزيمة المسلمين..

وتلك مشاعر منحرفة من قومٍ يستظلُّون بالراية الإسلامية..

ومع انحرافها لم يلقها المسلمون بالقمع العنيف...

وتكرَّرت القصة أيضاً أيام المهدي، عندما انهزمت بعض فرقه أمام الرومان.

يقول ميخائيل السوري: «فأرسل المهدي محتسِباً لهدم الكنائس التي بنيت في عهد العرب...».

ونحن نستبعد وقوع ذلك. ولعله ـ إذا وقع ـ راجعٌ إلى (زياط) بعض النصارى في معابدهم عقب انتصار الرومان.

ويقول الكاتب الصليبي في ص١١١:

«ثم جاء هارون الرشيد ففرض على الذميين زيّاً خاصاً.

ذلك لأنَّ سكان الحدود كانوا يتجسسون لمصلحة الإمبراطور (نقفور) الروماني. ويلوح أنَّ هذا الإجراء لم ينفَّذ إلا في مدينة بغداد. أما أقباط مصر فلم ينلهم منه شيء».

ومسألة إفراد النصارى بزيٍّ خاص وشاراتٍ معينة ليست حكماً دينياً، وإنما هي سياسة شرعية أوحت به ضروراتٌ عسكرية.

وظاهرٌ مِن تصرُّف هارون الرشيد أنه وضع هذا التقليد محاربةً للتجسس. ثم امتد بعد ذلك مع بقاء ضروراته، واختفى مع اختفائها..

على أنَّ الحرب بين المسلمين والروم لم تهدأ في ميدان إلا هاجت في ميدانٍ آخر، وللحرب وقودها الدائم من الهام والحطام..

ولا ريب أنَّ المسلمين كانوا يتلقَّون أنباءَها على الحالين بوجل.

فضحاياها منهم إن انتصروا، وعقباها عليهم إن انكسروا.

فإذا تلفَّتوا حولهم فوجدوا جيرانهم من النصارى يرحبون بما يصيب المسلمين من هزائم، ويتضاحكون لما يلحق بهم من خسائر، فإنَّ ذلك بلا ريب يحطِّم صلات المودة المرجوة بين الفريقين.

وليتَ النصارى كبتوا عواطفهم تلك في أنفسهم، وتظاهروا بالحياد التام في هذه المعارك الحساسة.

إنَّ المسؤولين من رجالهم الكبار فعلوا ذلك طبعاً..

وقد قابل الولاة المسلمون هذه المجاملات الظاهرة، وأعطوها حقها من الاعتبار، وكانت الأعياد والمواسم العامة تمرُّ فيتبادل الفريقان فيها التهاني المعتادة، ويحاولون نسيان ما كان..

فإذا حدثت حربٌ أخرى بين المسلمين والرومان تكررت المأساة من جديد، وعالجها المسؤولون من جديد..

في عهد كافور الإخشيدي أحرز الإمبراطور الروماني نصراً كبيراً على حدود الشام، واغتاظ المسلمون المصريون لما وقع بهم، على حين لزم النصارى خطَّتهم، فحاول الدهماء مهاجمة كنائسهم، وألَّفوا مظاهراتٍ كبيرة لذلك، بَيْد أنَّ الحكومة فرَّقتها بالقوة.

ويقول في ذلك المستشرق (جاستون فييت): «إنَّ الحكومة لم يكن لها يدٌ في تلك الاضطرابات الشعبية».

وزيادةً في طمأنة النصارى أصدرَ الخليفة مرسوماً سنة ٣١٣هـ أسقط فيه الجزية عن الأساقفة والرهبان والمعوزين.

* * *

وقد انتقل العطف على الروم من مشايعةٍ بالقلب، وتأييدٍ عن بعد، إلى معاونةٍ فعالة ضد المسلمين وقواتهم المعدّة للقتال.

روى سعيد بن يحيى الأنطاكي قال:

«كان (العزيز) قد اعتزم أن يغزو بلاد الروم، وأمر عيسى بن نسطورس بإعداد الأسطول، وعَزَم على تسييره بعد صلاة الظهر من نهار الجمعة، فوقعت فيه نارٌ أحرقت منه ستة عشر مركباً، واتَّهم الجمهور بحريقه تجارَ الروم الواردين بالبضائع إلى مصر، فثارت عليهم الرعية والمغاربة، وقتلوا منهم مئةً وستين رجلاً، ونُهبت كنيسة ميخائيل التي للملكيين بقصر الشمع، ونُهبت كنيسة النسطورية، وركب ابن نسطورس وقت النهب ونزل إلى مصر، وتقدَّم يكفُّ الأذى عن الروم والمنع من معارضتهم، ونوديَ في البلد أن يردَّ كلُّ واحدٍ من النهَّابة جميع ما أخذه، فردَّ البعض من ذلك، وأحضر من سلم من التجار الروم، ودفع لكلِّ واحدٍ منهم ما تعرَّف عليه، وقبض من النهابة على ثلاثةٍ وستين رجلاً وأمر (العزيز بالله) بإطلاق ثلثهم، وضرب ثلثهم، وقتل ثلثهم».

قال الكاتب الصليبي ـ بعد أن قصَّ هذه الرواية ـ:

«كان من شأن هذا الإجراء زيادة غضب المسلمين، وإذا كان (الحاكم بأمر الله) قد اضطهد النصارى يوماً، فلم يكن ذلك إلا إرضاءً لروح الانتقام التي استفزت قلوب الناس».

والحق أنَّ الحاكم كان أحمق، وقد عمَّ ظلمه المسلمين والنصارى.

ونحن لا نعرف في تاريخنا ـ على طوله ـ حاكماً رسم سياسة اضطهادٍ للنصارى.

وقد كانت للنصارىٰ أخطاء جَمَّة.

ولكن حكامنا ـ في معاملتهم ـ كانوا يسيرون على قاعدة «لأن تخطئ في العفو خيرٌ من أن تخطئ في العقوبة».

وجريمة حرق الأسطول ليست حادثةً تافهة.

والقول بأنَّ الروم الوافدين بتجارتهم إلى مصر هم مرتكبوها، قولاً لا يقنع الباحث.

فإنَّ مثل هذا العمل الخطير لا يتمُّ إلا بعد مؤامرةٍ محكمة من قومٍ مقيمين.

ومن حقِّ الشعب أن يهتاجَ لما وقع، وإن كُنَّا لا نبرِّر أعمالَ القتلِ والنهب، وقد تعقَّبتها السلطة القائمة بأشد النكال.

ونكرِّر أنَّ تلك الأحداث ـ على دلالتها ـ السيئة لم تحرج مركز الأقباط في مصر قط، ولا مركز النصارى في سائر بلاد الشام.

ولا محلَّ للمقارنة بين أحوال الأقلية اليهودية في العالم المسيحي، وبين أحوال الأقلية النصرانية في العالم الإسلامي.

أجل، لا محلَّ لهذه المقارنة، فإنَّ النصارى عندنا كانوا يتولَّوْن في الدولة وظائف جليلة يأمرون فيها وينهون..

على حين كان منتهىٰ ما يصبوا إليه اليهود بين النصارى أن يظفروا بحقِّ الحياة، ولو أنَّ جزءاً من مئةٍ من التهم التي وُجِّهت للنصارى عندنا وجهت لليهود في مملكة الرومان لاستأصلتهم استئصالاً..

وإننا لنحسُّ مرارةً في حلوقنا من كفران النصارى لهذا الفضل.

ونرمق موقفهم في الحروب الصليبية وما بعدها، فنضرب كفاً على كف!!.

الصليبيون ونصارى المشرق:

ما أكثر الشخوص المهازيل في أحفاد العصاميين الكبار!!.

ذهب الجيل الأول من حملة الإسلام، وأعقبتهم خلوفٌ حملهم الإسلام فَنَاءَ بهم..

ذهب الذين ذابوا في إمداد العالم بضياء الإسلام، كما تذوب الشمعة في إمداد ذبالتها باللهب، وجاء من بعدهم حكامٌ يأكلون بالإسلام، ويتمطّون تحت ظلاله الوارفة، ولا يحملون له عبئاً ولا يحسنون له بلاغاً، ولا يطيقون جهاداً..

تعاركوا على الحكم لأنه متعةٌ وجاه، فتشعَّبت أهواؤهم عليه.

وتفـرَّقـوا شيعـاً، فكـلُّ قبيلـةٍ فيهـا أميـرُ المـؤمنيـن ومِنْبَـرُ!!

أفكانَ هذا النزاع الآثم على الإمارة والمنابر ينشأ لو أنَّ الإمارة محنةٌ يبتلىٰ بها، أو لو أنَّ المنابر مصادرُ توجيهٍ ومنابع تربية؟.

فلمَّا هانت الخلافة وأصبحت منتجعَ الأدعياء، ومرتزق الطامعين، وأصبح الدين لغواً على الألسنة، وكثر الروَّاد، وفَشَت الأحزاب، وضاع أمر العامة: استفتح المسلمون القرن السادس من تاريخهم وقبضات الصليبيين تقرع أبوابهم بعنف، ولطرقها دويٌّ يسمعه المشرقان، وكان الأجداد الجادون قد ولوا، وبقي الأحفاد اللاهون.

فلما انسابت جحافل النصارىٰ، اندفعت في سهلٍ كالفيضان الزاخر لا يقفه شيء.

وحاق الهلاك بورثَةِ المجد الغارب، فكانت المذابح الشنعاء ختام اللهو واللعب، فكانت جزاء ما فرّطوا.

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٣ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۝٤ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ [الحجر: ٣ ـ ٥].

* * *

خرجت (أوروبة) عن بكرة أبيها، في تعبئةٍ لم تشهد القرون الأولى كثافتها وولّىٰ الصليبيون الزاحفون وجوههم نحو الشرق الإسلامي . .

يحدوهم الحقد الدفين، وتسيطر عليهم فكرةٌ واحدة هي أن يستأصلوا الإسلام استئصالاً، ويمحوا نفوذه محواً تاماً .

وليس هنا مجال تاريخ الحملات الصليبية ونتائجها، ولكنَّ المؤرخ المسلم في مثل هذه الخلاصة العاجلة لا يفوته أن يقرِّر عدة أمور :

أولها : أنَّ المؤرخين مجمعون على أنَّ أمراء المسلمين لو وحَّدوا كلمتهم، وواجهوا هذه الغول المنطلقة لالتهامهم : لصرعوها في منتصف الطريق إلى أرض الإسلام، ولنجوا من فظائعها .

غير أنَّ المسلمين كانوا في سباتٍ عميق، وكانت أزمّة أمورهم قسمةً ضيزىٰ بين أبناء علي، وأبناء العباس، وأبناء أمية .

وإنني ـ كمسلم ـ أمسحُ عرقَ الخجل عن وجهي إذ أرى قيادَ دين الله بين هؤلاء المفاليك من وَرَثة أمجاد الجاهلية القذرة .

وأشعر أنه كان من المستحيل أن يتَّحد هؤلاء على صلاح دينٍ أو دنيا، فإنَّ صلاح الدين والدنيا في زوالهم من ميدان السياسة العامة .

وثانيها : أنَّ انسيابَ هؤلاء الصليبيين في الشرق الإسلامي بعد ما تحوَّل أرضاً إسلامية يذكرنا بانسياب المسلمين فيه يوم كان أرضاً مسيحية، كما يذكر الضد بالضد والبياض بالسواد .

فالمسلمون الأولون ـ كما جلونا لك صور الفتح ـ كانوا حملة مبادئ يعرضونها ويجادلون عليها .

أما الصليبيون الفاتحون اليوم؛ فهم كالجزّار الذي لا يعرف إلا الذبح؛ أو المخمور الذي لا يحسن إلا الهذر والفوضى، فكان الناس يفرُّون مذعورين من طريقهم، كما يفرُّ طلَّاب الحياة من الوباء العاصف .

بل إنَّ نصارى الشام من اليعاقبة خافوا الهلاك علىٰ أيدي هؤلاء العميان، ففرُّوا من وجوههم إلى مصر.

والأمر الأخير الذي نحبُّ التنبيهَ عليه، أنَّ هذا الزحف الصليبي صورةٌ للتفكير الضيِّق الذي لا يعرف البابوات والأباطرة غيره.

فالإبادة هي أسلوب المعاملة الأول والأخير إذا ذُكر الإسلام والمسلمون.

ونريد أن نسأل كلَّ عاقل: ماذا نصنع بإزاء من لا ينظر إلينا إلا من خلال هذه الزاوية القانية؟؟.

إننا نسأل العقلاء، ولا نسأل الأفَّاكين الذين يبرِّرون الجرائم التي يرتكبونها بجرائم يختلقونها، ثم ينسبونها إلى الأبرياء الأطهار، كما يفعل هذا الكاتب الكاثوليكي المضلل، حين يذكر مذبحة (بيت المقدس) التي أبيد فيها المسلمون، فيقول:

«على أثر قيام المذابح العظيمة التي كانت سبباً في إخلاء مدينة القدس من سكانها المسلمين، الذين سَبَق لهم إبادة العناصر النصرانية، قرَّر (بودوان) تعميرها بالنصارى الشرقيين»، ص١٦٢.

أقرأتَ هذه الجملة الرقطاء المسمومة التي يقطر كلُّ حرفٍ منها إفكاً وكفراً؟

إنه يريد تخليص الصليبيين من سُبَّة إبادة مسلمي القدس، فيخترع أسطورةً من لدنه، يوهم بها أنَّ المسلمين سَبَق لهم أن أبادوا العناصر النصرانية.

وهي أكذوبةٌ لم يجرؤ على تزويرها مؤرخٌ في القديم والحديث.

لو كنَّا ممن يلجأ إلى حرب الإبادة ما وُلد في بلاد الإسلام مثلك أيها الكاتب الكاثوليكي الحقود، لأنَّ آباءكَ نالوا حقَّ الحياة في العفو السمح الذي بذله عن طواعية المسلمون المنتصرون.

ولو شاؤوا أن يثأروا لمذبحة بيت المقدس لعمَّروا القبور بجثث المجرمين الذين سبقوا بالغدر وقتلوا الآمنين...

ويقول المؤرخ (ميشو) واصفاً قادة الحملة الصليبية وفرسانها:

«كان البارونات والنبلاء يجهلون ـ لغلظتهم ـ الكلمات المعبرة عن حقوق الإنسان، وكان أفق علمهم مقصوراً على ميادين الحروب. وهي سياسة الأمراء والدول في ذلك العصر».

يعني أنهم كانوا قطعاناً من البشر، لهم بغام كقوافل الذئاب المنطلقة للبحث عن فريسة!!.

أما الكاتب الصليبي فيفسّر هذا الوصف فيقول:

«إنهم كانوا يأنفون لزهوهم وكبريائهم من الالتجاء إلى الطرق السلمية ليصلوا إلى رغباتهم»، ص١٥٤.

إنه يريد أن يخلع عليهم من عنده شيئاً يشرِّفهم!! وينفض الغبار عن سيرتهم الحيوانية!!..

ويروي (ميشو) أنَّ الفاطميين عرضوا على الصليبيين «فتح أبواب المدينة المقدسة لجميع الحجاج، على أن يأتوا مجرَّدين من الأسلحة، وألا يظلُّوا بها أكثر من شهر..».

وأنَّ الصليبيين رفضوا هذه العروض، وقالوا للوفد المصري الذي جاء بها:

«اذهبوا وقولوا لمن أرسلكم أن يختار الحرب أو التسليم، قولوا له: إنَّ المسيحيين المعسكرين أمام أنطاكية لا يهابون شعوب مصر ولا الحبشة ولا بغداد، وأنهم لا يتحالفون إلا مع الدول التي تحترم القوانين العادلة وأعلام يسوع المسيح».

والقوانين العادلة التي طُبِّقت تحت أعلام السيد المسيح حين رفرفت على بيت المقدس هي.. الذبح[1]!!..

---

(١) ما أصدق أمير الشعراء شوقي حين صوّر هذا الزحف الصليبي الغاشم (الشوقيات: ١/ ٢٣٣) بقوله:

ويحثّه باسم الكِتَابِ أقسةٌ   نشطوا لما هو في الكتابِ حَرَامُ   =

لندع أخبار الصليبيين الزاحفين على المشرق، ولنعد إلى أخبار الصليبيين المقيمين فيه من قديم، الصليبيين الذين كانوا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ يتنسَّمون أنباء الحروب الدائرة بين المسلمين والروم، فإنْ وجدوا أبناء دينهم غَلبوا استراحوا، وإن سمعوا بهزائمهم عَرَاهم وجوم.

هـؤلاء النصارى الذين أكرمهم المسـلمون، وبلغوا في التلطُّف بهم إلى أن وصلوا في الوظائف إلى منصب الوزارة، ما إن سمعوا بهجمات الصليبيين حتى بادروا إلى انتهاز فرص الخيانة.

ويروي الكاتب نقلاً عن (ميشو) و(جروسيه) في ص ١٦٠:

«الأرمن أول من ساعد الصليبيين أثناء اجتيازهم آسية الصغرى وأنَّ (بودوان) قائد الحملة ـ لم يكن محتاجاً إلى مرشدين ـ يعرفونه الطرق في بلادٍ كان سكانها يعرضون عليه مساعدتهم. . ».

ثم يقول في الصفحة نفسها:

«وحذا اللبنانيون حذوَ الأرمن، فقدَّموا معاونتهم للفاتح وكانوا له خير معين.

وكان يوجد وقتئذٍ في بيروت عددٌ كبير من النصارى الملكيين واليعاقبة، لم يتردَّدوا جميعاً في مناصرة الصليبيين، ومصاهرتهم بالزواج، فزاد عدد الأسر الأوروبية، وكانوا يؤلفون أغلب الأطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات.

أضف إلى ذلك أنهم يضطلعون بأعباء الترجمة في مختلف الدواوين».

ويقول كذلك: «ارتاح الصليبيون، واطمأنوا لموقف هذه العناصر، إذ إنهم وجدوا فيهم حلفاء مخلصين في قلب الإمبراطورية الإسلامية. . . لم يكن لهم إلا عدوٌّ واحد هو المسلم».

= ومسـيطرونَ على الممالكِ سُخِّرَتْ — لهم الشعوب كأنها أنعامُ
من كل جزارٍ يرومُ الصّدرَ في — نادي الملوكِ وجَدُّه غَنَّامُ
سكينُه، ويمينُه، وحزامُه، — والصولجانُ جميعُها آثامُ

(الناشر)

أمام هذه الخيانات الواضحة لم يرَ (صلاح الدين الأيوبي) بداً ـ حين عيَّنه الخليفة العاضد وزيراً له ـ من إصدار أمرٍ يحرِّم على الذميين شغل وظائف الدولة.

إذ كيف يملؤها بالجواسيس والخَوَنة؟.

لكنَّ الكاتب المتحامل يُعَقِّب على هذا التصرف بقوله في ص١٦٤:

«وكان صلاح الدين متديناً، فلم يحاول تحرير مبادئه».

يعني أنَّ صلاح الدين خضع لتعاليم الإسلام في عدم توظيف الذميين.

وكان يجب عليه أن يتحرَّر منها ليكون رجلاً راقياً.

أما مسلك أبناء جلدته فلا غبار عليه..

إن هذا المسلك أغضبَ كثيراً من المسلمين حتى فكَّر بعضهم في التخلُّص من هذه الأقليات الحقودة.

ذكر (ميخائيل السوري) في تاريخه: أنَّ (نور الدين) كتب إلى الخليفة العباسي يقول له:

«إنَّ المسلمين حكموا خمسمئة عام لم يسيئوا خلالها إلى النصارى.

أما الآن وقد انصرمت هذه الأعوام. فيجب الا يبقىٰ هؤلاء النصارى في البلاد الإسلامية، من لم يسلم منهم يُقتَل».

فأجابه الخليفة العباسي:

«إنك لم تفهم أقوال النبي ﷺ، إنَّ الله لا يأمرنا إلا أن نقتل من يرتكب السوء».

نحن نفهم غضبة نور الدين، ونشاركه تأذِّيه من جحود النعمة وكفران الصنيع، فالمسلمون ظلُّوا طوال القرون التي سبقت الهجوم الصليبي يعدُّون النصارى جزءاً من الرعية الإسلامية في الحقوق والواجبات.

بل إنَّ حظَّهم كان أفضل من المسلمين أحياناً، فلمَ هذا التنكر؟.

إنَّ الإحسان الضائع سدًى يحرج الصدر.

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:

«ثلاثٌ من الفواقر[1]: إمامٌ: إن أحسنتَ لم يشكر، وإن أسأتَ لم يغفر، وجارُ سوءٍ: إن رأىٰ خيراً دفنه، وإن رأى شراً أذاعه، وامرأةٌ: إن حَضَرتَ آذتك، وإن غبتَ عنها خانتك».

إنَّ هذه الفواقر تجمَّعت نقائصها في مسلك الخونة من أهل الذمة.

بَيْد أنَّ الخليفة العباسي التزم حكم الإسلام الدقيق في أمر الكفر والإيمان والقتل والإحياء فلم يوافق وزيرَه على مقترحه.

ومسلك الخليفة يستحق التنويه، فقد ضبط أعصابه أمام سَيْل من الخيانات وأنفذ قول الله في كتابه:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨].

ويصف (رينو) صلاح الدين قائلاً:

«الغريب أنه لم يكره النصارىٰ كأفراد، بل كان يكرههم كأمة.

فلما هزمهم سرعان ما تغيَّر موقفه نحوهم.

وآية ذلك: أنه لم يكتفِ بالتسامح مع أقباط مصر ـ وكان عددهم وقتئذٍ كبيراً نوعاً ما ـ، بل احترم كذلك عهدهم، وجعل بعضهم في خدمته».

ونظرٌ (رينو) يقصد أنَّ (صلاح الدين) يكره النصارى دولةً، ولا يكرههم فرادى.

وهذا تصويرٌ صحيح لمشاعر القائد المسلم.

---

(١) الفواقر: المصائب التي تقسم الظهر. (الناشر)

فإنَّ الدولة في يد النصرانية سلاحٌ قاتل للحريات والكرامات، فيجب أن تُجرَّد منه.

بل إنَّ الأوروبيين فعلوا ذلك كما نبهنا سابقاً.

أما النصارى ـ أفراداً ـ فلا يملكون فتنة أحدٍ عن دينه.

ومَنْ أحسنَ منهم في ظل الحكم الإسلامي استحق الرعاية والتقدير.

لكنَّ الكاتب المسكين يخالف (رينو) في حكمه على موقف صلاح الدين من النصارى، ويقول في ص١٦٤ :

«نعتقد أنه لا يميل إليهم بأيِّ حال، رغم استخدامه لعددٍ من الكتاب النصارى، وخصوصاً أنه لم يمنح أحدهم أيَّ امتيازٍ خاص».

أيُّ امتيازٍ كان يمنحهم إياه؟ أينقلهم من وظائف الكتابة إلى وظائف الوزارة؟ أم أنه الحقد وكفىٰ يدفعه إلى تشويه التاريخ وتنقُّص الأبطال؟.

* * *

وجاء دور الأقباط في الحرب الصليبية عندما انتقل ميدان هذه الحرب إلى مصر نفسها، وقد اتَّجه الهجوم الصليبي إلى مدينة دمياط بقيادة (جان دي برين).

ووقعت بين الأقباط عندئذٍ حوادث تدلُّ على التحدي، والتواطؤ مع العدو.

ونحن نجتزئ بسَرْد الوقائع، ففي سردها ما يغني عن التعليق، وسنذكرها بقلم الكاتب الصليبي نفسه في ص١٦٦ قال :

«لما نزل (جان دي برين) على ساحل دمياط، واحتل المدينة، قلقت السلطات المصرية، وأخذ أولو الأمر يتساءلون :

عمَّا إذا كان نصارى مصر سيستقبلون الإفرنج بحفاوة، كما استقبلهم نصارىٰ الأرمن والسوريين.

وتساءلوا أيضاً :

هل من الحكمة أن يحولوا دون هذا التعاون الذي قد يؤدي إلى عواقب خطيرة بالنسبة إلى المسلمين؟».

يا عجباً! كيف لا تَحُولُ الحكومة دون هذا التعاون الشائن؟.

أكان الكاتب ينتظر من حكومةٍ تدافع عن البلاد أن تترك فرداً من السكان يساعد المغيرين؟.

يقول: «ومما زاد المشكلة تعقيداً أنه كان في دمياط نفسها عددٌ كبير من النصارى الملكيين».

وتسأل: ما الذي حدث في دمياط عند بدء الغزو؟.

يقول الكاتب في ص١٦٩:

«إننا نستطيع تقديم بعض التفاصيل عما حدث بفضل التقرير الذي وضعه (الكونت دي شامباني) عن هذه الحملة:

علمنا أنه بينما كان (لويس التاسع) يستعد لمحاصرة دمياط قام المسلمون بقتل جميع النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقةٍ ولا رحمة، وفي اليوم التالي وجد الصليبيون مدينة دمياط خاوية.

أما النصارى الذين فرُّوا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا إليها، وأعملوا سيوفهم في رقاب المسلمين الذين لم يساعدهم كبر سنِّهم أو مرضهم على اللحاق بالجيش الإسلامي المتقهقر.

فإنَّ هؤلاء النصارى خفُّوا إلى استقبال الصليبيين، الذين اعتبروهم كإخوتهم، وأشركوهم في موكب انتصارهم».

هذا هو التقرير الذي ترجمه الكاتب على عهدته، ومع أنه من مصدرٍ صليبي إلا أنه بيِّنُ الدلالة في موضوعه، ولا نلاحظ عليه إلا تناقضه.

فقد زعم أنَّ المسلمين قتلوا نصارى المدينة جميعاً.

ثم إذا أولئك النصارى يؤلِّفون جيشاً يعود فيقتل من بقي من المسلمين بالمدينة وهم العجزة والمرضى!!.

وهذا تلفيقٌ للحوادث قَصَد به تبرير الخيانة الفاضحة التي جعلت الأقباط ينضمُّون إلى الصليبيين في حملتهم على مصر.

ويظهر أنَّ وسائل إنجاح الحملات الصليبية لم تقتصر على المعونة العسكرية فحسب، فإن نقل الأخبار النافعة لهم، والتجسُّس لمصلحتهم أيسر على من يبغي مساعدتهم، فقد نقل الكاتب عن المؤرخ (ميشو) في كتابه (وثائق عن الحرب الصليبية) أنه جاء في رسالة أحد الصليبيين ما يلي، ص١٧٠:

«لدينا بعض المؤمنين الشرقيين الذين يمكن الاتكال عليهم.

فهم يعرفون البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وكذلك الأخطار التي قد تصادفنا فيها، وأنهم تلقّوا سِرَّ العماد بتقوى حقيقية».

والعبارة الأخيرة تحدِّد أنَّ أولئك الجواسيس نصارى شرقيون.

فإنَّ الكاثوليك يعتبرون اليعاقبة وأشباههم ملحدين، أو مسيحيين مزوَّرين.

وقد جاء في الكتاب الذي أرسله الصليبيون إلى (أوريانوس):

«لقد هزمنا الأتراك[1] والوثنيين، ولكنا لا نستطيع استعمال العنف مع الملحدين من الروم والأرمن والسوريان واليعاقبة.. تعالَ فحطِّم بنفوذك الذي لا مثيل له الإلحاد..»، ص١٦١.

وبديهي أنَّ الصليبية الغربية انتفعت من هذه الطوائف كلها في أعمال التجسس، وشؤون القتال، فلماذا يستعملون العنف ضدهم؟.

---

(١) كان أغلب جنود صلاح الدين ومن قبله نور الدين، الذين وقع على عاتقهم طرد الصليبيين من التركمان، بل كان نور الدين ووالده عماد الدين تركيان، فمن يذكر للأتراك هذه اليد البيضاء في عصر قلّ فيه الإنصاف والوفاء. (الناشر)

ومع ذلك فإنَّ طبيعـة النصرانية لم تفت أولئك الصليبيين المنتفعين من خيانات نصارى الشرق، فهم يستقدمون البابا ليحطِّم الإلحاد كلَّه.

أي ليحطِّم الأقباطَ والسِّريان والأرمن. . !!

وروىٰ الكاتب قصة جاسـوسٍ قبطي في القاهـرة، هو أبو الفضائـل ابن دوخان، وهو موظفٌ كبير في الحكومة المصرية ذكر عنه ابن النقاش:

«. . أنه كان يراسل الفرنج، ويخبرهم عمَّا يحدث عند المسلمين والحكام والأعيان، وكان مبعوثو الفرنج والنصارى يقتحمون مكتبه، فيستقبلهم بحفاوة، وينجز أعمالهم قبل غيرهم».

والنص المذكور ترجمه الكاتب عن المجلة الآسيوية الفرنسية.

* * *

وانتهت الحرب الصليبية على عكس ما بدأت به.

فقد أصيب الغزاة بانكساراتٍ ماحقة محت آثار الانتصارات الكبيرة التي أحرزوها أول أدوار القتال.

وظهر أنَّ المسلمين ـ برغم تمزُّق شملهم لفساد حكامهم ـ كانوا أعرق خُلقاً، وأعظم رقيّاً، وأنبل تقاليد من دول أوروبة كلها.

وأنهم استفاقوا على عَجَلٍ من رَوْعَة المفاجأة التي دَهَت بلادهم، وأحسنوا تخليصها من الأزمات التي عرتها.

فماذا كان موقفهم من خَوَنة الأمس عندما عادت المياه إلى مجاريها؟.

إننا لا نشكُّ في أنَّ هذه الحروب خلقت في النفوس حزازاتٍ قائمة.

وأنَّ الجراح التي أحدثتها في أفئدة المسلمين احتاجت في شفائها إلى أمدٍ طويل.

على أنَّ المسلمين لم يشنُّوا على النصارى في مصر والشام حملة انتقامٍ لما

فرط منهم، بل جنحوا ـ بعد أن نصرهم الله ـ إلى التغاضي عن هفوات الماضي!

ومما أعان على رأب الصدع أنَّ روح التسامح في المسلمين أصيلة، فهم بطيئو الغضب سريعو الرجوع.

وأنَّ الحكام ـ على اختلاف عصبياتهم ـ كانوا يعتبرون النصارىٰ واليهود جزءاً من رعاياهم.

وأنَّ رؤساء الطوائف المسيحية تجاوبوا مع الحكام المسلمين في إقرار الأمن وتلافي الفرقة.

وأنَّ عدداً كبيراً من النصارى المتوطِّنين يغبن إذا حُمِّل تبعات النزق الذي لجأ إليه الحاقدون على الإسلام والكارهون لسلامة أمته.

أجل فمن الظلم أن تؤاخَذ طائفةٌ بخيانة بعض بنيها.

على أنَّ الفئات التي عرفت بالتحامل على الإسلام، وانتهاز الفرص المواتية للنَّيْل منه قد شَلَّ تفكيرَها ما أصاب الصليبية الغربية من انكسارٍ ساحق:

فقبعت في مكانها لا تبدي حراكاً!!.

ويقول الكاتب في ص١٧٠: «من الغريب أن نرىٰ ـ بعد النكبة التي حلَّت بجيوش (لويس) التاسع عدداً من الصليبيين قد أربكهم الفزع، وبلبلَ أفكارهم، فأخذوا يشكُّون في إيمانهم.

ولمَّا خيَّروهم بين اعتناق الإسلام والموت، لم يتردَّدوا في اعتناق الإسلام».

ونحن لا نعرف القصة التي يشير إليها الكاتب، ولا يهمنا الآن تمحيصها، وإنما نذكر أنَّ جملة الأسباب التي سردناها، جعلت جمهور الأقباط ينجو من القصاص على حوادث الخيانة السالفة، ويعين على اعتبارها حوادث فردية منتهية.

ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

أما في أثناء نشوب القتال، وعندما تظاهرت الفتن الداخلية والهجمات

الخارجية ضد الإسلام، فقد أفلت زمام العامة، وانطلقوا في العاصمة والإسكندرية والأقاليم يدمِّرون الكنائس والأديرة.

ولكن الحكومة ضبطت الحالة، وضربت على أيدي العابثين بالنظام العام وحسناً فعلت.

وقد تكون جروحُ العامة قد اندملت على دَخَلٍ نظراً لما شاب نفوسهم من عدم الثقة!.

غير أنهم ظلُّوا هادئين مستكينين حتى وقعت في عهد المماليك عدة حوادث، بدا منها كأنَّ النصارى يتحدّون المسلمين ويتربَّصون بهم.

فاستطارت شرارة الفتنة، وكاد الأمر يفلت من أيدي المسؤولين.

وسنسرد تفاصيل هذا الشغب وبواعثه بعد الكلام عن الحملة الفرنسية على مصر.

موقف الأقباط من الاحتلال الفرنسي:

لم يكن المصريون ـ من مسلمين وأقباط ـ يدرون شيئاً عن عصر النهضة في أوروبة، كانت الثورات الحية تجرف التقاليد والخرافات في كلِّ ميدان، فتطوَّرَ العلم والفلسفة، وتطورت المجتمعات والحكومات، وانتقل العقل من إسار الكنيسة، وتمردت الشعوب على سلطات الفرد، وثبت الحياة العامة تقتحم آفاقاً جديدة في كل ناحية.

أما المسلمون ـ في ظل الحكم العثماني ـ فقد ضرب الاستبداد السياسي عليهم نطاقاً من الظلمات الكثيفة عزلهم عن العالم، وجعل عيونهم لا ترى أبعد من حدود بلادهم المتأخرة، وكان أقباط مصر ومسلموها في هذا القصور سواء.

فلما هجم (نابليون) بجيشه على مصر؛ رجع المسلمون والأقباط إلى ذكرياتهم الأولى.

فقاسوا اقتحام الإسكندرية باقتحام الصليبيين القدماء لدمياط، واستعدَّ الفريقان لاستقبال الغزاة الجدد.

المسلمون يتأهبون لحربٍ دينية طويلة المدىٰ.

والأقباط يستعدون لاستقبال زحفٍ نصراني بينه وبينهم وشائج لا تنكسر.

غير أنَّ سيرة القائد الأوروبي الطامح كانت مفاجأةً محيِّرةً للفريين معاً، فإنَّ (نابليون) سلك طريقاً يغاير تمام المغايرة مسلك القادة الأولين للحملات الصليبية، إنه دخل مصر مدَّعياً الإسلام، منوِّهاً بقيمته، متودِّداً إلى أهله!!.

ثم طلب من جنوده أن يعتبروا الإسلام ديناً كالنصرانية واليهودية، وهذا نوعٌ من الاعتراف كانت أوروبة تضنُّ به على المسلمين! وهي لم تعترف به في تاريخها الحديث إلا بعد ما اعترفت بالبوذية والبرهمية كأديانٍ كبيرة لها أتباعٌ يعدُّون بالملايين.

أما نابليون فقد خاطب جنوده قبل أن ينزل إلى البر قائلاً:

«إن الشعب الذي سنعيش معه يدين بالإسلام، وأول ما يؤمن به هو أنه لا إلـه إلا الله محمد رسول الله.

فلا تنازعوه في ذلك، بل عاملوا هؤلاء المسلمين كما عاملتم اليهود والإيطاليين، واحترموا رجال الدين كما احترمتم الحاخامات والمطارنة.

أظهِروا للمواسم الدينية والمساجد التسامحَ نفسه الذي أظهرتموه بإزاء الأديرة والمعابد، وبإزاء ديانة موسى والمسيح».

لكن كيف ينفِّذ الجنود هذه الوصية، وهم لا يعرفون عن المسلمين إلا أنهم كفارٌ تجب إبادتهم؟.

وتلك هي التعاليم التي انحدرت إليهم عن آبائهم الصليبيين.

يقول الكاتب ـ معلِّلاً انصياع الجنود لأوامر (بونابرت) ـ:

«لما كانت الثورة الفرنسية قد أبعدت الفرنسيين عن الديانة المسيحية، فقد اكتفى بونابرت بتوصية رجاله أن يُظهروا احترامهم للمسلمين!!»، ص٢٠٩.

فماذا كان يقع لو لم يجرف روح الثورة تعلُّق النصارى بدينهم؟.

كان المسلمون ـ بلاشك ـ سيتعرضون لمآسي دامية تشعلها نيران التعصب الصليبي القديم.

* * *

من حقِّ المرء أن يتساءل: ما كان دين (نابليون)؟.

إننا نجزم بأنه لم يكن نصرانياً، فإنَّ عبقرياً مثله أوتي عقلاً كبيراً ومواهب جليلة يستحيل أن يسيغ عقيدة التثليث أو يقبل مبدأ القربان.

ولو أنه بنىٰ حياته العقلية على إمكان أن يكون الثلاثة واحداً، أو الواحد ثلاثة ما انتصر في معركةٍ ضد أطفال.

بله معارك ضد أعتىٰ القوىٰ في العالم، أبدىٰ فيها من البراعة والذكاء ما خلَّد اسمه.

ذلك مع ملاحظة أنَّ نابليون من رجال الثورة التي اعتبرت طبقة رجال الدين مع طبقة الأشراف مسؤولةً عمَّا أصاب الشعب من ظلمٍ وفقر.

فكان غضب الثوار ينصبُّ على القصور والسجون والكنائس على أنها جميعاً شارة الرجعية البائدة والطغيان القديم، ولو كانت نقمة الثوار على النصرانية غضبةً مفاجئة، أو فورةً من فورات الرعاع الذين تموج بهم الطرق، لما رأينا فيها أكثر من عاطفةٍ حمقاء، هاجت ثم خمدت، فهل الأمر كذلك؟ لا.

إنَّ الحملة على النصرانية بدأت مع طلائع اليقظة الأوروبية، وقادها لفيفٌ من الكُتَّاب الأحرار، واتصلت هجماتها على سلطان الكنيسة حتى استطاعت ـ بعد مراحل شاقة ـ أن تصل إلى الحكم بإبعادها عن الحياة العامة، ولم ترضخ الكنيسة لهذا الحكم دون مقاومة، إنها ظلَّت تقاوم حتى خمدت أنفاسها.

وكان (بونابرت) يفخر بأنه أحد الرجال الذين اضطلعوا بهذا العمل الكبير وهو ينوِّه في نداءٍ وجَّهه إلى الشعب المصري:

«. . . بأنَّ الفرنسيين اقتحموا رومة الكبرىٰ، وضربوا فيها كرسي (البابا) الذي كان يحثُّ النصارى دائماً على محاربة الإسلام، ثم قصدوا إلى جزيرة مالطة، وطردوا منها فرسان ـ القديس يوحنا ـ الذين يزعمون أنَّ الله انتدبهم لمحاربة المسلمين».

والحقُّ أنَّ (نابليون) تودَّد إلى المسلمين طويلاً، وتحدَّث عن دينهم باحترام، وإن كان المسلمون في مصر رفضوا أن يصدِّقوا حرفاً مما قال.

والعبارات التي جَرَت على لسان هذا القائد ـ وهو يتحدَّث عن الإسلام ـ تبعث على التأمل.

إنه عندما تقدَّم إلى أسوار الإسكندرية قال لمسلمي مصر:

«لسنا من كفار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم لمحاربة إيمانكم، إننا نعترف بأنَّ إيمانكم رفيع القدر.

وسوف نعتنق دينكم إذا حلَّت الساعة التي يصبح فيها الفرنسيون الراشدون مؤمنين حقيقيين».

وكتب نابليون ـ بعد احتلاله القاهرة ـ إلى الجنرال (مارمون) في (٢٨) أغسطس سنة ١٧٩٨ يقول:

«قابِلْ مِنْ طَرَفي الشيخ (المسيري) وقل له: كيف احتفلنا بمولد النبي. قل له: إني في القاهرة أجتمع برؤساء القضاء، وكبار القوم ثلاث أو أربع مرات كل عشرة أيام، وإني أكثر الناس اقتناعاً بصفاء الديانة الإسلامية وقداستها».

وفي اليوم نفسه كتب إلى الشيخ المسيري مباشرةً يقول له:

«أرجو ألا يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقفة في البلاد، ووضع نظام ثابت، يرتكز على مبادئ القرآن الحقَّة الوحيدة التي تستطيع

إسعاد البشر دون سواها»[١].

على أنَّ المشايخ والأئمة لم تلن قلوبهم لهذه التصريحات، بل انتهزوا أول فرصةٍ لإعلان الثورة في الأزهر، والانطلاق في شوارع القاهرة لقتل كل فرنسيٍّ يصادفونه، فلم يرَ (نابليون) بداً من أن يصبَّ حمم مدافعه على المدينة الثائرة، وما زال بها حتى أسكتها.

هل كان نابليون منافقاً حقاً في ادعائه للإسلام؟.

إنَّ قراءات نابليون الكثيرة عن الشرق أثَّرت ـ لا ريب ـ في نزعته إلى افتتاحه، وإقامة ملكٍ عريض فيه!.

ودراسته لأحوال الشرق جعلته يتعرَّف إلى الإسلام، ويدرك طرفاً من حقيقته وأركانه[٢].

ونحن نستبعد أنه أسلم، وإنما نظنُّ أنَّ مثله من كبار الرجال الذين ظهروا في الغرب يميلون ـ بوحيٍ من فطرتهم وفكرتهم ـ إلى الإيمان بإلٰهٍ واحد يهيمن علىٰ هذا العالم، ويملك أزِمَّة أموره.

وهم يرفضون ـ بأنفة ـ ما في النصرانية من أقانيم وقرابين، ويرون من المهانة لعقولهم تصديقها...

هؤلاء الموحِّدون ليسوا نصارى.

ودعوة الإسلام لم تبلغهم على وجهٍ محترم حتى يؤمنوا بها كاملة.

فهم يصدِّقون بعقيدة التوحيد الناشئة عن تفكيرهم الخاص، وربما احترموا

---

(١) هذه النصوص ترجمها الكاتب عن الفرنسية وقد أثبتناها كما ترجمها مع إصلاحٍ لبعض التراكيب التي أخطأ في صوغها.

(٢) وذلك إبان إقامته في إستانبول مدرباً للجيش العثماني الجديد الذي أنشأه السلطان محمود الثاني، وكان هذا قبل قيادته للحملة على مصر. انظر (تاريخ الدولة العثمانية) للأمير شكيب أرسلان. (الناشر)

الرجل الذي يدعو الناس إليها.

أما الدخول في الإسلام نفسه فلا!!.

إذ كيف يدخلون في دينٍ ليست له أمةٌ تشرف على دعايته وتمثل رسالته؟؟.

وعندي أنَّ نابليون كان من هذا الصنف.

إنه ليس مسلماً، ولا نصرانياً.

بَيْد أنه يرى الإسلامَ أدنىٰ إلى طبيعته العقلية من النصرانية.

فلما قرَّر احتلال مصر لم يرَ حرجاً نفسياً في اعتناقه.

وعلى أية حال فهو لم يضطهد المسلمين لدينهم قدر ما اضطهدهم لمقاومتهم سياسته المرسومة وأطماعه الخاصة(١).

أما الأقباط فقد ظنُّوا ـ كالمسلمين ـ أنَّ نابليون يقود هجوماً صليبياً جديداً على مصر.

فلما هرعوا لاستقباله لم يكترث لهم! فما حاجته إليهم؟ وما حاجتهم إليه؟

وقد اغتاظ المسلمون من احتفاء الأقباط بالقائد الفاتح، ونشبت في بعض القرى ثوراتٌ قُتل فيها نفرٌ من الأقباط، فوعد (نابليون) أن يعاقب ـ بشدة ـ القرىٰ التي ارتكبت هذه الجرائم.

على أنَّ نابليون لم يرَ في مسلك الكثرة المسلمة مع القلة النصرانية ما ينطوي على حيفٍ أو تعصُّب أو اضطهاد من النوع الذي عرفه في (أوروبة).

بل على العكس لاحظ عند تنظيمه للإدارة والاقتصاد والميزانية أنَّ الأقباط كانوا يستغلون الحكام المسلمين، ويختلسون أموالاً جسيمة.

فقرَّر إقصاءَهم من وظائفهم بالتدرُّج على ما شرحناه قبلاً.

---

(١) انظر موقف نابليون من الإسلام والأزهر، كتاب محمد جلال كشك (ودخلت الخيل الأزهر)، ط. دار الزهراء القاهرة. (الناشر)

ومع ذلك فقد ظلَّ الأقباط متعلِّقين بالفرنسيين، راغبين في التعاون العسكري معهم ـ مع عزوف نابليون عن قبول هذا العون ـ حتى تولَّى (كليبر) القيادة بعد نابليون، **فأذن للأقباط أن يؤلِّفوا فرقتهم العسكرية لتنضمَّ إلى الجيش الفرنسي المجيد!!**.

ولنتتبع موقف مواطنينا الأقباط من الوثائق نفسها التي ذكرها الكاتب الصليبي النزيه!! قال في ص٢١٦:

«لما وصلت العمارة[١] الفرنسية إلى مياه الإسكندرية ظلَّ الفرنسيون ـ الأجانب ـ والأقباط موضع شك السلطات، وتعرَّضوا من جراء ذلك إلى أعمال السوء».

وهذا كذبٌ بالنسبة إلى الأقباط خاصة.

نعم إنَّ (مراد بك) هَمَّ بإيذاء الأقباط، متوقِّعاً أن ينضموا إلى الجيش الغازي غير أنَّ مشيريه رفضوا ذلك رفضاً باتاً.

وينقل (نقولا ترك) في هذا الشأن ما يلي:

«قال الوزير، وشيخ البلد إبراهيم بك: غير ممكن أن نسلم في هذا العزم والرأي، لأنَّ هؤلاء ـ يعني الأقباط ـ رعية مولانا السلطان صاحب العز والنصر والشأن.

وكان الوزير وشيخ البلد يرسلون إليهم كل يوم (سليم آغا) مستحفظان آغات الانكشارية يطمئنهم على محلاتهم وأرواحهم وأموالهم، ويطلق المناداة في البلد كله على حفظ الرعايا وعدم التعرُّض لهم»[٢].

وقال الكاتب في ص٢١٧:

«الملاحظ أنَّ (بونابرت) أرسل في طلب المعلم (جرجس الجوهري)

---

(١) العمارة: الحملة.

(٢) دوَّنها الكاتب من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة بالملك (فاروق) السابق.

ـ المباشِر العام للشؤون المالية ـ فجاء المعلم، وقدَّم إلى الجنرال الفرنسي أعيان الأقباط.

ومن الطبيعي أن ينتهز الأقباط هذه الفرصة ليقدموا الطاعة والخضوع للرجل الذي جلس على أنقاض المماليك، ورسخت قدمه في أنحاء البلاد.

وكان أعضاء الوفد يرتدون الكساوي ذات الأكمام المذهَّبة المزدانة بالوريدات الذهبية، وعلى رؤوسهم العمائم الكشمير، وأعربوا لبونابرت عن خالص ولائهم..».

قال الكاتب في ص٢١٨: «وقلق المسلمون لعمل الأقباط، مما دعا الجبرتي إلى اتهامهم صراحةً بالتعاون مع الفرنسيين».

ونحن نعجب لهذا الوفد المختال في ملابسه المزركشة!.

أهو ذاهبٌ إلى حفل عرس؟ أكان مسلك المسلمين معهم يتطلّب إظهار هذا الفرح كله في استقبال الفاتح المنتصر، وتشييع الدولة الإسلامية المُدْبرة؟؟.

أياً ما كان الأمر، فإنَّ عناصر المقاومة بين المسلمين ظلَّت تواصل جهادها المقدَّس لإرهاق المحتل، وتعكير صفوه.

وبرغم الخسائر المتلاحقة التي أنزلها الفرنسيون بالجيوش المنظَّمة، ثم بجموع الثوار المكافحة، فإنَّ المسلمين قرَّروا ألا يستسلموا.

ولقد ثاروا على (نابليون) فقمع ثورتهم.

وهاهو ذا (نابليون) تضطره أحوال فرنسة أن يغادر مستخلفاً (كليبر).

وظنَّ المكافحون أنهم يستطيعون مقاتلة القائد الجديد فأعلنوا عليه الثورة، إلا أنه ما لبث أن هزمهم، فاضطروا إلى طلب الأمان.

ويقول الكاتب[1] في ص٢١٨:

---

(١) نقلاً عن مذكرات نقولا ترك.

«لما طلب ثوَّار القاهرة الأمان لم يرَ (كليبر) مانعاً من منحهم إياه، ولكنه أثقل كاهلَ البلاد بالضرائب بعد ذلك.

ثم أرسل في طلب العلماء والأعيان، وألقىٰ فيهم خطبةً ملأها بالتهديد والوعيد، ووصفهم بالرجال الأشرار الجاحدين، وأخبرهم بفرض ضريبةٍ استثنائية على جميع السكان، ما عدا النصارى الذميين».

وذلك بداهةً، **لأنَّ النصارى الذميين حلفاء الاحتلال الفرنسي.**

فلماذا تُفرض عليهم ضريبة؟.

في هذه الظروف ألَّف الأقباط فرقتهم العسكرية لمعاونة الفرنسيين.

وقد اهتاجَ المسلمون لهذه الخيانة السافرة.

ويدلُّ وصف الجبرتي لأفرادها على غيظٍ دفين وغلٍّ مكين قال:

«إنَّ يعقوب القبطي لمَّا تظاهر مع الفرنساوية، وجعلوه ساري عسكر القبط، جمع شبَّان القبط، وحلق لحاهم، وزيَّاهم بزيٍّ مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزين عنهم بقبع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فرو سوداء من جلد الغنم في غاية البشاعة! مع ما يضاف إليها من قبح صورهم، وسواد أجسادهم، وزفارة أبدانهم، وبلغ أفراد الفرقة ثمانمئة.

وقد أنعم الفرنسيون على قائدها المدعو يعقوب بلقب (جنرال)!!.

ويعقوب هذا كان يشتغل مع المماليك، ونال من نعمائهم ما جعله صاحب ثروة ضخمة، أكسبته بين المصريين منزلةً حسنة.

فلما دخل الفرنسيون مصر، ومالأهم قومه، اشتغل هو الآخر لحسابهم».

يقول الكاتب في ص٢٢٢:

«ولما قدَّمه جرجس الجوهري إلى الجنرال (بوسيلنج) كتب الجنرال إلى بونابرت يقول له:

قال لي الجوهري: إنك لن تجد إنساناً أكثر منه غيرةً على مصالحنا، وإنه يضع رأسه بين يديك راجياً أن تأمر بقطعه، إن بدا من المعلم يعقوب أدنىٰ خيانة»!

أرأيت هذا التفاني المطلق في خدمة المحتل؟.

ويستطرد الكاتب في الكلام عن المعلم يعقوب:

«... ألقىٰ دواته المعلَّقة بزناره، واستلَّ سيفه من غمده، وخاض غمار معارك طاحنة، وعرَّض نفسه للهلاك أكثر من مئة مرة! هذا لأنه يعتبر نفسه جندياً من جنود بونابرت»، ص٢٢٣.

ضد مَن خاض هذه المعارك؟ ضد المسلمين الثائرين على الاحتلال الفرنسي.

وفي الصفحة نفسها يقول الكاتب: «ولما سافر (ديزيه) إلى فرنسة مع بونابرت استقر يعقوب بالقاهرة حيث كان يحيط الفرنسيين بمعلوماتٍ مفيدة.

فلما حوصر في ثورة القاهرة الثانية برهن على مهارته في الفنون الحربية، الشيء الذي جعله يطلب إلى (كليبر) السماح له بتجنيد فرقةٍ من الأقباط يتولّىٰ قيادتها..».

وقد رحل هذا اليعقوب الخائن في أعقاب الحملة الفاشلة إلى فرنسة، حيث لقي حتفه في عرض البحر ذاهباً إلى الجحيم.

وقيل: إنَّه صرَّح قبل وفاته لربان السفينة التي فرَّ عليها بأنه كان يبغي بسيرته السالفة تحقيق استقلال مصر!.

وقد روَّج الكاتب الصليبي لهذا الهذر، يحسب أنه يرفع به خسيسةَ خائنٍ قذر، إنه ـ فعلاً ـ كان يريد قطع صلة مصر بالدولة العثمانية ليلحقها بفرنسة[1]!.

وهو ومَنْ شايعوه إنما تحمَّسوا لهذه النذالة من غليان أحقادهم على الإسلام

---

(١) وهذا ما أراده أيضاً رواد النهضة العربية المزعومة. (الناشر)

ومقتهم العنيف لأمته ودولته، مهما أسدى إليهم من أيادٍ، وأغدق عليهم من نِعَم.

إنها النزعة الصليبية الخبيثة هي التي جعلت هذا المخلوق يجحد مواساة المسلمين له وبرَّهم به.

وهي التي جعلت (سلامه موسى) يكتب عدة مقالات في جريدة مصر القبطية يمجِّد فيها أعمال الجنرال يعقوب.

أجل، يمجِّد هذه الأعمال، التي سَرَدْناها لك من فم كاثوليكي متعصِّب شديد البغضاء للإسلام.

فإذا هي جملة سفاهات تنطق بأنَّ فاعلها ماتت في دمه نوازع الشرف كلها.

إنَّ الكاتب الصليبي يستشعر الوجل من هذه التصرفات التي ارتكبها الأقباط على عهد الاحتلال الفرنسي.

وهو ـ لكي يبررها ـ يريد إيهامنا بأنَّ الأقباط وقع عليهم اضطهادٌ سابق فلا يستغرب منهم أن يثأروا لأنفسهم.

وقد أخفق في ذكر حادثةٍ واحدة تشهد بأنَّ المسلمين آذوا الأقباط إيماناً واحتساباً كما فعل النصارى بعضهم مع البعض الآخر في أوروبة نفسها.

ولا أدلَّ على ذلك من أنَّ الفرنسيين دخلوا مصر، ودخلوا إسبانية في أيامٍ متقاربة.

فماذا وجدوا في مصر المسلمة، وماذا وجدوا في أسبانية الكاثوليكية؟.

إننا نتحف الكاتب الكاثوليكي بهذا التقرير[١] ليرى أنه في الوقت الذي كان المسلمون يسندون الوظائف العالية لمخالفيهم في الدين، كان قومه يخترعون المهلكات لمخالفيهم في الدين.

وفي الوقت الذي داس الفرنسيون فيه الجامع الأزهر، وفيه علماءُ يصفون

(١) ترجمة الدكتور علي مظهر في كتابه (محاكم التفتيش).

الأقباط بأنهم أهل ذمة، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كان الفرنسيون يدخلون كنائس إسبانية باحثين عن وسائل التعذيب التي أعدَّها القساوسة الرحماء للتنكيل بالعزَّل المستضعفين ممن اتُّهِموا بعداوة المسيح.

وإليك ما كتبه (الكولونيل ليمونكي) أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانية قال:

كنت سنة ١٨٠٩م ملحقاً بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانية، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتلَّ (مدريد) ـ العاصمة ـ.

وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسوماً سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

غير أنَّ هذا الأمر أُهمل العلم به للحالة الحربية، والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ.

وصمَّم رهبان (الجزويت) ـ أصحاب الديوان الملغى ـ على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم، انتقاماً من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلو لهم الجو..

وبينما أسير في إحدى الليالي، أجتاز شارعاً يقلُّ المرور فيه من شوارع مدريد إذا اثنان مسلَّحان قد هجما عليَّ، يبغيان قتلي، فدافعت عن حياتي دفاعاً شديداً، ولم ينجني من فتكهما إلا قدوم سريةٍ من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة.

وهي كوكبةٌ من فرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليلَ ساهرةً على حفظ النظام.

فما إنْ شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبيَّن لنا من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش.

فأسرعت إلى (المريشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ، فثار غضبه، وقال:

«لا شكَّ بأنَّ من يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، ولا بدَّ من معاقبتهم وتنفيذ حكم الإمبراطور بحلِّ ديوانهم.

والآن خذ معك ألف جندي وأربعة مدافع، وهاجِم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة، ولنقتصَّ منهم بمحاكمتهم أمام مجلسٍ عسكري.

وفي الرابعة صباحاً ركبت على رأس تلك الحملة، ثم قصدنا إلى دير الديوان، وهو على مسافة خمسة أميال من (مدريد).

فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بديرهم، والمدافع تصوِّب إليه فوهاتها.

وكان هذا الدير عبارةً عن بناءٍ ضخم أشبه بقلعةٍ حصينة، وأسواره العالية تحرسها فرقةٌ من الجنود اليسوعيين.

فتقدمت إلى باب الدير، وخاطبت الحارس الواقف على السور، وأمرته ـ باسم الإمبراطور ـ أن يفتح الباب.

وظهر لي أنَّ الحارس التفت نحو الداخل، وكلَّم أشخاصاً لا نراهم.

ولما انتهىٰ من حديثه عاد وأخذ بندقيته، وأطلق علينا الرصاص، ثم انهال علينا الرصاص من كل جهة، فقتل بعض رجالي وجرح آخرون.

ولكني أمرت جنودي أن يقتحموا الدير عنوةً، واعتبرت إطلاق الرصاص من الجزويت علامة رفض، وأنهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة.

وأخذنا نطلق المدافع على أسوار الدير وعلى الباب الموصد.

واستخدم جنودنا ألواح الخشب السميك تقيهم رصاص الحرس الذي كان ينهمر علينا كالمطر الغزير.

وبعد نصف ساعة استطعنا فتح ثغرةٍ واسعة في الحائط، نفذ منها الجيش إلى داخل الدير، وكنت مع بعض زملائي طليعة الداخلين.

وأسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحِّبين بنا! ووجوههم باشّة!.

وهم يستفهمون عن سبب قدومنا على هذا النحو، وكأنْ لم يَدُر بيننا قتالٌ، ولم تنشب معركة.

ثم استداروا إلى جنودهم، وانهالوا عليهم تعنيفاً وتأديباً وقالوا:

إنَّ الفرنسيين أصدقاؤنا فمرحباً بهم.

على أنَّ هذا النفاق الخبيث لم ينطلِ علينا، فأصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعاً، وعلى حنودهم الحرَّاس، توطئةً لتقديمهم إلى مجلسٍ عسكري.

ثم أخذنا نبحث عن قاعات التعذيب المشهورة، وطفنا بغرف الدير، فراعنا ما بها من أثاثٍ فاخر، ورياش وكراسي هزازة! وسجاجيد فارسية ثمينة، وصور نادرة ومكاتب كبيرة.

وقد صنعت أرض هذه الغرف من خشب المغنى المصقول المدهون بالشمع.

وكان شذا العطور يعبق في أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة التي لا يسكنها إلا ملوكٌ قَصَروا حياتهم على الترف واللهو.

وعلمنا بعدُ أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمعٍ يوقد دائماً أمام صور الرهبان، ويظهر أنَّ الشمع قد خُلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سُدًى ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب.

إننا فحصنا غرف الدير وممراته وأقبيته كلها، ولم نجد شيئاً يدلُّ عليها.

فعزمنا على الخروج يائسين من اكتشاف بغيتنا، مقتنعين بتقديم أولئك الرهبان إلى المجلس العسكري.

وكانوا في أثناء بحثنا يقسمون ويؤكِّدون أن ما شاع عنهم وعن ديرهم ليس إلا تهماً باطلة، وأنهم يحتملون هذه الأكاذيب في سبيل الله.

وأنشأ زعيمهم يؤكِّد لنا براءته، وبراءة أتباعه بصوتٍ خافت، وهو خاشع

الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدمع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير.

لكن (اللفتنانت دي ليل) استمهلني قائلاً: «أيسمح لي الكولونيل أن أخبره بأنَّ مهمتنا لم تنته حتى الآن؟».

قلت له: قد فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئاً مريباً به ففيم ترغب؟.

قال: إني أرغب في فحص أرضية هذه الغرف، وأدقِّق في امتحانها، فإنَّ قلبي يحدثني بأنَّ السرَّ تحتها.

وعند ذلك نظر الرهبان إلى بعضهم نظراتٍ قلقة، وأذنت للضابط بالبحث.

فأمر الجنود برفع الأبسطة، فرُفعت، ثم أمر بأن يصبُّوا الماء بكثرةٍ في أرض كلِّ غرفةٍ على حدة ففعلوا.

وكنا نرقب الماء، فإذا الأرض تبتلعه في إحدى الغرف، ويتسرب إلى أسفل.

فصفَّق الضابط (دي ليل) من شدة فرحه، وقال: هو ذا الباب! انظروا فنظرنا فإذا الباب قد انكشف، وهو قطعةٌ من أرض الغرفة يُفتح بطريقةٍ ماكرة بواسطة حلقةٍ صغيرة وُضِعت إلى جوار رجل مكتب الرئيس.

وأخذ الجنود يكسرون الباب المسحور بقحوف البنادق.

والتفَّت فرقةٌ من الجنود حول عصابة الرهبان الذين اصفرَّت وجوههم وكستها غَبَرة.

وفتح الباب، وظهر لنا سُلَّمٌ يؤدي إلى باطن الأرض.

فأسرعتُ إلى شمعةٍ كبيرة يزيد طولها على متر كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين.

ولما هممت بالنزول وضع راهبٌ يسوعي يده على كتفي متلطفاً، وقال لي:

يا بني، لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوَّثة بدم القتال لأنها شمعةٌ مقدَّسة.

فقلت له: ياهذا إنه لا يليق بيدي أن تتنجَّس بلمس شمعتكم الملطَّخة بدم الأبرياء، وسنرىٰ من النجس فينا؟ ومن القاتل السفَّاك؟.

وهبطت على درج السلم، يتبعني سائر الضباط والجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج.

فإذا نحن في غرفةٍ كبيرة مربعة، هي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمودٌ من الرخام، به حلقةٌ حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيَّد بها رهن المحاكمة.

وأمام ذلك العمود عرش (الدينونة) كما يسمُّونه، وهو عبارةٌ عن دكة عالية يجلس عليها رئيس الديوان، وإلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعاً معدَّةٌ لجلوس جماعة القضاة.

ثم توجَّهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجساد البشرية، وقد امتدت تلك الغرف مسافاتٍ كبيرة تحت الأرض، وقد رأيت فيها ما يستفزُّ نفسي، ويدعوني إلى التقزّز ما حييت.

رأينا غرفاً صغيرة في حجم الإنسان بعضها عمودي وبعضها أفقي.

فيبقى سجين العمودية واقفاً بها على رجليه مدة سجنه حتى يُقضىٰ عليه.

ويبقى سجين الأفقية ممدَّداً بها حتى يموت.

وتبقى الجثة في السجن الضيّق حتى تبلىٰ، ويتساقط اللحم عن العظم.

ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوةٌ صغيرة إلى الخارج.

وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والسجناء كانوا رجالاً ونساءً تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين.

واستطعنا فكاك بعض السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم، وهم على آخر رمقٍ من الحياة.

وكان فيهم من جُنَّ لكثرة ما لاقىٰ من عذاب، وكان السجناء عرايا زيادةً في النكاية بهم، حتى اضطر جنودنا أن يخلعوا أرديتهم، ويستروا بها لفيفاً من النساء السجينات.

وقدَّمنا السجناء إلى النور تدريجياً، لئلا يؤثِّر النور المفاجئ على أبصارهم.

وكانوا يبكون فرحاً وهم يقبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهُم من العذاب، وأعادوهم إلى الحياة.

وانتقلنا إلى غرفٍ أخرى، فرأينا هناك ما تقشعرُّ لهوله الأبدان، وعثرنا على آلاتٍ لتكسير العظام، وسحق الجسم.

وكانوا يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المهشَّم، فيخرج من الجانب الآخر كتلةً واحدة.

وعثرنا على صندوقٍ في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس المعذَّب، بعد أن يُربَط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجليه فلا يقوىٰ على حركة.

وتقطر على رأسه من ثقبٍ في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظامٍ في كلِّ دقيقةٍ نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يُحمَلوا به على الاعتراف، ويبقىٰ المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وعثرنا على آلةٍ ثالثة للتعذيب تسمَّىٰ (السيدة الجميلة)، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة فتاة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة.

وكانوا يطرحون الشابَّ المعذَّب فوق هذه الصورة، ثم يطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وخناجره، فإذا أُغلق مزَّق جسم الشاب وتقطَّع إرْباً إرْباً.

كما عثرنا على جملة آلات لسلّ اللسان، ولتمزيق أثداء النساء، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذَّبين

وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظام.

وصل خبر الهجوم على (دير ديوان التفتيش) إلى مدريد، فهبَّ الألوف ليروا ما حدث.

وخُيِّل ـ إلينا من شدة الزحام ـ أننا في يوم القيامة.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب وآلاته الجهنمية جُنَّ جنونهم، وانطلقوا ـ كمن به مسّ ـ فأمسكوا برئيس اليسوعيين، ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقَّت عظامه دقاً وسحقتها سحقاً.

وأمسكوا كاتم سرِّه، وزفُّوه إلى السيدة الجميلة، وأطبقوا عليهما الأبواب، فمزَّقته السكاكين شرَّ ممزَّق.

ثم أخرجوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك.

ولم تمضِ نصف ساعة حتى قضىٰ الشعب على حياة ثلاثة عشر راهباً، ثم أخذ ينهب ما بالدير.

وقد عثرنا على أسماء ألوف الأغنياء في سجلات الديوان السرية، وهم الذين قضىٰ الرهبان بقتلهم كي يبتزُّوا أموالهم، أو يضطروهم إلى كتابة إقراراتٍ تحوِّل ثرواتهم إلى اليسوعيين.

ويمكنني أن أقول: بأنَّ ذلك اليوم هو أعظم يومٍ شهدته بعد هدم (الباستيل).

هذه حلقةٌ اكتُشِفَت من سلسلةٍ يمتدُّ طرفها مع الماضي السحيق، تشهد بمأساة التاريخ الكنسي من أهوالٍ وأنكال.

وبهذه الوسائل أصبحت (الكاثوليكية) هي الدين الوحيد في إسبانية[1].

وعندما ساق (نابليون) جيوشه إلى إسبانية هذه، ووجد من المضطهدين بها من يستبشر بمقدمه، لم يكن هناك محلٌّ للاتهام بالخيانة أو الجحود.

---

(١) انظر أبيات شوقي، ص١١٣.

أما في مصـر حيث يعيش الأقباط في أكنـاف كثرةٍ تحنو عليهم، وتـرى المحافظة على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ذمةً تُسأل أمام الله عن الوفاء بها.

أما في مصر حيث لاحَرَج على يهوديٍّ أو نصراني أن يعبد ربَّه على طريقته، ويتردد ما شاء على كنيسته، فما معنى الانضمام إلى الجيوش الغازية وتكوين الفرق لمعاونتها؟.

إن الكاتب الكاثوليكي لا يستحيي ـ وهو يعرف تاريخ كنيسته ـ من أن يزعم أنَّ نابليون لمَّا جاء مصر منح الأقباط حريتهم الدينية (كذا).

إي وربِّي كذلك يزعم الأفَّاك!! فماذا صنع للأقباط نابليون؟.

وجدهم في وظائف الدولة الإسلامية يغتالون مالها فأمر بفصلهم.

وكان المسلمون ـ لفرط ثقتهم ـ لا يشعرون بذلك.

وجدَ الكنائس فوق الحاجة فما شاد كنيسةً جديدة.

فلمَّا أحسَّ بأنهم ينضمُّون إليه بطراً وتعصُّباً لما يتوهَّمون فيه من تمسُّكٍ بالنصرانية قبض يده عنهم، حتى إذا تحرَّجت حالته وأحوال خلفائه قَبِلَ منهم العون.

وما كان الفرنسيون ـ وهم الغربـاء المحصورون ـ يزهدون في خيانـة الخائنين.. وقد اشترط الفرنسيون عند رحيلهم من مصر ألاَّ يؤذىٰ من ساعدهم مدة احتلالهم لها.

ولكن الشعب ـ كما يقول الكاتب في ص٢٢٥ ـ: «أرهق الفرنسيين في أثناء انسحابهم! ثم وجَّه غضبه إلى النصارى!.

وهكذا لم تفلح الإجراءات التي اتخذها رجال الشرطة، ولا تصريحات الوالي في التخفيف من نار الانتقام المتأججة في قلوب الشعب إلا بعد مضيٍّ وقتٍ طويل».

لا.. إنَّ الشعب المسلم نسي بعد وقتٍ قصير.

لأنه ـ بطبيعته اللينة ـ يقبل الكثير، ويعفو عن الخطير.

نحن نؤكِّد أنَّ القلة القبطية التي فعلت ذلك مع المسلمين، لو كانت قلةً مسلمة مع النصارى في إنكلترة أو فرنسة أو إيطالية، ثم ارتكبت هذه الخيانة لأبيدت عن بكرة أبيها.

بل إنَّ هذه القلَّة المسلمة كانت ستباد ولو لم تقترف إثماً، وحسبها من إثمٍ أنها مسلمة.

أليس ذلك ما كان في سالف الزمان[1]؟.

* * *

---

(١) بل والآن، والدليل شاهد في البلقان، وبلاد الشيشان، وفلسطين والفلبين... إلخ. (الناشر)

بين ملوك النصرانية وممالك الإسلام

في نفوس أمم (أوروبة) عقدٌ مستحكمة ضد الحكم الديني، ولهم في كراهيته عذرٌ مبين، وليس للحكم الديني في (أوروبة) رجالٌ ينشدون عودته ويحبّذون دولته . . . فإنَّ مآثمه الشائعة هنالك تردُّ أصفقَ الوجوه عن المطالبة به.

وللكنيسة ـ مذ حكمت ـ تاريخٌ يجرُّ وراءه أثقالاً من الكوارث اعتبرت لازمةً لسيطرتها، فلا غرو إذا استراح القوم من حكمها وكوارثها . .

وقد لاحظنا أنَّ الناقمين على الإسلام، الراغبين في إزالته من الوجود ـ ديناً ودولة ـ حريصون على تشبيه الإسلام بالنصرانية، مولعون بعقد مقارناتٍ بين تاريخه وتاريخها، فإذا صدمتهم الحقائق القائمة، فرُّوا إلى الادعاء العريض.

ولما كان أبرز ما في المسيحية الحاكمة تعصبها المرّ ضدَّ المخالفين لها في الأصول والفروع، ولجوءها إلى الحديد والنار في حلِّ مشاكلها التافهة، وتبريرها القسوة الهائلة في فرض معتقداتها وآرائها . .

فإنَّ المتحاملين على الإسلام أرادوا استخراج مثل هذه المواقف المخزية من تاريخه، فأعيتهم الحِيَل، واستوعرت السبل، فماذا يصنعون؟ .

لا شيء إلا الكذب والتحريف والتضليل . .

ولا بأس عليهم إذا عثروا على الإساءة الصغيرة، أن يضعوا لها عنوان المذبحة الكبرى!! ليكون من ذلك وجه شَبَه بين الحكم الإسلامي العف، وبين الحكم النصراني المفعم بالمذابح . .

ومن هذا القبيل ما أفرد له الكاتب الصليبي باباً خاصاً بعنوان:

«كارثة النصرانية في عهد المماليك» .

ونحن نرحِّب بهذه التهمة، لأنها ستجعلنا نفنِّد الضلالات، ونعقد المقارنات، ثم نخرج بالنتائج التي تبيضُّ لها وجوهٌ، وتسوَّد لها وجوه . .

وقبل أن نسرد الوقائع ـ وهي قريبةٌ من متناول اليد ـ نؤكِّد للقارئ أنَّ الفرق بين تاريخ الديانتين كالفرق بين حقيقتيهما .

فالتوحيد شيءٌ آخر غير التثليث، والتسامح شيءٌ آخر غير الاضطهاد .

وما دام الكاتب قد تكلَّم عن كارثةٍ للنصرانية في عهد الإسلام ـ أي عن كارثةٍ للأقليات في عهد حكومته ـ فلنتكلم نحن عن كوارث الأقليات المسيحية في عهد المسيحيين أنفسهم، ولنقارن بين أرضٍ وسماء، بين حكم المماليك في النصارى ـ وهو المعدود أسوأ عهدٍ في تاريخنا ـ وبين حكم الملوك الأحرار والبابوات الكبار من رجال النصرانية .

ولن نعتبر هذه الكوارث، التي اقترفها رجال النصرانية من وحي أنفسهم، بل من وحي كتبهم التي بين أيديهم .

يقول الدكتور توفيق الطويل :

«لكنَّ الذين حمَّلوا الأناجيل نصيبها في تبعة الاضطهاد الديني يقولون : إنَّ أتباع الاضطهاد من أمثال القديس (أوغسطين) قد استندوا إلى آياتٍ وردت في الإنجيل، كقول المسيح لحوارييه :

«أجبروهم على اعتناق دينكم» أو لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض، ما جئت لألقي سلاماً، بل سيفاً، فإني جئت لأفرق الإنسان من أبيه، والابنة من أمها، والكنّة من حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته» .

هذه الكلمات هي التي حكمت تاريخ النصرانية، وصبغته ـ من بدايته إلى نهايته ـ بالدم العبيط . .

أما «من ضربك على خدِّك الأيمن فأدر له الأيسر» فكلامٌ لم يعرفه المسيحيون

مع أنفسهم يوماً، ولا مع أعدائهم ساعة . .

وإليك هذه الصفحة من تاريخ النصرانية السمح(!) :

«أراد (شارل التاسع) سنة ١٥٧٤م أن ينشر الأمن في ربوع البلاد، فهادنَ (الهوجونوث) وأدنى زعماءهم من حضرته، وتوّج هذه الحركة بالرغبة في تزويج أخته من زعيم لهم، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك.

وفي ليلة الزفاف أقبلت جموع (الهوجونوث) تَتْرىٰ إلى باريس، فأطلق الرصاص على زعيمهم، وعندئذٍ وطّد عزمه على التنكيل بمن حاول اغتياله.

وخشي (الكاثوليك) مغبّة ذلك، فعقدوا النية على أن يجعلوا عيد القديس (بارثلميو) في (٢٤) أغسطس سنة ١٥٧٢م مذبحةً يبيدون فيها خصومهم.

وفي منتصف الليل دقّ ناقوس كنيسة (سان جرمان) مؤذناً ببدء المذبحة.

فإذا أشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقضُّ على بيوت (الهوجونوث) والفنادق التي آوتهم، وتأتي على من بها ذبحاً.

فلما أصبح الصباح، كانت شوارع باريس تجري بدماء ألفين من النفوس.

وتطايرت أنباء المذبحة المروعة إلى الأقاليم، فإذا هي تستحيل ـ بدورها ـ مجزرةً تجري بدماء ثمانية آلاف من هؤلاء المساكين.

بل قيل: إنَّ هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفاً.

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوروبة المسيحية الكاثوليكية كلها، فكاد (فيليب الثاني) يجنُّ من فرط الفرح عندما بلغته أنباؤها، وانهالت التهاني على (شارل التاسع) بغير حساب!.

وكاد البابا (جريجوري الثالث عشر) يطير من السرور.

حتى إنه أمر بسكِّ أوسمةٍ لتخليد ذكراها توزَّع على وجوه الشعب وأعيانه.

وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته، وإلى جانبه ملكٌ يضرب بسيفه أعناق الملحدين.

وكتب على هذه الأوسمة «إعدام الملحدين».

وأمر البابا ـ إلى جانب هذا ـ بإطلاق المدافع، وإقامة القداس في شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذبحة على حوائط الفاتيكان، وأرسل تهنئته الخاصة إلى (شارل)[1].

هذه هي أنباء مجزرة (سان بارثلميو) التي فتك فيها الكاثوليك بإخوانهم البروتستانت.

والكاثوليك لم يفعلوا ذلك في ساعة طيشٍ يندم المرء بعدها على خطيئته!

بل فعلوا ذلك نزولاً على الكلمات التي دوَّنها (متى) في إنجيله، ونقلناها لك آنفاً. وتمشياً مع السير المتوحشة التي سجلها العهد القديم نفسه لأنبيائهم، في الحروب التي شنُّوها على أعدائهم.

إنَّ العهد القديم يوصي بحرب الإبادة، والإبادة التي لا تبقي في ديار الأعداء إنساناً ولا حيواناً.

والنصارىٰ الذين حكموا ونفذوا هذه الوصايا بدقة، واستوحوا منها مسالكهم تجاه خصومهم في العقيدة أو في الرأي.

إنهم يسفكون هذه الدماء، لا على أنها جرائم، بل علىٰ أنها قرباتٌ يطلبون بها رضوان الرب.

إنهم يعتصرون أعناق الضحايا كما يبدؤون في إقامة صلاةٍ سواءً بسواء.

في الإصحاح السادس من (سفر يشوع): «وكان في المرة السابعة، عندما ضرب الكهنة بالأبواق، أن يشوع قال للشعب: اهتفوا، لأنَّ الرب قد أعطاكم المدينة[2]، فتكون المدينة وكل ما فيها محرماً للرب...

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) أريحا.

وكان حين سمع الشعب صوت البوق أنَّ الشعب هتف هتافاً عظيماً، فسقط السور في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجلٍ مع وجهه.

وأخذوا المدينة، وحرموا[1] كلّ ما في المدينة من رجل، وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير، بحدِّ السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها».

وفي الإصحاح الثامن: «فقال الرب ليشوع: مد المزراق الذي بيدك نحو (عاي) لأني بيدك أدفعه!.

فمدَّ يشوع المزراق الذي بيده نحو المدينة.

فقام الكمين بسرعةٍ من مكانه، وركضوا عندما مدَّ يده، ودخلوا المدينة وأخذوها، وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار.

ولما رأىٰ يشوع وجميع إسرائيل أنَّ الكمين قد أخذ المدينة، وأنَّ دخان المدينة قد صعد، انثنوا وضربوا رجال (عاي).

وهؤلاء خرجوا من المدينة للقائهم، فكانوا في وسط إسرائيل، هؤلاء من هنا، وأولئك من هناك، وضربوهم، حتى لم يبقَ منهم شاردٌ ولا منفلت.

وأما ملك (عاي) فأمسكوه حياً، وتقدَّموا به إلى يشوع.

وكان لما انتهىٰ إسرائيل من قتل جميع سكان (عاي) في الحقل، في البرية حيث لحقوهم، وسقطوا جميعاً بحدِّ السيف حتىٰ فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى (عاي) وضربوها بحدِّ السيف.

فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجالٍ ونساء اثني عشر ألفاً، جميع أهل (عاي).

وفي الإصحاح العاشر: «ثم اجتاز يشوع، وكل إسرائيل معه، من (لخيشا)

---

(١) قتلوا.

إلى (عجلونا) فنزلوا عليها وحاربوها، وأخذوها في ذلك اليوم، وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها في ذلك اليوم . .

فضرب يشوع كل أرض الجبل! والجنوب والسهل، والسفوح، وكل ملوكها، لم يبقِ شارداً، بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إلـٰه إسرائيل».

وفي الإصحاح الحادي عشر: «. . . ثم رجع يشوع في ذلك الوقت، وأخذ (حاصور) وضرب ملكها بالسيف، لأنَّ (حاصور) كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك، وضربوا كلَّ نفسٍ بها بحدِّ السيف، حرموهم، ولم تبقَ نسمة، وأحرق (حاصور) بالنار.

فأخذ (يشوع) كل مدن أولئك الملوك، وجميع ملوكها، وضربهم بحد السيف، حرمهم كما أمر موسى عبد الرب.

. . . لم تكن مدينةٌ صالحت بني إسرائيل إلا (الحويين) سكان (جبعون)، بل أخذوا الجميع بالحرب، لأنه كان من قبل الرب أن يشدد قلوبهم، حتى يلاقوا إسرائيل للمحاربة، فيحرموا، فلا تكون عليهم رأفةٌ بل يبادوا، كما أمر الرب موسى».

أرأيت معالم حرب الإبادة كما تصفها الكتب المقدسة لدىٰ القوم؟.

أرأيت عاطفةً تنضح بالرحمة وسط هذه المجازر المتعاقبة؟.

أعرفت ما هو الأصل الذي انبثقت عنه مذبحة (سان بارثلميو) التي كاد يطير البابا من الفرح لأنبائها؟.

إنَّ هذه التعاليم الإلـٰهية في نظر اليهود والنصارىٰ هي أساس الصلات بين المؤمنين وخصومهم. هي التدمير الذي يسقط جثة الأب، إلى جوار ولده، إلى جوار امرأته . . ثم يهدم البيت فوق الجميع.

هذه هي المبادئ والأسس التي يصدر عنها رجالٌ لا يستحيون من اتهام الإسلام بأنه انتشر بالسيف ولا ملامة!!.

فالحقود الذي يتشهّى سفك الدماء لا يُستكثر عليه الافتراء.

إنهم إن كانوا كثرةً أبادوا خصومهم، وإن كانوا قلةً مكروا وتربَّصوا وجحدوا، ثم لا يعوز أحدهم الوجه الصفيق الذي يتهم به الإسلام بأنه قام على السيف!.

ولقد قرأت تاريخ الفتوح وسير النبي ﷺ وخلفائه رضي الله عنهم، فهل ترى مكاناً لمقارنةٍ بين وحوش وملائك[1]؟؟.

لقد نعى القرآن على الكتاب السابقين هذا التوحش في مسالكهم، فقال لليهود:

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال عن النصارى:

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ﴾ [المائدة: ١٤].

وقد هبَّت على حضارات العالم كلها سمومٌ محرقة من لفح هذه العداوات والأحقاد.

فما نجت حضارة أوروبة الأخيرة إلا عندما طردت رجال الكنائس وألجأتهم إلى جحورهم لا يخرجون منها.

حتى إذا اختفوا من الحياة العامة بدأت النهضة الكبرى تنتعش في كل ميدان.

---

(١) قارن ما مرَّ بصنيع النبيِّ ﷺ بأعدائه عندما فتح مكة، قال لهم: «ما تظنُّون أنّي فاعلٌ بكم؟» قالوا: أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وما أعلنه قبل فتح مكة من أنَّ مَنْ دخل المسجد فهو آمن، ومَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن». انظر (فقه السيرة) للمؤلف، ص٣٧٩. (الناشر)

ولنعد إلى مناقشة الكاتب فيما أراد أن يَصِمَ به الحكم الإسلامي تحت العنوان المثير الذي اختاره: «كارثة النصرانية في عهد السلاطين المماليك».

قال في ص ١٨٠: «كان عام ٧٢٠هـ خراباً على الأقباط، ولم يعرف ما حدث بالضبط، ولكن بمجرد إشارة اعتدى الشعب على الأقباط في جميع أنحاء البلاد».

ثم نقل عن المقريزي إحدى عشرة صفحة كبيرة ملئت بتفاصيل الحوادث التي وقعت في هذا العام، والتي انتهت بتدمير (٥٤) كنيسة عدا المساجد التي أحرقت ـ وقتل عدد كبير من الناس، مسلمين وأقباطاً . . .

ونحن سنتناول أطراف الموضوع كلها، ونكشف ما اكتنف هذه الفتنة أولاً وآخراً من وقائع وملابسات، لنرى أكان الذي حدث عدواناً على النصرانية أم ردَّ عدوانٍ على الإسلام؟.

وسنعتمد في هذا على الأحداث نفسها التي نقلها الكاتب، واعترف بصحتها، ولن نزيد عليها من مراجعنا جديداً.

نقل الكاتب قصصاً تصوِّر حال الأقباط في عهد المماليك من رواية المقريزي، والقصص المذكورة تكشف عن لون المعيشة التي ينعمون بها، وأسلوب المعاملة الذي يواجهون المسلمين به فمما نقله في ص١٧٥:

قال: «كان قد كثر الحريق بالقاهرة ومصر في مدة سفر (السلطان بيبرس) وأشيع أنَّ ذلك كان من النصارى، ونزل بالناس من الحريق ـ بكلِّ مكانٍ ـ شدةٌ عظيمة، ووجد في بعض المواضع التي احترقت نفط وكبريت.

فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم، وأمر بإحراقهم.

فجمع منهم عالمٌ عظيم في القلعة، وأحضرت الأحطاب والحَلفا، وأمر بإلقائهم في النار. فلاذوا بعفوه، وسألوا المن عليهم.

وتقدم الأمير (فارس الدين أقطاي) أتابك العساكر فشفع فيهم، على أن

يلتزموا بالأموال التي احترقت، وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار.

فأفرج عنهم السلطان، وتولّىٰ البطرك توزيع المال، والتزموا ألا يعودوا إلى شيءٍ من المنكرات ولا يخرجوا عمَّا هو مرتبٌ على أهل الذمة، وأطلقوا».

علامَ تدلُّ هذه القصة؟.

على أنَّ الأقليات حاولت إحراق البلاد بمن فيها، ثم عُفِيَ عنهم، على أن يلتزموا حدود الشرف والوفاء.

فماذا كان مَسْلَكُهم ـ بعد ـ؟؟.

كان الأقباط قد عُزلوا عن وظائفهم.

ويقول الكاتب في ص١٧٦: «وتدلُّ الدلائلُ كلُّها على أنَّ السلطان (قلاوون) وابنُه (الأشرف خليل) أعادَ النصارىٰ إلى وظائفهم».

وينقل عن المقريزي: «أنَّ هؤلاء النصارىٰ أصبحوا يعاملون المسلمين بأنفة، وأرادوا أن يظهروا أهميتهم بارتداء الملابس الثمينة.

ويروىٰ أنَّ أحد النصارىٰ واسمه (عين الغزال) صادف يوماً في طريق مصر سنة ٦٨٢ سمسار شونة مخدومه.

فنزل السمسار عن دابته وقبَّل رجل الكاتب، فأخذ يسبُّه ويهدِّده على مالٍ قد تأخَّر عليه من ثمن غلة الأمير، وهو يترفَّق له ويعتذر، فلا يزيده ذلك عليه إلا غلظة...

وأمر غلامه فنزل، وكتَّف السمسار ومضىٰ به، والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع أحمد بن طولون، ومعه عالمٌ كبير.

وما منهم إلا من يسأله أن يخلي عن السمسار، وهو يمتنع عليهم.

فتكاثروا عليه، وألقوه عن حماره وأطلقوا السمسار... إلخ».

علام تدلُّ هذه القصة؟.

كاتبٌ قبطي، يلقاه تاجرٌ مسلم ـ والتاجر راكبٌ دابته ـ فينزل عنها احتراماً للقبطي، ثم يقبِّل المسلم قدمه، ويطلب منه إنظاره في سداد دَيْنٍ عليه.

والقبطيُّ يسبُّه، ويلعنه، ويرفض إجابته، ثم يكتِّفه ويقتاده إلى قصر الأمير الدائن، والجمهور من خلفه يتوسَّل إليه أن يُطلق المدين الغارم: أي يطلق المسلم الذليل.

علامَ يدل هذا؟؟ على كارثة النصرانية في عهد المماليك!!؟.

وتظلُّ هذه المساخر متصلةً مدىٰ عشرين عاماً في القاهرة عاصمة المسلمين فينقل الكاتب في ص١٧٨ صورةً أخرى مشابهة لسابقتها، يقول:

«في شهر رجب سنة ٧٠٠هـ حدثت مأساة في القاهرة غريبةٌ من نوعها، ففي هذا التاريخ وصل القاهرة وزير صاحب المغرب حاجاً.

وبينما هو ذات يومٍ بسوق الخيل تحت القلعة إذا هو برجلٍ راكب على فرس وعليه عمامةٌ بيضاء، وفروجية مصقولة، وجماعة يمشون في ركابه، وهم يسألونه ويتضرَّعون إليه، ويقبِّلون رِجْلَيه، وهو مُعرِضٌ عنهم، وينهرهم، ويصيح بغلمانه أن يطردوهم عنه.

فقال له بعضهم: «يا مولاي الشيخ ـ بحياة ولدك النشر تنظر في حالنا»!.

فلم يزدْه ذلك إلا عُتُوّاً وتحامقاً.

فرقَّ المغربيُّ لهم، وهمَّ بمخاطبته في أمرهم، فقيل له: «وإنه مع ذلك نصراني» فغضب لذلك، وكاد أن يبطش به، ثم كفَّ عنه، وطلع إلى القلعة...» ويستطرد المؤرخون قائلين: «إنَّ الوزير المغربي اجتمع بالملك الناصر محمد بن قلاوون ونائبه يومئذٍ (سلّار). فتحدث الوزير المغربي معهم في أمر اليهود والنصارىٰ، وأنهم عندهم في غاية الذلة والهوان، وأنه لا يمكِّن أحداً منهم من ركوب الخيل، ولا الاستخدام في الجهات الديوانية.

وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أفخر الملابس

وركوبهم الخيل والبغال، واستخدامهم في أجلِّ المناصب. وتحكيمهم في رقاب المسلمين.

وذكر أنَّ عهد ذمتهم انقضى من سنة (٦٠٠) للهجرة.

فأثَّر كلامه عند رجال الدولة، ولا سيما الأمير بيبرس الجاشنكير...».

وواضح أنَّ الوزير المغربي ذُعر من المنظر الذليل الذي شاهده، وهاله أن يرى جماعةً من المسلمين يتدافعون ضارعين إلى قبطيٍّ يمتطي صهوة جواده، ويقبِّلون قدميه رجاء أن يرقَّ لحالهم، وهو يأمر عبيده بمطادتهم، ويحثُّ فرسه للابتعاد عنهم.

والحق أنَّ الأقباط في عهد المماليك، وفي العهود التي سبقته وجدوا الإسلام السمح يفتح أحضانه لتوظيفهم، والحكومات المختلفة تنظر إليهم على أنهم فريقٌ من الرعية، وتتيح لهم أن ينالوا ما يشاؤون من حظوظ المال والجاه.

فكان تقديرهم لهذا الصنيع أن استهزؤوا بالإسلام، واستغفلوا حكّامه، وتألّبوا ضد أهله، وكانت الجماهير بين الحين والحين تحسُّ الغضاضة من هذا الموقف النابي، فكانت تنفِّس عن ألمها المكبوت بكلمةٍ نابية، أو تهجُّمٍ محدود.

واختلفت مسالك الحكام بإزاء تصرفات النصارى.

فمنهم من كان يتغاضىٰ عنها، على ما بها من إجحافٍ صارخ بكرامة الإسلام ومصلحة الكثرة التي تدين به.

حتى إنَّ شخصاً تقدَّم إلى العزيز بالله يحمل عريضةً جاء في صدرها: «بالذي أعزَّ اليهود (بمنشة) والنصارى (بعيسى بن نسطورس)، وأذلَّ المسلمين بك».

وقد كثر أولئك الحكام المتهاونون، حتى إنَّ النصارى طمعوا في إعادة مصر إلى عهد ما قبل الفتح، أي طمعوا في إبادة الإسلام وإزالة سلطانه.

ويشهد لذلك الكاتب الصليبي نفسه إذ يقول في ص١٥٢ ـ معقِّباً على قصة ـ

مؤدَّاها أنَّ الموظفين الأقباط كانوا ينجزون الأوراق التي تتضمَّن مصالح طائفتهم فحسب.

قـال: «ولا عجب فإنَّ الأقباط كانوا يؤملون في ذلك الوقت في استراد النفوذ الذي كانوا يتمتَّعون به عندما فتح العرب مصر».

فهو يبرِّر تعصبهم ضد الكثرة بتعصبٍ مثله، ويضمُّ إلى ذلك الكذب على التاريخ.

إذ إنَّ الرومان كانوا عند الفتح يستغلون الأقباط.

ولو سار المسلمون على سياسة الرومان لبادَ الأقباط من زمانٍ بعيد. . .

وكان هناك حكامٌ آخرون يدركون خطايا النصارىٰ، ويستنكرون محاولتهم تغليبَ الطابع المسيحي على بلادٍ كثرتها مسلمة، ولا يتوانون في إنزال العقوبة بمن يفعل ذلك، وأغلب حوادث العزل من المناصب، وفرض الغرامات، وتقييد بناء الكنائس يعود إلى هذه العلة الدفينة. . .

ونحن نُخَطِّئ سياسة الحكام المسلمين في هذا الشأن.

فإنَّ إرخاءهم العنان للموظفين النصارى أوغرَ عليهم صدور المسلمين، وألقح الضغائن بين القلَّة والكثرة، وتوقيع العقوبات بعد ذلك على المتعصِّب منهم فُسِّر بأنه ظلم.

كان المماليك يتركون الموظفين الأقباط يعيشون، ثم يهجمون عليهم فيصادرون قسماً من مالهم.

وهذه فوضى أولاً وآخراً!!.

ولقد رأينا نابليون يرفض هذا المسلك. إنه شدَّد الرقابة ابتداءً عليهم.

وأظهر ـ بالحساب الدقيق ـ سرقات المختلسين منهم، ثم قرَّر فصلهم، وذلك هو النظام الذي لا ترقى إليه شبهة.

ومن هذا القبيل ما رواه الكاتب في ص١٣٩ من أنَّ أبا الحسن الصيرفي

رئيس مجلس العقود مرَّ بمدينة (دمرو) فوجدها أصبحت (قسطنطينية) أخرىٰ. إذ وجد فيها سبع عشر كنيسة حديثة البناء. فضلاً عن عددٍ كبير من الكنائس بنيت حديثاً في القرىٰ المحيطة بها.

كما لاحظ أنَّ البطريرك بنىٰ لنفسه قصراً نُقشت عليه عباراتٌ مهينة للإسلام.

وحكى الكاتب ـ بعدئذٍ ـ أنَّ البطريرك سُجِن، وأنَّ الكنائس أُغلقت، وأُلزم النصارى بدفع عشرة آلالف دينار غرامة...

وهذه القصة من رواية مستشرق فرنسي لا أعرف قيمته. وقد يكون صادقاً، وعندي أنه كان الأرشد في علاج هذا الإسراف المقصود في بناء الكنائس هو مراقبة الإنشاء لا الأمر بالإغلاق والتغريم.

على أنَّ الأقباط مضوا قدماً إلى غايتهم، لا يكترثون بهذه العوائق التافهة؛ إنْ جاء حاكمٌ فذٌّ فحدَّ من غلوائهم، جاء بعده جملة حكامٍ فتركوا لهم الحبل على الغارب..

ومضت السنون تلوَ السنين والخطب يتفاقم على المسلمين.

موظفون ينهبون مال الدولة ليدعموا به عصبيتهم، وكنائس تمدُّ قبابها في كل أفق، وغنيٌّ يعيش المسلمون على حواشيه صعاليك تُقَبِّلُ الأرجل، وتركض وراء الجياد، ثم الأنكىٰ من ذلك كله تربُّص الدوائر بجمهور المسلمين السادر.

فإذا هجم الخواجات من أوروبة على البلد الوادع المحروب أسرع الخَوَنة من أولئك يمدُّون لهم يد العون، ويمهِّدون لهم أسباب الغلب...

ومن هنا رأىٰ الوزير المغربي أنَّ عهد الذمة قد نقضه نصارى المشرق منذ أيدوا الصليبية الغربية في هجومها المتوحش على أرض الإسلام..

خيانة، واختلاس، وضغينة، وجحود، ما هذا كله؟.

﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

إنَّ هذه المشاعر كلها التي تلاقت دفعةً واحدة فتمخَّضت عنها الثورة

السخيفة التي اشتعلت على عهد المماليك ضد الأقباط . .

وليلاحَظ أنها ليست ثورةً دينية ! ! بدليل أنَّ الهياج كان ضد تصرُّف الأقباط فحسب .

أما اليهود فإنَّ أحداً لم يمسسهم بسوءٍ ، ولم يرد لهم في هذه الفتنة أيُّ ذكر .

ولو كان القصد إعنات امرىءٍ أو جماعة لأنها لم تعتنق الإسلام ، لما كان هناك أي معنىً ألبتة لترك اليهود يمرحون كيف يشاؤون ! .

ومع ذلك فما الذي حدث في هذه الفتنة؟ .

وماذا كان موقف السلاطين المماليك أنفسهم منها؟ . . .

بدأت الفتنة وعمال الحفر يقومون بإنشاء البركة الناصرية ، وكانت المساحة التي ينقلون الأتربة منها تتسع حتى اقتربت من جدران كنيسة الزهري ، وهنا عَمَّق الفَعَلة الخبثاء حفرَهم قصد أن تسقط الكنيسة من تلقاء نفسها ، بل إنهم تصايحوا بطلب الهدم ، ولكنَّ رؤساءهم تصامُّوا عنهم .

وفجأةً تجمَّع عددٌ من الغوغاء ، والناس حكومةً وشعباً مشغولون بصلاة الجمعة ، وهدموا الكنيسة ، ثم انتقلوا عنها إلى غيرها ، فهدموا خمس كنائس أخرى ، ونهبوا ما فيها من صناديق النذور وجرار الخمر ، وروَّعوا سكَّانها من الرهبان والراهبات .

حدث ذلك كله والناس لم يخرجوا من صلاة الجمعة (!) .

قال المقريزي : «فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاً كبيراً من كثرة الغبار ودخان الحريق ومرج الغوغاء وشدة حركاتهم ، ومعهم ما نهبوه ، فما شبَّه الناسُ الحال لهوله إلا بيوم القيامة .

وانتشر الخبر وطار إلى (الرميلة) تحت قلعة الجبل ، فسمع السلطان ضجةً عظيمة ورجَّةً منكرة أفزعته ، فبعث لكشف الخبر .

فلمَّا بلغه ما وقع انزعج انزعاجاً عظيماً ، وغضب من تجرُّؤ العامة وإقدامهم

على ذلك بغير أمره.

وأمر الأمير (أيدغمش) أمير (آخور) أن يركب بجماعة (الأوجاقية) ويتدارك هذا الخلل، ويقبض على من فعله.

فأخذ (أيدغمش) يتهيأ للركوب، وإذا خبرٌ قد ورد من القاهرة بأنَّ العامة ثارت وخرَّبت كنيسةً بحارة الروم، وكنيسةً أخرى بحارة زويلة.

وجاء الخبر أيضاً بأنَّ العامة قامت في جمعٍ كثير جداً، وزحفت إلى كنيسة (المعلقة) بقصر الشمع فأغلقها النصارى، وهم محصورون بها وهي على وشك أن تؤخذ.

فتزايد غضب السلطان، وهمَّ أن يركب بنفسه، ويبطش بالعامة، ثم تأخَّر لمَّا راجعه الأمير (أيدغمش) ونزل من القلعة في أربعةٍ من الأمراء إلى مصر، وركب الأمير (بيبرس) الحاجب والأمير (ألماس) الحاجب إلى موضع الحفر، وركب الأمير (طينال) إلى القاهرة.

وكلٌّ منهم في عدةٍ وافرة.

وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحدٍ فقامت القاهرة على قدمٍ وساق وفرَّ النهَّابة.

فلم يظفر الأمراء منهم إلا بمن عَجَز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر التي نهبها من الكنائس.

ولحق الأمير (أيدغمش) بمصر - وقد ركب الوالي إلى كنيسة (المعلقة) قبل وصوله ليخرج من زقاق المعلقة من حضر للنهب، فأخذه الرجم حتى فر، ولم يبقَ إلا أن يحرق باب الكنيسة.

فجرد (أيدغمش) ومن معه السيوف، يريدون الفتكَ بالعامة، فوجدوا عالماً لا يقع عليه حصر، وخاف سوءَ العاقبة فأمسك عن القتل.

وأمر أصحابه بإرجاف العامة من غير إهراق دم، ونادئ مناديه:

من وقفَ حلَّ دمه.

ففرَّ سائر من اجتمع من العامة وتفرَّقوا.

وصار أيدغمش واقفاً إلى أن أذَّن العصر خوفاً من عَوْد العامة، ثم مضى وألزم الوالي أن يبيت بأعوانه هناك. وترك معه خمسين من (الأوجاقية)...».

وعلى هذا النسق أخذ (المقريزي) يسرد الحوادث.

ولا بد لنا من وقفةٍ هنا لنقارن بين هذه الكارثة - كما سمَّاها الكاتب الكاثوليكي - وبين المذبحة التي أوقعها آباؤه الكاثوليك بخصومهم البروتستانت في عيد القديس (بارثلميو) في فرنسة عام ١٥٧٢م.

إنَّ الفتنة هنا لم تبدأ بصيحات المؤذنين من فوق سقوف المساجد إشارةً لبدء التخريب على النحو الذي تمَّ في فرنسة، حين بدأت أجراس الكنائس الكاثوليكية تدقُّ في منتصف الليل إيذاناً ببدء المذبحة في أوسع نطاق.

كلا.. كلا!.

الأمر في فرنسة كان اضطهاداً دينياً مبيَّتاً بدقَّة، قُصد به إبادةَ الخارجين على الكنيسة ابتغاء وجه (يسوع).

أما الذي حدث في مصر فهو مظاهرةٌ من الرعاع انتهزت اطمئنان الحكومة إلى سيادة الأمن، وانشغال المسلمين الأتقياء بأداء الصلاة في وقت الجمعة، فهجمت على الكنائس تسرق ما فيها من النذور وجرار الخمور، وأظنُّ أنَّ الإسلام معروفٌ حكمه على اللصوص والسكارى، ومعروفٌ مكان اللصوص والسكارى من جمهور المسلمين.

أما الفرق بين موقف المماليك في مصر، وموقف البابا والملوك الكاثوليك في أوروبة، فهو فرقٌ بعيد المدى، إنه فرق ما بين الحضيض والقمم...

إننا رأينا البابا وملوكه يستخفُّهم الطرب لأنباء المذبحة التي أوْدَت بحياة الألوف، وخلع أولئك الشيوخ وقارَهم، فكادوا يرقصون في خفَّة الغلمان.

حتى إنَّ البابا الأعظم أمر بتصوير مناظر المذبحة ليستمتع بها كلما شاقَه أن يسرِّح الطرف في صور الضحايا ومناقع الدماء!!.

فإذا تجاوزنا هذه السفوح التي تعجُّ بأخلاقٍ من الحمأ المسنون، وارتقينا إلى سيرة المماليك النظيفة، وإلى مسلكهم في مجابهة هذه الفتنة المفاجئة، وجدنا طرازاً آخر من احترام العقائد وصيانة الحقوق...

إنَّ المماليك ـ الذين يطعن في عهدهم ـ لم يقفوا موقف المتشفِّي أو المتفرِّج من هذه الفتنة الطائشة، بل ساقوا قواتهم في الحال لإطفائها.

وكان السلطان يشرف بنفسه على تشتيت هذه المظاهرات، ويصدر الأوامر الحاسمة بقتل المشاركين فيها، معتبراً الأقباط جزءاً من رعيته التي يجب أن يدافع عنها مهما أساءت.

إنه لم يسكّ أوسمةً كالبابا (جريجوري) الثالث عشر لتخليد ذكرى المجزرة.

لا. إنَّ السلطان (الناصر بن قلاوون) الحاكم المسلم في العصور المظلمة ـ كما يقولون ـ كان أرقى عاطفةً من البابا الذي يحكم أوروبة في نهاية القرن السادس عشر، وكان أرقىٰ إنسانيةً منه.

وبرغم علمه أنَّ سيرة الأقباط بين المسلمين المنطوية على التعصب والمكر والاستغلال هي التي أدَّت إلى هذه الفتنة، فإنه أبىٰ الوقوف جامداً بإزائها، فلما بلغه ما حدث لكنائس الأقاليم بعد كنائس القاهرة هاج غضبه. قال المقريزي:

«... فاشتدَّ حنق السلطان على العامة، خوفاً من فساد الحال، وأخذ الأمراء في تسكيت غضبه قائلين: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله.

ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه، وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وبقَدَرِه، لِمَا علم من كثرة فساد النصارى، وزيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نقمةً وعذاباً لهم».

* * *

ربما فقد النصارى في هذه الفتنة عشرة أشخاص أو بضعة عشر شخصاً.

ولا شكَّ أنَّ القتلى بين المتظاهرين ضدهم يبلغون ذلك أو يزيدون، لكن خسائرهم في الكنائس كانت جسيمة.

ولست أرجِّح أنَّ هذه الأفعال كانت عن تدبيرٍ منظَّم.

بل هي انفجارٌ متتابع لشعورٍ مكبوت، إثر إذلالٍ وتعصُّب طويلين من الموظفين والأعيان الأقباط.

وقد كان العامة في مصر يعرفون نقمة السلطان على مقترفي هذه الجرائم.

وكان الأقباط يعرفون أنَّ السلطان حزينٌ لمصابهم، وأنه أرسل يتعرَّف الكنائس المخربة، ومن أيسر الأمور عليه أن يعيد بناءها، ويعوِّض المصابين فيها.

ولو أنَّ الأقباط تحدَّثوا إليه، وقدَّروا دفاعَه الحار عنهم، لاندملَ الجرح، وانحلَّت الأزمة؛ خصوصاً وقد سبق أنْ أساء النصارى إلى المسلمين بالانضمام إلى أعدائهم من الرومان والصليبيين، ثم تغلَّب الحكام على ما يعقب ذلك من هياج الكثرة ضد القلة المتَّهَمة بالغدر.

لكن الأقباط لم يفعلوا ذلك، وقرَّروا إعلانَ الحرب الخفية على المسلمين، فبيَّتوا النية على إحراق القاهرة. قال المقريزي:

«لم يمضِ سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بمصر والقاهرة في عدة مواضع، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس.

وقع الحريق في ربع بخط الشوانين من القاهرة يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله، واستمرت إلى آخر يوم الأحد، فتلف في هذا الحريق شيءٌ كثير..

وعندما أطفئ وقعَ الحريق بحارة الديلم في زقاق العريشة بالقرب من دور (كريم الدين) ناظر الخاص.

وبلغ ذلك السلطان، فانزعج انزعاجاً عظيماً لِمَا كان هناك من الحواصل السلطانية، وسيَّر طائفةً من الأمراء لإطفائها، فجمعوا الناس، وتكاثروا عليها، وعظم الخطب من ليلة الإثنين إلى ليلة الثلاثاء.

فتزايدت الحال في اشتعال النار، وعجز الأمراء والناس عن إطفائها لشدة انتشارها في الأماكن وقوة الريح التي ألقت بأسقاف النخل وغرقت المراكب.

فلم يشكّ الناس في حريق القاهرة كلها وصعدوا إلى المآذن، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح، وضجُّوا بالتكبير والدعاء وجأروا، وكثر صراخ الناس وبكاؤهم.

وصعد السلطان إلى أعلىٰ القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح.

فما هو إلا أن كمل إطفاء الحريق، ونقل الحواصل، وإذا الحريق قد وقع في ربع (الظاهر) خارج باب زويلة، وكان يشتمل على مئةٍ وعشرين بيتاً، وهبَّت مع الحريق ريحٌ قوية.

فركب الحاجب والوالي لإطفائها، وهدموا عدة دورٍ حولها حتى انطفأت.

فوقع في ثاني يومٍ حريقٌ بدار الأمير (سلار) في خط بين (القصرين)، وحريق بحارة (الروم) وعدة مواضع أخرى، حتى إنه لم يخلُ يومٌ من وقوع الحريق في موضعه.

فتنبَّه الناس لما نزل بهم، وظنُّوا أنه من أفعال النصارى.

وذلك أنَّ النار كانت تُرىٰ في منابر الجوامع، وحيطان المساجد والمدارس، فاستعدوا للحريق، وتتبَّعوا الأحوال حتى وجدوا هذه الحرائق من (نفط) قد لُفَّت عليه (خرق) مبلولة بزيت وقطران.

فلمّا كانت ليلة الجمعة (النصف من جمادى) قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة (الكهارية) بعد العشاء الآخرة. وكانت النار قد اشتعلت في المدرسة، ورائحة الكبريت في أيديهما، فحُملا إلى الأمير (علم الدين الخازن)

والي القاهرة فأعلمَ السلطان بذلك، فأمر بعقوبتهما.

فما هو إلا أن نزل من القلعة وإذا العامة قد أمسكوا نصرانياً وُجد في جامع الظاهر، ومعه خرقٌ على هيئة (الكعكة) في داخلها قطران ونفط، وقد ألقى منها واحدةً بجانب المنبر، وما زال واقفاً إلى أن خرج الدخان فمشى يريد الخروج من الجامع.

وكان قد فطن إليه شخصٌ وتأمّله من حيث لم يشعر به فقبض عليه، وتكاثر الناس فجرُّوه إلى بيت الوالي، وهو بهيئة المسلمين.

فعوقب عند الأمير ركن الدين (بيبرس الحاجب).

فاعترف بأنّ جماعةً من النصارى اجتمعوا على عمل نفطٍ وتفريقه مع لفيفٍ من أتباعهم، وأنه ممن أعطي ذلك مثلهم، وأمر بوضعه عند منبر جامع (الظاهر).

ثم أمر بالراهبَيْن فعوقبا، فاعترفا بأنهما من سكان (دير البغل)، وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التي تقدَّم ذكرها بالقاهرة غيرةً وحَنَقاً على المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس.

وأنَّ طائفة النصارى تجمّعوا وأخرجوا من بيتهم مالاً جزيلاً لعمل هذا النفط.

واتفق وصول (كريم الدين) ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرفه السلطان ما وقع من القبض على النصارى، فقال:

النصارى لهم بطريرك يرجعون إليه ويعرف أحوالهم.

فرسم السلطان بطلب البطريرك عند (كريم الدين) ليتحدث معه في أمر الحريق، وماذكره النصارى من قيامهم في ذلك.

فجاء في حماية والي القاهرة ليلاً خوفاً من العامة.

فلما أن دخل بيت (كريم الدين) بحارة الديلم، وأحضر إليه الثلاثة النصارى من عند الوالي، فقالوا لكريم الدين بحضرة الوالي والبطريرك جميع ما اعترفوا به قبلاً.

فبكى البطريرك عندما سمع كلامهم وقال:

هـؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سـفهاء المسلمين على تخريبهم الكنائس.

وانصرفَ من عند (كريم الدين) مبجَّلاً مكرَّماً.

فوجد (كريم الدين) قد أقام له بغلةً على بابه ليركبها، فركبها وسار.

فعظم ذلك على الناس، وقاموا عليه يداً واحدة، فلولا أنَّ الوالي كان يسايره لهلك.

وأصبح (كريم الدين) يريد الركوب إلى القلعة كعادته.

فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامة: ما يحلُّ لك يا قاضي أن تحامي للنصارىٰ وقد أحرقوا بيوت المسلمين وتركبهم بعد هذا البغال.

فشقَّ عليه ما سمع وعظمت نكايته، واجتمع بالسلطان.

فأخذ يهوِّن أمر النصارى المحبوسين، ويذكر أنهم سفهاءٌ وجهَّال.

فرسم السلطان للوالي بتشديد عقوبتهم، فنزل وعاقبهم عقوبةً مؤلمة.

فاعترفوا بأنَّ أربعة عشر راهباً (بدير البغل) قد تحالفوا على إحراق ديار المسلمين كلها.

وفيهم راهبٌ يصنع النفط، وإنهم اقتسموا القاهرة ومصر، فجعلوا للقاهرة ثمانية ولمصر ستة.

فكبس (دير البغل) وقُبض على من فيه وأُحرق من جماعته أربعة بشارع (صليبة ابن طولون) وقد اجتمع لمشاهدتهم عالمٌ عظيم...

* * *

وليس بمستغربٍ أن تشتعل نيران الفتنة، وأن تمتد أضرارها حتى يصطلي بحرِّها من ليس له ذنبٌ فيها.. من مسلمين وأقباط.

وإذا نحن نظرنا إلى هذه المحنة من ناحية الخسارة المادية، وجدنا مصاب المسلمين ومصاب غيرهم سواء.

فالكتابة عنها تحت عنوان «كارثة النصرانية في عهد المماليك» ليست كتابةً نزيهة . .

على أنَّ لنا ملاحظاتٍ يجب إثباتها لإلقاء ضوءٍ كاف على الموقف كله.

فإنه ظاهرٌ للعيان أنَّ الحكومة الإسلامية القائمة اعتبرت الشغب الحادث خروجاً عليها، وأنزلت بمرتكبيه آلمَ العقاب.

وأنها استنكرت مظاهرات الغوغاء وساندت جمهور الأقباط.

واستدعت (البطريرك) ليشرف بنفسه على مجرى التحقيق، واستقبلته وودَّعته بإكرامٍ وتَجِلَّة.

ولو أنَّ الأقباط قدَّروا للحكومة مسلكها، ورجعوا إليها في المطالبة بتعويض ما فقدوه لكان ذلك أدلَّ على إدراكهم للأمور وشكرهم للصنيع.

لكن ما حدث أنَّ مظاهرات الغوغاء قابلتها مؤامرات الرهبان والقساوسة لحرق القاهرة!! . .

ولو أنَّ حضرات الرهبان والقساوسة اكتفوا بالحريق الذي أضرموا شعلته أولاً، وأوقع بالعاصمة أفدح الأضرار، ثم ظفروا بالنجاة من غوائل فعلتهم، لكان ذلك أجدى عليهم وعلى طائفتهم.

غير أنهم ازدادوا ضراوةً وحمقاً، ومضوا في خطتهم يريدون تدمير كل شيء!! . .

ومع ذلك كله فقد أبت حكومة المماليك أن تنظر في المشكلة من زاوية التعصب الديني، بل اعتبرت الرعاع من العامة والسفهاء من القسس مجرمين في حقِّ الأمن العام فقط، واقتصَّت منهم على هذا الأساس.

ومضت الأيام، وغلبت على مسلمي مصر طباعهم الوادعة، فنسوا ما كان،

وتلاقى الفريقان في المواسم والأسواق يستأنفون حياةً لا اضطراب فيها.

وارتفع الأقباط في شتى مناصب الدولة، وتطاولوا في البنيان.

وباهوا غيرهم بسعة النفوذ وبسطة الثراء، فكيف يقول قائلٌ بعد ذلك:

إنَّ كارثة النصرانية في عهد المماليك هي التي جعلتهم يرحِّبون بغزو الفرنسيين لمصر؟.

بيد أنَّ الكاتب المغرض يريد أن يبرّر هذه الخيانة ـ التي لا مبرر لها أبداً ـ فيقول في ص٢٢٧:

«يمكننا أن نستنتج من حوادث هذه الحملة ـ الفرنسية ـ ثلاثة أمور:

أولاً ـ أنَّ احتقار المسلمين للأقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين عسيراً.

ثانياً ـ أنَّ وجود أمة مسيحية في مصر أساء إلى العلاقة بين الأقباط والمسلمين، بالرغم من أن هذه الأمة كانت مشبعةً بروح العطف على الأغلبية.

ثالثاً ـ أنَّ الأقباط الذين اضطهدهم المماليك واحتقروهم أصبحوا يرحِّبون بأمم (أوروبة) المسيحية على شرط أن تكون هذه الأمم بعيدةً عن كلِّ غرضٍ ديني».

أي أنَّ الأقباط ـ في رأي الكاتب ـ يحبُّون أن تَحتلَّ مصرَ دولةٌ مسيحية من دول أوروبة الكاثوليكية أو البروتستانتية على شرط أن تدع الأقباط يستمتعون بحريتهم الدينية نصارى أورثوذكس.

وهذا هو بيت القصيد عند الكاتب، وقد مَهَّد له بكلٍّ من السببين الأولين وكِلاهما باطلٌ انتُحلَ انتحالاً سريعاً لتسويغ ما بعده.

فإنَّ المسلمين في مصر لم يتبرَّعوا باحتقار الأقباط، ولا تعبَّدوا الله بالإساءة إليهم.

ثم إنَّ الزعم بأنَّ الفرنسيين أو الإنكليز جاؤوا إلى مصر عاطفين على المسلمين

من أهلها هو كلامٌ تُحسنُ افتراءَه دور الدعاية في الدول المستعمرة.

وسَوْقُه هنا يكشف عن نية صاحبه في خدمة الاحتلال الأجنبي، وتجريح المقاومة الإسلامية للغاصبين، ومن يعمل معهم من الغادرين..

* * *

ماذا يريدون

إنه يتَّضح من استقراءِ الحوادث التي حَفَل بها التاريخ المصري من الفتح إلى اليوم، أنَّ لدىٰ النصارىٰ رغبةً جامحة في تنقُّص الإسلام، واعتبار أهله غرباء في هذه البلاد، ومحاولة الاستئثار بالسلطة دونهم، حتى يتمَّ بالخديعة أو بالقهر هدم الحكم الإسلامي، وإقامة حكم آخر مكانه أيّاً كان لونه!!(١).

ومن الظُّلم أن نَتَّهِمَ الأقباط عامةً بأنهم شركاء في الوصول إلى هذه الغاية الجائرة، ففيهم ـ في كلِّ زمانٍ ومكان ـ أهلُ إنصافٍ وعدْل، يريدون أن يقاسموا المسلمين حياةً آمنة مستقرة، ولا يَرَوْنَ غَضَاضةً في إعطاء المسلمين حقَّهم باعتبارهم كثرة.

ومن حقِّ الكثرة المعترَف به في الأنظمة كلها أن تكون الدولة لها والولاية العامة في بنيها.

وما دامت القلَّة تعيش مساويةً في حقوقها وواجباتها وحرياتها للكثرة التي تجاورها، فأيُّ حرجٍ سوف يلحقها؟.

لكن سياسة الأقباط لا يرسمها ـ للأسف الشديد ـ هذا النفر العاقل.

فما أكثر ما يفلت الزمام منه، فتبدو الطائفة. وكأنَّها لا تستريح إلا إذا زال الإسلام وزالت دولته من الوجود، وهنا موطن الصعوبة في علاج المشكلة..

فنحن ـ المسلمين ـ لن نتركَ ديننا، ولن نجحدَ شريعتنا، ولن ننسى وحدتنا.

وفي الوقت نفسه لن نجورَ على غيرنا، ولن نصادرَ شعائره أو عباداته.

---

(١) انظر كتاب (قذائف الحق) للمؤلف، ص٥٧. (الناشر)

وإذا كانت راحة النصارى الوحيدة في أنْ نتركَ دينَنَا، فلن يستريحوا ماحيوا وحيينا.

وإذا كانوا سيَجْمَحون ويطيشون كلما سمعونا نتحدَّث عن الحكومة الإسلامية فلن تكون عقبىٰ هذه المشاعر النافرة مُجْدِيَةً عليهم شيئاً.

ومن الخير لهم أن يلتزموا الجادة.

وسواء اعتدلوا أم تطرَّفوا فلن نحيفَ عليهم! بل سنظلُّ أشرافاً في مسلكنا.

* * *

ونحب أن نلقي نظرةً عجلىٰ على حوادثِ السبعينَ عاماً الأخيرة، ليرىٰ القارئ المحور الذي يدير عليه النصارىٰ سياستَهم بإزاء الإسلام:

في سنة ١٨٨٢م ضرب الإنكليز الإسكندرية، وشنُّوا هجوماً شاملاً علىٰ مصر، وكان السبب الأصيل لهذا العدوان خوف الإنكليز من قيام دولةٍ دستورية قوية في وادي النيل.

إذ إنَّ (عرابي) أراد وضعَ حدٍّ لفوضى الحكم الفردي والمفاسد التي تنتشر تحت ستاره الداكن.

و(عرابي) قائدٌ مسلم في أمَّةٍ تسعةُ أعشارها مسلمون.

فهل يُستغرَب منه أن يدعو إلىٰ الجهاد الديني لمقاومة الغزاة؟؟.

هل يُسْتكْثَرَ عليه أن يستثير حَمِيَّةَ أمته الدينية في ساعة محنتها؟؟.

لماذا لم يُستنكر ذلك من (تشرشل) و(روزفلت)؟.

أم أنَّ المراد هضم الإسلام وحده؟.

أرسل عرابي إلى (غلادستون) يهدِّده ـ قبيل قذف الإسكندرية ـ بإعلان الجهاد العام حسب تعاليم الإسلام، وكان هذا الإعلان كافياً ليفضَّ الأقباط من حوله، وينفِّرهم من الدفاع عن البلاد!.

يقول الكاتب في ص ٢٢٤ :

« . . إنَّ هذه الأسباب أَثَّرَت في مجرى الحوادث، وحَدَث أنَّ المتظاهرين والقوات المتقهقرة كانوا يخلطون كثيراً بين الأجانب والنصارىٰ الوطنيين» .

وقيل : إنَّ هناك مؤامرات لإبادة النصارى جميعاً؟ .

ويقول الكاتب في الصفحة نفسها :

«احتجَّ عرابي لـدىٰ (م. جريجوري) مراسل جريدة (التيمس) على اتهامه بالتعصب .

غير أنَّ (بلانت) لاحظَ أنَّ القائد المصري أضفىٰ على الحركة طابعاً دينياً أكثر من مشايخ الأزهر أنفسهم» ! .

وقد انهزم عرابي وأخفقَت ثورته .

وبـدلاً من أن تظفر مصر المسكينة بالخلاص مِن أوزارِ الحكم الفـردي سقطت في مخالب الاحتلال البريطاني، ووضعت بريطانية ـ وهي دولةٌ صليبية ـ يدَها على مقاليد البلاد التي تخشىٰ من قيام دولةٍ قوية في ربوعها .

فلم يكن عجباً أن ترسم لها سياسةً تصل بمستواها المادي والأدبي إلى حدٍّ معيَّن، الحد الذي يجعلها مَطِيَّةً ذلولاً، أو بقرةً حلوباً للإمبراطورية الفاجرة . .

فماذا كان موقف الأقباط مِنْ هذا الاحتلال الصليبي الجديد؟ .

* * *

اجتمعَ الأقباط في (أسيوط) على هيئة مؤتَمَرٍ، وتقدَّموا إلى حكومة الاحتلال بمطالب عديدة تمثِّل أماني الأمة القِبْطية . .

ونحن نعطي الأقباط الحقَّ كلَّه ـ لو كانوا مظلومين ـ أنْ يستعينوا بالشيطان في دفع الضرِّ عن أنفسهم، ونرفض اتهامهم بخيانة الوطن، والحالة هذه .

فلننظر . . هل كان الأقباط مظلومين حقاً حتى يلجؤوا إلى المحتلِّين يطلبون نصفتهم؟ .

نقل الكاتب نتفةً من مقدمة تقريرٍ عن مؤتمر أسيوط للأستاذ (توفيق حبيب) ـ وهو قبطي ـ جاء فيه:

«كان الحكام يختصُّون بالوظائف العمومية فئاتٍ أو طوائف معينة، سواء بحكم الميل أم الضرورة.

ومن هذا القبيل نجد جميع الحكام والولاة الذين تقدَّموا (محمد علي)، بل (محمد علي) نفسه وبعض خلفائه قد اختصُّوا الأقباط بمعظم مصالح الحكومة في القاهرة والأرياف، كما اختصُّوا الأتراك بالوظائف العسكرية والإدارية.

ولو قرأت أقوال المؤرخين المسلمين لما وجدت اسم المصري المسلم في غير وظائف القضاء الشرعي إلا نادراً ـ ص٢٤٧ ـ.

هذا التقرير يصوِّر فكرة الأقباط عن الوظائف، ومعنىٰ المساواة فيها؛ فلنتدبَّره جيداً، ثم لنضمَّ إليه كذلك الإحصاء الذي أرسله السير (ألدون غورست) المعتمد البريطاني إلىٰ حكومته في تقريرٍ عن سنة ١٩٠١م.

وهذا الإحصاء ـ كما أثبته الكاتب ـ يدلُّ على أنَّ الأقباط الذين هم عشر السكان كانوا يحتلُّون (٣٢,٤٥٪) من الوظائف، ويقبضون (٤٠٪) من المرتبات.

في حين أنَّ نصيب المسلمين لم يتجاوز (٤٤٪) والأجانب (٦٪).

فَمِمَّ كان الأقباط يشكون؟.

وأين الظلم النازل بهم من المسلمين قديماً أو حديثاً؟.

ومَن الذي يطلب المساواة، ويستصرخ العدوان النازل به؟.

القلَّة المدلَّلة؟.. أم الكثرة المهمَلة؟!.

إنَّ مؤتمر أسيوط هذا، كان خيانةً دنسة، وغدراً مركَّباً.

وهو ـ مع ضميمة الأحداث السابقة في التاريخ القديم ـ دلالةٌ لا ريب فيها علىٰ تعصُّبٍ أعمى ضد الإسلام وأهله، وضغينةٌ صليبية لا يشفيها شيء.

والواقع أنَّ الإنكليز لمَّا دخلوا مصرَ وجدوا الحالةَ نفسها التي وجدها الفرنسيون المستعمِرون قبلاً.

استقبلهم المسلمون بسخط المقهور، وذلَّة المغلوب على أمره.

وهَرَع غيرهم لاستقبالهم بنوعٍ من الإيناس والليونة..

وبشَّ الإنكليز في وجوه مَن بشُّوا لهم.

ولكنهم لم ينسوا أنهم يريدون استغلالَ خيرات المصريين لحسابهم الخاص، وأنهم في هذه الحدود يقبلون العَوْنَ ويرحِّبون بالخيانة؛ ولا عليهم أن يضعوا أيديهم في أيدي الخونة من المسلمين أو من النصارى.

وقد كان الأقباط في ظل الدولة الإسلامية المضطربة، والحكم الفردي العابث يحتازون الخير الكثير لأنفسهم أفراداً وطائفة.

وقد رفض (نابليون) هذا الوضع ـ كما بيَّنا آنفاً ـ ورفض الإنكليز أيضاً هذا الوضع.

واعترفَ الكاتب الصليبي بهذه الحقيقة رغم أنفه، فقال في ص٢٤٧:

«ليس الاحتلال البريطاني هو الذي ألغىٰ احتكار الأقباط للأعمال الحسابية، فإنَّ إدخال الطرق الحديثة في العمل هو الذي أدَّىٰ إلى إلغاء هذا الاحتكار.

وقد شَكَا (هامون) بحقٍّ من أنَّ كلَّ نظامٍ كفيل بتسهيل العمل الإداري كان يرفضه الأقباط، إذ كانوا يعيشون في الفوضى ومن الفوضى».

لكن.. هل أُقصيَ أولئك الذين يعيشون في الفوضى ومن الفوضى عن وظائف الدولة مما أنطقَ ألسنتَهم بالشكاية وطلب المساواة..؟.

كلا كلا.. وما كان الإنكليز ليفعلوا ذلك.

فإنَّ نسبة الأقباط ـ حتى انعقاد مؤتمر أسيوط وما تلاه ـ كانت ترجح على المسلمين بشكلٍ مروِّع.

غير أنَّ هذه النسبة مهما عَلَتْ لن تُشْبِعَ مطامعَ قومٍ يريدون إقصاء الإسلام بشكلٍ حاسم عن كافة مظاهر الحكم.

وقد صرَّح الأستاذ (توفيق حبيب) بهذه النية، إذ قال في حديثه عن مؤتمر أسيوط القِبْطي:

«.. لقد أباحَ رجال الاحتلال للمسلمين، بل أعدُّوهم، لدخول جميع الوظائف الكتابية والحسابية وغيرها مما كان مُحتكَراً للأقباط قبلاً».

* * *

استردَّ المصريون صوابَهم بعد الضربة الموجعة التي أنزلها الاستعمار بهم، ونَشَطَ الأحرار لمقاومة اللصوص الحمر، وتعسير مقامهم في أرض الوادي، فتألَّف (الحزب الوطني) لتنظيم الجهود وإعلان الجهاد.

وكان مؤسِّسُ هذا الحزب شاباً وطنياً صادق الرغبة في خدمة المصريين جميعاً ورفعة شأنهم(١).

وقد أفهمَ الأقباطَ أنهم والمسلمين سواء، وأنَّ اتحادَهم مع مسلمي مصر في مواجهة العدو المحتل تُمْليه واجباتُ الشرف والرجولة.

وقد نصَّ الزعيم الشاب في برنامج حزبه على أنَّ الدين لا يفرِّق بين مصريٍّ ومصريٍّ في الحقوق والواجبات.

وقد انضمَّ إلى هذا الحزب أول تكوينه نفرٌ من الأقباط المعقولين، وساهموا في أداء الواجب القومي، وإنالة البلاد وأهلها الحرية المنشودة.

غير أنَّ الحزب الوطني اهتمَّ في سياسته الخارجية بالوحدة الإسلامية، واهتمَّ في سياسته الداخلية بشؤون المسلمين باعتبارهم كثرةً كبرى.

فأقرَّ الإسلامَ ديناً رسمياً للبلاد، واعترف بحقِّ معتنقيه في نَيْل أنصبتهم

---

(١) هو مصطفى كامل. (الناشر)

كاملةً في الإدارة والتوجيه العام .

وما إنْ رأىٰ المتطرِّفون من الأقباط إخوانَهم المسلمين يستمسكون بدينهم على هذا النحو ـ حتى كفروا بالحزب ومبادئه ، وتواصَوْا بمقاطعته .

وصَدَر الأمرُ إلىٰ الأقباط جميعاً بترك الحزب الوطني . . ! .

إننا نمتعضُ إذ نذكر أنَّ رئاسة الحكومة المصرية أُسْنِدَت في العصر الأخير إلى رُجُلَيْن ليسا بمُسْلِمَيْن ، هما(نوبار باشا) و(بطرس غالي باشا) .

فأمَّا أولهما فقد مكَّن للأجانب في البلاد ، ورسَّخ امتيازاتهم على حساب أهلها ، فأصبحَ المسلم يُقتَل في عقر داره ، ولا تمتدُّ يدُ الحاكم إلى الجاني بعقاب ، لأنه من أصحاب الامتيازات ! ! .

وأمَّا الأخر فقد سَلَّم السودان للإنكليز ، وعملَ على مدِّ امتياز قناة السويس ، ومضىٰ في سياسةٍ طائشة لملء الوظائف العامة بالأقباط دون المسلمين ، فانتهى الأمر بقتله .

ولمَّا كان القاتل شاباً مسلماً ، والقتيل رئيساً قبطياً ، فقد اعتبر الأقباط ذلك عدواناً دينياً على طائفتهم في حين اعتبر الوطنيون ذلك عملاً سياسياً بحتاً .

* * *

وإننا لَنَسْخَر كلما سمعنا هارفاً يزعمُ أنَّ اعتبار الإسلام ديناً رسمياً للدولة ، والعودة إلى شريعته في الحكم ، والانْضواء تحت جامعته الكبرى في الخارج . . إننا لنسخر إذْ نسمعُ من يصف هذا بالرجعية(!) .

مَنْ قال : إنَّنا نتأخَّر عن ملاحقة الحضارة الحديثة لأنَّنا مسلمون؟ .

هل تكون دولةٌ أكثر رجالها من النصارى هو الذي يجعلنا تقدميين ؟ .

وهل تركُ الدولة في حضانة الكنيسة ترسم لهم سياسةَ القضاء على الإسلام هو المسايرة للحضارة الحديثة؟ .

إنَّنا نؤكِّد أنَّ الدولة في يد الأقباط أداةٌ للقضاء على الإسلام .

ونظرةٌ واحدة إلى مسلمي الحبشة تحت حكم الأقباط هناك تدلُّ على هذه الحقيقة المرة.

سافرت بعثةٌ من الأزهر مؤلَّفة من الأستاذين الفاضلين (عبد الله المشد) و(محمود خليفة) الأستاذَيْن بكلية الشريعة إلى بلاد (الصومال) و(أريترية) و(عَدَن) و(أثيوبية) لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد.

واستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر ما بين يوم (٢٦) من شعبان سنة ١٣٧٠هـ الموافق أول يونيو سنة ١٩٥١م، ويوم (٢٩) من ذي القعدة الموافق أول سبتمبر سنة ١٩٥١م.

وكتبت تقريراً مفصَّلاً يقع في ستين ومئة صفحة كبيرة، يتَّسم بالدقة والاعتدال والواقعية...

ومع هذا فقد حوى هذا التقرير عجباً عجاباً عن الاضطهاد الديني في القرن العشرين.

وهذه براعة الاستهلال:

«عقب انتهائنا من زيارة (بورمة) مِن أعمال الصومال البريطاني، رأينا أنْ نواصلَ الرحلة إلى (أثيوبية=الحبشة) نظراً لأنَّ الميعاد المحدَّد لدخولنا فيها قد أوشك أن ينتهي. فسافرنا يوم (٢٦) من يوليو سنة ١٩٥١ بالسيارة إلى (جيجيجا) وهي أول مدينة من مدن الحبشة في جنوبها الشرقي، وتعتبر عاصمة الصومال الأوغاديني.

وبعد أن نزلنا الفندق ومكثنا فيه ساعةً ونصف الساعة أُمِرْنا بمبارحة المدينة، ولم يُسمح لنا بالإقامة، فاضطررنا للعودة إلى هرجيسة في مساء اليوم الذي دخلنا فيه، ثم بَرَحنا هرجيسة إلى عدن، ثم منها إلى أسمرة.

وبعد أن أقمنا عشرة أيام أُخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا بأنَّ وزارة خارجية أثيوبية سمحت لنا من جديد بدخول أثيوبية.

فسافرنا بالطائرة إلىٰ (أديس أبابا) يوم الخميس (١٦) من أغسطس سنة ١٩٥١، وأقمنا بها اثني عشر يوماً حاولنا في خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم في العاصمة والمدن الكبيرة، وأن نتَّصل بالمسلمين، فلم نستطع إلى ذلك سبيلاً لأسبابٍ خارجة عن إرادتنا.

ولم يمنعنا ذلك من الوقوف على كثيرٍ من شؤون المسلمين في أثيوبية.

وسنذكر بعض ما يمكننا ذكره منها في هذا التقرير متوخِّين الحقائق التي يهمُّ أولي الأمر الاطلاع عليها».

ثم يمضي التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغريبة التي لا يكاد يعرفها أحد.

وهي أنَّ نسبة المسلمين في أثيوبية بصفةٍ عامة لا تقلُّ عن (٦٥) في المئة من مجموع السكان، وأنَّها ترتفع في بعض المناطق إلى (٨٥٪) وتهبط في بعضها إلى (٢٥٪).

وهي في عمومها أغلبيةٌ أكيدة مع انقسام السكان إلى مسيحيين ويهود ووثنيين.

ويعتمد التقرير في هذا علىٰ الإحصاء الإيطالي الدقيق الذي قام به الإيطاليون في سنة ١٩٣٦م وإحصاءات القنصليات الأجنبية في أثيوبية.

وهي حقيقةٌ غريبة كما قلت.

ويزيدها غرابةً ما سنعرفه من إهمال العنصر الإسلامي إهمالاً تاماً في الوظائف والتعليم والمعيشة وتجريده من سائر حقوق المواطنين!!.

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة:

أولاً ـ أنَّ الحكومة الأثيوبية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالي، قد اغتصبت من المسلمين ثلثي أملاكهم العقارية وسَلَّمتها للمسيحيين من الرعايا، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين، حِرْصاً على إفقارهم وانحلالهم.

ثانياً ـ أنَّ الحكومة الأثيوبية تمنح إرساليات التبشير المسيحية كلَّ العناية

والرعايـة في الوقت الذي تحرِّم فيه على المسـلم أن ينتقل من محلَّته إلى محلَّةٍ أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم، وتقضي على كلٍّ محاولةٍ ترمي إلى ذلك.

وقد جاء في تقريرٍ لهذه الإرساليات، أنه يمكن تنصير جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظراً لجهلهم وفقرهم، وعدم وجود من يعلِّمهم دينهم، أو يحثُّهم على التمسُّك بعقيدتهم.

ثالثاً ـ أنَّ أكثر المسلمين في الأثيوبية اهتماماً بنشر علوم الدين هم مسلمو مقاطعات كفا ـ جيما ـ واللور وهرر، وأنه كان في (جيما) وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلمين.

ولكن بعد أن أُعلن ضمها إلى الإمبراطورية الأثيوبية، واعتُقل سلطانها الأمير (عبد الله) بن السلطان محمود بن داود المشهور باسم (أبي جفار) وزُجَّ به في غَيابةِ السجن.. استولت الحكومة الأثيوبية على هذه المدارس، ثم أغلقت أكثرها، وغيَّرت مناهجَ ما بقيَ منها.

ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الإسلامي أثراً فيها.

رابعاً ـ أنَّ السلطة في أثيوبية جاهدةٌ في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها.

وأنها أنشأت لذلك حوالي مئتي مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات. ليس بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المئة من مسلمي أثيوبية، الذين لم تجد الحكومة بدّاً من قبولهم لظروفٍ خاصة.

وأنَّه على الرغم من زيادة عدد المسلمين على المسيحيين لا تقوم الحكومة بالإنفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المئة من ميزانية التعليم.

هذا إلى أنَّ برامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامي نصيبٌ منها، حتى في المناطق الإسلامية المحضة.

خامساً ـ إنَّ المسلمين قد أَلَحُّوا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامي، واللغة العربية في المدارس التي بها.

فعيَّنت مدرِّسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامي، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية.

واختارت مدرِّس الدين الإسلامي من بعض الجهلة الذين لا يدْرونَ شيئاً من تعاليم الإسلام، ولم تحدِّد لحصَّة الدين زمناً خاصاً كغيرها من حصص الأمهرية والإنكليزية وسائر العلوم التي تعلَّم في المدرسة.

بل كلَّفت مدرِّس الدين الإسلامي أن يجمع التلاميذ في الأوقات المخصَّصة لراحتهم ليعلِّمهم فيها المبادئ التي لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركانها وشروطها، وما شاكلَ ذلك.

فكان ذلك المدرِّس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم، ويمرُّ العام كلُّه دون أن يلقي عليهم درساً واحداً.

سادساً ـ أنَّ الحكومة اختارت في العام الماضي بعثاتٍ من المتخرِّجين في بعض المدارس وأوفدتها إلىٰ المعاهد المختلفة في الخارج ليعودوا فيتولَّوا المناصبَ الكبيرة في الدولة.

وقد كان من المبعوثين اثنان من المسلمين بحكم تفوَّقهما البارز.

ولكن بعد أن تمَّت إجراءات سفرهما حِيلَ بينهما وبين السفر لأسبابٍ غير معروفة.

سابعاً ـ أنه كان للمسلمين ثماني مدارس، وكانت الدراسة فيها قائمةً على أساس اللغة العربية والدين الإسلامي.

ومواردها تأتي من التبرعات والهِبَات بواسطة جمعيات لهذا الغرض، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين.

وقد ظَلَّت تؤدي مهمتها رغم جميع المتاعب إلى سنة ١٩٤٩م.

ولكنَّ الحكومة أرادت إخضاعها لبرامجها الخالية من اللغة العربية والدين، فلمَّا رفض القائمون عليها هذا الأمر، سَلَكَت الحكومة مع هذه الجمعيات مسلكاً

اضطرَّ أعضاؤها بسببه إلى التخلّي عن مساعدة هذه المدارس والتنازل للمعارف عن ثلاثة مدارس منها.

وعندئذٍ حَذَفت منها مادَّتَي اللغة العربية والدين الإسلامي.

ثامناً ـ أنَّ المدارس الباقية في طريقها إلى هذا المصير البائس، لأنَّ الوسائل التي اتُّبِعَت بشأن المدارس الثلاثة ماضيةٌ في طريقها، وقد تركت البعثةُ أثيوبية ومدرسةً رابعة تلاقي مصيرها!.

تاسعاً ـ أنَّ إحدى المدارس الباقية طلبت من المعارف أن تسمح لبعض المدرِّسين المصريين بأثيوبية أن يقوموا بتدريس بعض العلوم في أثناء فراغهم نظراً لحاجة المدرسة إلىٰ بعض المدَرِّسين الأكْفاء، ولكن وزارة المعارف الأثيوبية رفضت هذا الطلب.

عاشراً ـ أنَّ الكتب العربية لا يُسمح بدخولها إلى أثيوبية ولا تداولها.

أمّا الجرائد والمجلات العربية فيُسمح بدخولها تحت المراقبة الشديدة!».

والحق أننا ـ في مصر ـ نتوجَّس من اتجاه القلّة القِبْطية إلى التأسّي بأختها في أثيوبية.

أي أننا نتوجَّس من زَوَال الإسلام وأفول نجمه، لو تركنا النصارىٰ يتولَّونَ المناصب الكبرىٰ ويتصرَّفون كما يحلو لهم.

وننقل هذا التقرير الناطق بأحزان المسلمين وآلامهم ليكون شاهدَ عدلٍ على الفروق بين حكمٍ وحكم، ودينٍ ودين[1].

* * *

---

(١) التلخيص للأستاذ سيد قطب.

كلمة أخيرة

لا ضرورةَ لخداعٍ أو موارَبة . . .

إنَّنا سنكشف عن نوايانا كلها، لأنه ليس لدينا ما نستحيي من إعلانه، لقد رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ نبياً ورسولاً - والتزمْنَا يوم أسلمنا - أنْ نُنَفِّذَ تعاليم كتابِنا وسنَّة نبيِّنا ﷺ.

وليس في هذه التعاليم ولا في تلك السُّنَّة ما يضير امرءاً يُؤْثِرُ الكفر بها، ويرغب في العيش بعيداً عنها.

إنه سيعيش في بلادنا مثلنا، له ما لنا وعليه ما علينا.

فإذا اشترطَ أن نرتدَّ عن ديننا حتى يرضىٰ عنّا، فسندعُه يموت بغيظه، ولا يلومنا على ذلك إلا أحمقٌ أو منافق.

ومن تعاليم كتابنا ووصايا رسولنا ﷺ أنْ نتحاكَمَ إلى قانونٍ بعينه، وأن نُحارَب منكرات بعينها، وأن نعرف في الدنيا بهذه الوجهة البيِّنة.

وإلا فنحن - إنْ فَرَّطنا في ذلك - كافرون بما أنزل الله.

ومن تعاليم كتابنا ووصايا نبينا ﷺ أن نهتمَّ بأمور المسلمين حيث كانوا، وأن نكره الأذىٰ لهم، وندفعَ الضَّيْر، عنهم ما استطعنا.

ونحن - إنْ فرَّطنا بذلك - كافرون بما أنزل الله.

وقد أحسنَّا إلى جيراننا من أهل الكتاب.

فمن قَدَّر منهم حُسنَ عِشرتنا له، شكرنا له جميلَ تقديره.

ومن غلبته ضغينتهُ عَدَلْنا معه عَدْلَنا مع أنفسنا.

وإذا وقع منّا خطأٌ نحو أحد، فلسنا بالذي يُصِرُّ على هفوةٍ بَدَرَتْ منه.

ومن حقِّ كلِّ إنسان أن يجادلنا بالحق، وأن يُنزلنا على حكمه.

ولن ندخر وسعاً في محاربة الاستعمار الأوروبي، حتى نطرد من بلادنا آخر جنديٍّ من جنود الغزو الصليبي الحديث.

ولن نقبل مهادنةً لهذا الاحتلال الماكر.

فمَن والاه أو سالمَه فهو يستعلنُ بخصومتنا ويستهدف عداوتَنا.

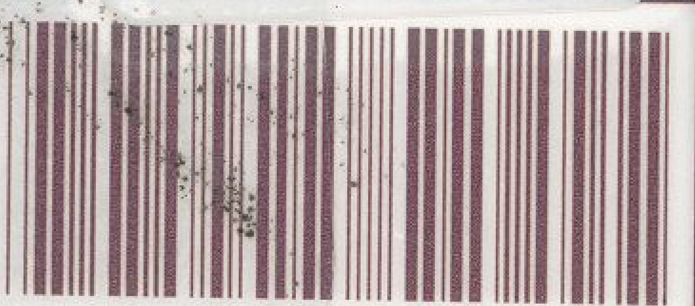
* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

* * *





تُطلب جميع كتُبنا مِن :

دَار القَلم ـ دمَشق: ص ب : ٤٥٢٣ ـ ت : ٢٢٢٩١٧٧

الدّار الشاميَّة ـ بَيروت ـ ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦

ص ب : ١١٣/٦٥٠١

توزّع جميع كتبنا في السّعُوديّة عَن طريق

دَار البَشير ـ جدّة : ٢١٤٦١ ـ ص ب : ٢٨٩٥

ت: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١